حين مشينا للحرب

ما لم يقله الجنرالات في القادسية

ملهم الملائكة

ملهم الملائكة

حين مشينا للحرب

ما لم يقله الجنرالات في القادسية

هذه الوقائع، مشاهدات من حرب السنوات الثمان بين العراق وايران، و المختلف إلى حد كبير حول من الذي بدأها. أنقل اليوميات كما عشتها وعاشها أغلب ذكور العراق المكلفين بالخدمة الإلزامية ضباطاً وجنوداً ومراتب.

حرب الجيران – قادسيتنا ودفاعهم المقدس

انطوت عقود على حرب العراقيين والإيرانيين التي لم تنتهِ بنصر سياسي لأي من المتقاتلين، ومن دفع الثمن هم القتلى في الجانبين (وأعترض بشدة على التسمية المشوهة "الشهداء" لأنّ الشهيد هو المجاهد في سبيل الاسلام الذي يتلو الشهادتين وأغلب من قتلوا في تلك الحرب الملعونة في الجانبين هم مسلمون)، كما دفع الثمن أرامل القتلى في الجانبين وقد فقدن رجالهنّ وهنّ في عز شبابهن، والخاسر الثالث هم الأيتام من أبناء القتلى، الذين كبروا وحدهم بلا آباء، وتتدرج نسب الخسائر لتشمل المعاقين في كلا الجانبين وقد حرموا من الحياة الطبيعية، والمفلسين بسبب الحربين وقد فقدوا وسائل معيشتهم.

وحين نغادر خسائر الحرب على مستوى الأفراد إلى الخسائر على مستوى الدول، فسوف يصبح الحساب صعباً، فكلا المتحاربين يكذب وما برح يكذب بشأن خسائر تلك الحرب، لكن بالنسبة لي كعراقي، قاتلت في صف الجيش العراقي حتى يوم المعركة الأخير، وعشت ما بعدها بالتفصيل، أرى أن الخاسر الكبير هو العراق، خاصة بعد أن أطيح بنظام صدام حسين، واختلفت المعادلات الجيوسياسية.

في العراق سُميت سنوات الحرب الملعونة **"قادسية صدام"** تيمناً بقادسية سعد بن أبي وقاص الذي اسقط سلطة امبراطورية فارس على العراق والخليج وأدخلها في الاسلام بقوة السيف، وهو اسم يمجّد بطولات شخص واحد هو صدام حسين ويحاول أن يصنع منه بطلاً تاريخياً دون الالتفات إلى الجانب القانوني لتلك الحرب.

أما في إيران فقد سُميت تلك الحرب **"الدفاع المقدس"** وهو اسم يحمل دلالة سياسية محنكة، لأنّه يعلن الإيرانيين مدافعين عن بلدهم إزاء عدوان خارجي غاشم، وهذا ما خدمهم سياسياً في المفاوضات بعد انتهاء الحرب في 8.8.1988 .

تأسيساً على هذا التوصيف المتباين الذي انتج مواقف سياسية مفترقة إلى حد كبير، كرست إيران على مدى سنوات الحرب وصولاً إلى هذا اليوم، ثقافة وأدبيات الدفاع عن الوطن، وخلطت فيها السياسي بالعقائدي بالقومي، متجاوزة مشكلات كبرى تتعلق بموقف الفرس من الثقافة الاسلامية التي تروج لها دولة المعممين "الجمهورية الإسلامية"، وهو موقف يخلص دائماً إلى أن الحكومة الإسلامية تمحو الهوية الفارسية لإيران وتنحو الى المنهج العربي.

أما في العراق فقد كرّست سنوات الحرب الحزينة ثقافة الرجل الواحد الذي حوّل كل رجال العراق إلى آلات تحارب دفاعاً عن مجده وعن مجد عائلته وبذخهم. إنها صورة تخلص إلى

أنّ كل رجال العراق هم "جنود في خدمة بطل الأمة، فارس الأمة'" وكرس هذا التصور المفروض ظهور صدام حسين في يوم إعلان "النصر" ممتطياً حصاناً أبيض في ساحة الاحتفالات وهو يتبختر مزهواً بنصره المؤزر، الذي لم يبذل فيه هو أو أهله قطرة دم واحدة!

كانت رسالة "فارس الأمة" بحصانه الأبيض هي التي أوجزها نزار قباني بأبياته الموجعة في القصيدة التي لا تنسى **"السيرة الذاتية لسياف عربي"** :

أيها الناس:

أنا مجنون ليلى

فابعثوا زوجاتكم يحملنَ منى..

وابعثوا أزواجكم كى يشكرونى

شرف أن تأكلوا حنطة جسمى

شرف أن تقطفوا لوزى وتينى

شرف أن تشبهونى..

فأنا حادثة ما حدثت

منذ آلاف القرون..

كأني أرى صدام يردد مع نفسه هذه الأبيات وهو يتمختر بحصانه الأبيض في ساحة الاحتفالات التي انشأها خصيصاً لهذا اليوم. صدام في تلك اللحظة يرى نفسه الرجل الوحيد، وكل رجال العراق عبيدٌ له وكل نساء العراق جواري له أولاً ولبنيه وأخوته بعده.

هذا الاحتقار لدماء آلاف العراقيين ولآلام آلاف النسوة والأيتام والمعاقين أوصل العراقيين إلى انقسام كبير حول تلك الحرب، واليوم وبعد أكثر من 3 عقود على نهايتها، يمزّق العراقيين موقفُهم من تلك الحرب، فكثير منهم يؤمن أنها حرب صدام وقبيلته وعائلته التي أراد بها مجداً يخلده، ويرون بهذا أنفسهم في الجانب الخاسر في تلك الحرب، وقلة منهم يرون في تلك الحرب مجداً لبلدهم وتاريخهم.

أما في الجانب الإيراني، فنجح المعممون في أن يجلعوا من "حرب الدفاع المقدس" ملحمة تخدم أهدافهم السياسية، وتروّج لعقيدتهم القائمة على مظلومية الشيعة، وانتجوا بهذا التوجه مئات الأفلام والصور والمسلسلات والأدبيات التي تروّج للعقيدة بطريقة فذة تقنع المتلقي ولا ترمي به في مجاهل القرف كما كانت تفعل أدبيات صدام وحزبه عن حرب القادسية.

في الجانب العراقي، انتجت أفلامٌ بائسة رثة، وأشهرها فلم القادسية الذي حشدت له كوادر عربية كبرى وتصدى لإخراجه الفنان المصري الفذ صلاح أبو سيف ليصبح مجرد لوحة دعاية رخيصة للغزو العربي الإسلامي لا تقنع حتى العاملين فيه، علاوة على مسلسلات تلفزيونية غثة مزرية الحبكة فقيرة السيناريو متدنية على مستويات الأداء والإخراج، إضافة إلى سلاسل من الإصدارات ومنها "قصص في لهيب المعركة"، "يوميات قادسية صدام"، "حراس البوابة الشرقية"، و"حارس البوابة الشرقية" وكتبتها وانتجتها جميعاً أقلام مأجورة لوزارة الاعلام كانت تخدم "فارس الأمة" وتتجاهل أفراد تلك الأمة التي سحقتها مآسي الحرب.

اليوم ونحن في عام 2020، لا يملك العراقيون أي منتج فني وأدبي ولا أيّ توثيق تاريخي محايد يوثق تلك السنوات المريرة، فيما يملك الجانب الآخر خزيناً هائلاً من التوثيق. النتيجة النهائية لكل هذا الإسفاف هي أن العراقيين يخجلون اليوم من القادسية، ويحاولون التبرؤ منها، خاصة أولئك المقربون من السلطة علاوة على المتصدين منهم للعملية السياسية، فهم يفخرون بأنهم لم يقاتلوا في جيش صدام، بل يفخرون أنهم قاتلوا إلى جانب دولة الإسلام "ايران" ضد دولة الكفر "العراق"!

إنها مفارقة رهيبة، فالعراقيون يخجلون اليوم من تلك الحرب رغم أنّ من فرضها هو مواقف الحكومة الاسلامية الإيرانية، باستفزازاتها الكبرى لحكومة البعث وصدام.

الإيرانيون يفخرون بحرب "الدفاع المقدس" رغم أنها صناعة ولائية بامتياز، فيما يخجل العراقيون من "قادسية صدام" التي أذلتهم وحقرّت رجولتهم.

في الفصول التي سوف تقرأها في هذا الكتاب، ستجد مواقف لا تتعلق بفخر الجنرالات وهم النخبة التي تحيط بصدام حسين، بل تتقصى نبض من عاشوا تلك الأيام السوداء واكتووا وأهلهم واحبتهم بمآسيها التي ما برحت نتائجها تتناسل حتى اليوم.

***

أول ليلة وأول قربان

بما يشبهه المعجزة وصلت أرتال الفرقة الثامنة مشاة جبلي إلى مدينة بعقوبة، وكنا نجتاز مدينة البرتقال حين صدمني مشهد لن أنساه، فقد احتشدت مجموعة من النساء والفتيات على الطريق ملوّحات بأكاليل الزهور وهن يرشقن الجنود بالحلوى، سوى فتاة جميلة جداً، ما برحت تبكي وتذرف الدمع بحسرة وهي ترى الجموع الزاحفة. عيناها الدامعتان الخضراوان كانتا نبوءة!

في 20 أيلول/ سبتمبر 1980، وصلنا ليلاً إلى وادي دراوشكه الواقع جنوب خانقين. كنتُ ضابطا حدثاً برتبة ملازم مجند مخابرة. باتت تلك النقطة ما يعرف بمنطقة اجتماع القطعات، قبل الانتقال إلى خط الشروع للصولة على المعركة.

وأبلغنا من قبل القيادة العسكرية، بعدم تفريغ السيارات من حمولاتها، والاكتفاء ببسط أفرشتنا على الأرض (مد اليطاغ) بانتظار الأوامر. لكنّ المرتفعات شرق هذا الوادي، كانت مشتعلة بنيران المدفعية، وفهمت لاحقاً، أنّها المدفعية الإيرانية التي تقصف بشدة منذ أيام مناطق خانقين، زين القوس، سيف سعد، قره تو، ميدان والقصبات والقرى القريبة منها. وكان مقدّراً لنا أن نتوغل في هذه المناطق، لكن حتى قائد الفرقة ما كان يعلم أين وكيف؟

ما رأيته بعيني كان قصفا مدفعياً إيرانياً كثيفاً على مدن عراقية قبل يوم 22 أيلول/ سبتمبر 1980 الذي يسميه العراق يوم الرد الشامل، وتسميه إيران يوم العدوان على الجمهورية الإسلامية في إيران. والكلام هنا مفصلي حاسم، لأنّ العراق كان يقول إن إيران بدأت منذ يوم 4 أيلول بقصف المدن العراقية، وإنّ الهجوم العراقي الشامل الذي جرى يوم 22 أيلول هو الرد على تلك الاعتداءات المستمرة.

وما إن استقر بنا المقام على أرض وادي دراوشكه الصخرية الوعرة، حتى وصلتنا وجبة طعام ساخنة، كان مطبخ الوحدة قد استبق وصولنا وأعدها للمقاتلين. تناولنا الطعام، ونمنا لشدة التعب، فنحن قادمون من "راوندوز" برحلة متصلة حتى هذا المكان. بعد بضع ساعات، ونحو الثانية ليلاً، حدث انفجار هائل من جهة خانقين، وفهمنا أن مصفى الوند اصابته مباشرة قذيفة مدفع فانفجرت خزاناته، واندلع حريق كبير بقي مشتعلا، حتى طلوع الفجر، ولم أعرف بعده متى انطفأ.

ومع الحريق تعالى في طرف الوادي المترامي الفسيح الذي نحن فيه صراخ، وتراكض الجند ينظرون على ضوء مصابيح الشاحنات حقيقة ما جرى. وبعد دقائق عرف الجميع، أنّ شاحنة من نوع كاز قد تحركت لتعديل مكانها على الهضبة، بحديث تنحدر لتشتغل عند

الطلب منها أن تتحرك، لأن جهاز تشغيل السيارة" السلف" عاطل عن العمل، وأثناء حركتها، دهست رأس نائب ضابط، واعتقد أنّ اسمه كان جليل، كان نائماً تحت الشاحنة! ومات المنكوب لتوه، فكان أول خسائر الفرقة الثامنة عشية معركة السنوات الثمان.

بعد ساعات وفي ضحى يوم 21 أيلول وصلنا فطور الصباح، خبز العسكر الشهير وقطع جبن صفراء من انتاج مصلحة الألبان وأباريق شاي فافون عملاقة.

تتدفق الأوامر وتُلغى خلال أجزاء الساعة:

تردد الميكروفونات اليدوية: "طائرة معادية بارتفاع منخفض"! ويعتلي أعداد مدفعية ورشاشات مقاومة الطائرة أسلحتهم المحمولة في الشاحنات، ويبقون ينظرون في السماء بحثاً عن طائرة، وبعد نصف ساعة، يعلن زوال الخطر.

"تهيأ للحركة، ولف اليطغات"، فيسارع الجميع إلى جمع أفرشتهم، ورزمها في الشاحنات، ويلبثون منتظرين بلا نتيجة. وانقضى اليوم كاملاً بهذه الطريقة، فيما كانت المدفعية الإيرانية مستمرة بالقصف على المدن العراقية. وأكاد أجزم بأنها إيرانية، لأنّ القطعات العراقية المتجهة إلى القاطع الأوسط، لم تكن قد ترجلت من السيارات بعد، وبالتالي فإنّ مدفعيتها كانت غير مستعدة لإطلاق النار لأنها مكلبة بساحبات المدافع.

مع حلول غروب يوم 21 ايلول/ صدرت الأوامر أخيراً بامتطاء العجلات، وما لبثت الأرتال أن تقدمت باتجاه خانقين، واتجهنا جنوب غرب المدينة التي كانت تلتهمها حرائق مصفى الوند، وتدكّها المدفعية الإيرانية بشكل مستمر، حتى أن أعداد كبيرة من سكانها قد غادروها وينتظرون في سياراتهم جنوبها للتوجه إلى مكان آخر، أو ينتظرون ما سيسفر عنه تدخل الجيش العراقي الذي بدا وكأنه قد توجه إلى الجبهة بأكمله، حيث الأرتال تتحرك بلا انقطاع على مدى عشرات الكيلومترات.

بقينا نسير في حقول، وفي طريق مبلط، ثم أمرنا بإطفاء أنوار السيارات، وخرجنا عن الطريق المبلط متجهين في عمق الجبال نحو السلاسل الجبلية الكبيرة الواقعة على الحد بين العراق وإيران. نحو الساعة الثانية ليلاً، وصل لواؤنا إلى وادي "بردي علي"، وطُلب من الجميع أن يلبثوا في سياراتهم، بانتظار الأوامر، ومنعت السيارات من إضاءة الأنوار ومنع إيقاد النيران. نظرت في الخارطة التي بين يدي لأعرف موقعنا على ضوء تورج قلمي صغير شاع تداوله في تلك الأيام، ويُحفظ كالقلم في جيب ذراع البدلة العسكرية، فوجدت أنّ بردي علي حيث نقف تبعد نحو 5 كيلومترات جنوب شرق مخفر قره تو، وهو مخفر تابع لقضاء ميدان التابع لمحافظة السليمانية.

مع خيط الفجر الأول، أمرنا بالحركة، فدخلنا جحيماً لن نخرج منه حتى تمر 8 سنوات.

***

الدم الأول

أول معركة خضتها طيلة عمري حتى تلك اللحظة العاصفة جرت في مخفر موسى الكاظم العراقي على الحدود الإيرانية متقدماً عشرة كيلومترات عن منطقة قره تو.

تسير بي سيارة الواز على طريق يمتد على طول الحدود الشرقية الشمالية، وتنتشر عليه مخافر عدة، أبحث عن مخفر موسى الكاظم وهو النقطة التي شرع منها لواؤنا قبل ساعات الهجوم على القوات الإيرانية. ولأنّ التقدم تم بشكل مفاجئ، وفُرض علينا صمت لاسلكي مطبق، فكان عليّ أن أبحث بنفسي عن هذه النقطة، بين ارتال من السيارات والقوات الراجلة وبعض الدبابات، فيما تتساقط القذائف هنا وهناك بشكل متفرق.

جثث على الطريق

معي في السيارة سائق شديد السواد من أهل البصرة، ومخابر شديد البياض من أهل بغداد. وصلنا إلى مفرق نيسمي (النيسم وهو الطريق الترابي) في أعلاه مخفر شرطة يبعد بصرياً نحو كيلومتر واحد. دخلنا النيسم للوصول إلى المخفر، فانعطف الطريق بنا إلى مفرق نياسم غامض محجوب عما حوله، استقرت عنده على رابية مستترة سيارة كاز روسية، تكدست في حوض حمولتها جثث لجنود يرتدون بدلات مغاوير، ومن غير الواضح إن كانوا عراقيين أم ايرانيين لأنّ وجوههم منكفئة إلى الأرض. المنظر صادم ومرعب، قرب السيارة يقف سائق يدخن بعصبية وقد نزع خوذته، توقفنا عنده وقد خيل لي أن رائحة الموتى تعمّ المكان، وسألته ما هذا، ماذا جرى؟ لم يجبني بل تلعثم بعصبية وقال: نحن مغاوير قوات القعاع.

سألته - لماذا لا تُخليهم إلى وحدة الميدان الطبية؟

أنهم إيرانيون، وانتظر المزيد منهم، نحن قوات فوج مغاوير القعقاع، الفرقة الرابعة (مشاة جبلي مقرها في الموصل).

هل هذا المخفر فوق الرابية هو مخفر موسى الكاظم؟

لا أعرف.

هل فيه مقر لواء 23 ؟

لا أدري.

فقال السائق الذي معي: لواؤنا ليس هنا سيدي، علينا أن نبحث باتجاه الشمال. ونبهني إلى أن المخابر معنا مريض جداً.

وفعلا كان متعرقاً، ويكاد يغمى عليه، وأدركت أن القصف ومنظر القتلى قد أرعبه، وهو لعمري منظر مرعب. تحركنا بحثاً عن مقر لوائنا، فبدأ المخابر يتهوع، فأسرعنا إلى التوقف، وانزلناه ليتقيأ، نزل يتقيأ ومعه السائق يساعده بزمزمية ماء.

وصفرت صارخة بشدة قذيفة إيرانية ثم سقطت في مكان ما حولنا، خلف التلال. تمددنا على الأرض فيما تصاعد غبار من موقع سقوطها.

صرخت بهما، لنتحرك من هنا، نحن مكشوفون، بسرعة !

جرعة أمل مع عصير من عريف "عاد"

سحب السائق المخابر المتداعي من ذراعه، وأركبه السيارة، ومضينا في طريقنا نبحث عن مقر لوائنا، حتى وصلنا مفرق ينزل إلى نيسم، كانت تقف عنده شاحنة ايفا ألمانية. صرخ السائق، هذا حانوتنا سيدي، لنسألهم.

ونزلت معه لنحاور العريف "عاد" مأمور حانوت مقر اللواء، واجهنا وهو مبتسم كعادته وقال: أهلا بكم وسلامتكم. مقر اللواء في مخفر موسى الكاظم، سيروا مع هذا النيسم ، دائما خذوا يساراً، وستصلوه بعد نحو 2 كم. حين تصلون القنطرة المهدومة اعبروها وسيروا بخط مستقيم، لا تنحرفوا إلى النيسم الأيمن. كنت عندهم قبل قليل ولم يسمحوا لي بالتوقف لضيق المكان. عليكم أن تتركوا السيارة أسفل المخفر وتصعدوا على أرجلكم، تقريبا 300 متر. ولكن لحظة واحدة!

صعد الى ظهر الإيفا، وعاد لكل منا بسندويتشات دجاج، و علب عصير راوخ مثلجة، أودعها عند السائق وهو يقول: كلوا هنيئاً، نتحاسب فيما بعد، امضوا في طريقكم على بركة الله وبالسلامة!

كانت جرعة معنويات هائلة. تماسكُ العريف عاد كان باهراً فعلاً وسط هذا الجحيم، أخذت المتاع ووضعته على أرضية السيارة بجانبي. ما إن سرنا في النيسم، حتى سقطت قذيفة أمامنا على بعد 200 متر تقريبا، فتوقف السائق مرعوباً يسألني :هل نواصل الطريق؟

كان علي أن أقرر بسرعة هل نستمر في الطريق الذي تسقط عليه القذائف، أم نتراجع لنبحث عن طريق آخر. وحسمت الأمر وقلت له: اسرع بعبور الطريق، لا يمكن التراجع، يجب أن نصل مقر اللواء!

القنطرة المهدومة أول الطريق!

سرنا بسرعة، وبين حين وآخر تساقط حولنا قذيفة، وصوت الرمي لا ينقطع. حتى وصلنا القنطرة المهدومة، فأخذنا جانبها الأيسر، وعبرنا، فاشتد تساقط القذائف. من حجم

الانفجارات كان واضحاً أنها قنابر هاون متوسط العيار. أسرعنا فيما كان المخابر يقول متاوها "راح أموت، لا استطيع، سيدي اتركني هنا لأموت".

شجعته على المضي معنا قائلا: ابق معنا فنعيش معاً أو نموت معاً، هيا، سنعبر هذه القطعة الخطرة خلال دقائق، لنصل مقر اللواء.

وسرنا سريعا، فيما كان السائق يناور حول الطريق النيسمي الذي مزقته القذائف، صادفتنا شاحنة زيل خرجت عن الطريق، وتبدو عاطلة عن العمل، ثم صادفتنا سيارة واز مهجورة على كتف الطريق، ووصلنا فجأة إلى صعدة مرتفعة متعالية عما حولها، ومن خلفها يتصاعد دخان أسود كثيف مصحوب بانفجارات، تردد السائق، فقلت له: سر بسرعة، لابد أن نعبر!

حين ارتقينا قمة الصعدة، سقطت حولنا 3 أو 4 قذائف، ما يعني أن الراصد المعادي اتخذ من هذه الصعدة هدفاً ثابتا يقصفه كلما ظهر عليه شيء. ونزلنا منحدرين عنها، لتصادفنا شاحنة إيرانية تحترق، هل ظللنا الطريق؟

فيما كان عتاد يتفجر في مكان ما قريباً منها ولكن ليس في الشاحنة. تردد السائق مرة أخرى، فقلت له: سر قدماً!

وسار السائق مسرعا وهو يرى أننا نسير إلى حتوفنا بلا شك !! ولكن لم يكن لنا أن نتراجع. إذا كان العريف عاد بشاحنة حانوت قد وصل مقر اللواء، فلا بد أن نصله نحن بسيارتنا الصغيرة مهما كان الثمن.

مخابرنا فقد الوعي، هل يموت؟

وفيما كنا نسير أعلن السائق أن المخابر قد فقد الوعي، وهو ما أربكني فعلاً، إذ لابد من اسعافه، ولكن كيف!؟ السير قدماً هو الحل الوحيد، فقلت له: سر بسرعة، لم يبق شيء، سنصل قريبا.

وفعلا وصلنا إلى بداية نيسم على يمينه انتصبت لافتة كتب عليها "مخفر موسى الكاظم". سرنا بضعة أمتار، فوصلنا نقطة الترجل، حيث تكدست السيارات، يمين ويسار النيسم بلا موضع. أوقف السائق السيارة بشكل عبثي، وترجل منها وهو يسألني ماذا نفعل بشأن المخابر؟

قلت له: أنا صاعد لمقر اللواء، تعال معي وعد له بعناصر من مفرزة الطبابة، هذا هو الحل الوحيد.

أخذ السائق بندقيته، وسرنا سراعاً نتسلق الرابية، كان صوت القذائف والرمي الكثيف يشتد خلفها في الجانب الإيراني، ما يعني اشتداد المعركة.

وصلنا القمة، ودخلنا مخفر موسى الكاظم المطوّق بجدار صخري، وفي وسطه مرصد محكم، ترتفع منه عدة هوائيات، وإلى جانبه تقف دبابة. سرنا بضع خطوات، فصرخت قذيفة معادية بشدة وانفجرت قربنا داخل ساتر المخفر الدائري، تمددنا على الأرض، فتطاير الحصى والشظايا حولنا. بعد أن هدأ الضجيج ، نهضنا فسقطت صارخة قذيفة أخرى، لكنها خارج ساتر المخفر. شعرت بأن أمعائي باتت في فمي، ونظرت إلى السائق فكان شاحب الوجه كأنه جثة، سألته: هل أصبت؟ نظر إلي بيأس وهو يقول: لا أدري. أظن أنني بخير حتى الآن؟

تحركت باتجاه المرصد حيث الهوائيات، ثم اكتشفت أسفله ملجأ تقف فيه ناقلة اشخاص مدرعة ترتفع منها عدة هوائيات وعلى بابه تكدس جنود وعناصر حماية مسلحين. أردت ان أدخل المكان، فاعترضني أحد الحمايات، وهو يقول: ممنوع سيدي!

قلت له، بعد أن عرفت نفسي: أنا من منتسبي اللواء، وعلي أن التقي بقيادتي.

قال بوجه نصف مرتبك وخائف: ممنوع سيدي، السيد القائد في الداخل!

جريحٌ دون أن أدري؟

تحركت بضع خطوات إلى ملجأ مجاور مفتوح من الجوانب، ورأيت فيه وجهاً عرفته، إنه ضابط حركات لوائنا، الرائد الركن ح.، دخلت عنده فقال لي وهو مرتبك وما زلت أخطو منحنيا عند المدخل: ملازم ملهم، أين أنتم، اين استقرت سرية المقر؟ نحتاج بدالة ميدان فوراً هنا، على أن تؤمن خطوطاً مع الفوج الأول المتقدم ومع مرصد اللواء المتقدمين!

وما إن دلفت بكامل قامتي إلى المكان وأديت له التحية، محاولاً الكلام، حتى فتح عينيه وهو يقول: أنتبه، أنت مصاب! وأشار إلى صدري، نظرت، فإذا الدم قد لوث بدلتي مختلطا بالغبار والوحل!

دسست يدي داخل قميص البدلة أتلمس صدري فوجدت انتفاخا فوق الثدي الأيمن ينزف دما، لكنه ليس نزف غزير، ولم أشعر بأي ألم.

قال وهو ينظر في وجهي مرتبكا: سلامات، إن شاء الله بالريش؟

اجبته: لا أدري، لا أشعر بألم، لكن الجرح ينزف.

قال هل تستطيع الحركة، أم أدعو المفرزة هنا؟

نظرت حولي فوجدت المكان ذي السقف المنخفض مكتظاً بضباط من مختلف الرتب، علاوة على محطات مخابرة و جنود مخابرين. حتى لو أردت أن اتمدد، لا مكان لي.

قال رائد ركن ح. ليحسم حيرتي: الأفضل أن تخرج بنفسك، وتذهب إلى مفرزة الطبابة، وسأبلغ السيد آمر اللواء أنك مصاب، عليهم أن يخلوك إذا تطلب الجرح إخلاء.

خرجت أبحث عن مفرزة الطبابة، فسقطت قذيفة في مكان ما خارج الساتر، واستترت خلف الدبابة الواقفة، فرأيت أمامي ن. ض غازي، مسؤول قلم حركات اللواء، وسألته عن مفرزة الطبابة، فأجاب بلهجته المشوبة بلكنة تركمانية "لست متأكداً، لكن ربما يكونون في بهو المخفر، هناك في الجانب الآخر" مشيرا إلى النهاية الغربية للمخفر المطلة على ما يشبه وادٍ تزاحمت فيه الاشجار.

دبابتنا الروسية التي أطاحت بي!

نهضت متجهاً إلى حيث أشار، وما إن سرت خطوة أو خطوتين، حتى دوى انفجار هائل، رفعني عن الأرض وألقى بي على بعد أمتار خلف ظهر الدبابة! لم أدرك ما حدث، وفي أذني دوي رهيب، والغبار يتصاعد ورائحة البارود تملأ المكان، فيما كانت الدبابة تهتز متراقصة لشدة الضربة. ظننت لوهلة أنّ قذيفة قد أصابت الدبابة، ثم تنبهت إلى أن الدبابة ترجع إلى الخلف باتجاهي، فابتعدت راكضاً متجاهلاً كل شيء، فسائق الدبابة لا يراني وقد يسحقني.

وفعلا تراجعت الدبابة إلى الخلف، ثم عدّلت مسارها إلى اليمين، واتجهت الى مرتفع أرض ممهد (يسمى دكة الرمي) وصعدت إليه، وعدّلت وضعها، فأدركت أنها تستعد لإطلاق قذيفة باتجاه هدف، ثم فهمت خلال ثوانٍ حقيقة ما جرى، اذ أن الدبابة نفذت قبل هنيهة رمية مباشرة، فقذفني العصف بعيدا عنها.

وانتهى المشهد، بأن داوتني مفرزة الطبابة، وقد قال المضمد الذي فيها أنه لا يستطيع أن يلمس الجرح، وعلينا أن نذهب إلى وحدة الميدان الخاصة بالفرقة. وجدت سائقي جالساً عندهم وهو يحتسي ماء من زمزميته ويلتقط أنفاسه من الرعب الذي لا ينتهي، فقلت له، هيا نذهب إلى السيارة، أين المخابر؟

إنه في السيارة سيدي، ما زال فاقداً لوعيه!

وانتهى يومي الأول 22.9.1980 بجرح سطحي في الصدر، وقضينا عصر ذلك اليوم مستريحين في وحدة الميدان الطبية، بعد أن استخرجوا الشظية، ووضعوا ضماداً على الجرح. رفضتُ الإخلاء وليتني لم أفعل فقد ضاع حقي لأنّ رائد ركن ح. لم يدرجني في الموقف المسائي والصباحي، لأنه ببساطة لم يكن يعرف أن كتابة الموقف كانت وظيفته في ذلك الظرف!؟

بين هنيهة وأخرى كان على الجميع في وحدة الميدان الطبية 18 ضمن مقر الفرقة الثامنة أن يستتروا تحسباً من هجمات جوية يُعلن عنها باستمرار "طيران معادي منخفض" و"تشكيل جوي معادي على ارتفاع عال" وما إلى ذلك.

وعدنا ليلاً، بدون مخابرنا الذي كان مصابا ب"صدمة المعركة" وبقي على أثرها في وحدة الميدان الطبية. عدنا إلى حيث تنتظرنا سرية مقر اللواء، محمولة بقلق على قافلة عربات في سفوح بردي علي، على بعد بضع كيلومترات خلف جحيم موسى الكاظم.

***

اجهزة وبكرات مد السلك د 10 الروسي الميداني

عذراء قصر شيرين

لم تُسجل في سنوات الحرب العراقية الإيرانية حالات اغتصاب نساء نفذها مقاتلون من الجانبين، وربما كان لهذا علاقة بالإيمان الديني لدى المحاربين، لكن مدينة قصر شيرين شهدت حالة كانت نتائجها مروعة.

سرتُ في شوارع قصر شيرين بعد ساعات من انتهاء المعركة، كانت قوارير شاي ربات البيوت ما تزال تنفث بخارها استعداداً لفطور الصباح، سكانها مذهولون من هول الصدمة، البعض لم يشأ مغادرة المدينة، رغم احتدام القتال حولها لمدة أسبوعين، فداهمه سقوط المدينة التي كانت مطوّقة دون قتال.

دخلتُ مع القطعات العراقية إلى المدينة الواقعة على الحدود مقابل خانقين، صبيحة السادس من أكتوبر / تشرين الأول 1980. الصحافة والإعلام دخلت المدينة بعد يومين، وبعضها تأخر اسبوعاً كاملاً.

لم أر جثثاً في الشوارع، ولم أر جرحىً، وكل البيوت كانت كاملة سالمة، ولم أر عمليات إعدام أو تهجير أو ترويع أو إجلاء سكان أو فضائع من أي نوع. بعض المدنيين رجالاً ونساء تقدم بهم السن كانوا يسيرون كالأشباح بين المدرعات والشاحنات والجند الغرباء. ترجلت من سيارتي الواز الروسية، ورافقني السائق وجندي المخابرة وهما يحملان بنادقهما الكلاشنكوف. تجولنا في شارع يسير على امتداد نهر الوند (وهو النهر الذي يصل إلى خانقين ويتجه جنوباً) . أردت أن أسجل في ذاكرتي وقائع نصر سريع، وكان يخال لي أنّه مقدمة لانهيار الجمهورية الإسلامية في إيران كما كان تُشيع تحليلات الخبراء الغربين والعرب.

بعض السيارات تُركت سالمة في الشوارع لنفاذ وقودها، ورأيتُ جندياً، يستولي على سيارة رينو 4 برتقالية اللون. فيما بعد تحولت السيارة لخدمات حانوت وحدة الميدان الطبية التي ينتسب إليها الجندي، وبات منظر تنقلها بين قصر شيرين وخانقين يوميا لنقل البضائع مألوفاً للجميع.

وجدتُ دكاناً قد فتح بابه، فاقتربتُ منه، وطلبت زجاجة كولا، ودفعت ثمنها دراهم عراقية، ظل البائع الكهل يقلّبها بيده، ويقول أشياء لم أفهمها، إلا أنّه وضع النقود في النهاية في صندوق الدخل، ومضى يجيب طلبات المقاتلين الذين تكاثروا حوله.

لفت نظري بيت قد أقفل بابه، ولابد أن أهله غادروه، ورُبطت حول الباب ضفيرة شعر نسائية يميل لونها للحمرة، وتحتها قرآن مسند على قطعتي آجر. المنظر يثير الحزن والأسى، بل ينبئ بنتائج ستكون كارثية.

على حافة نهر الوند، جلست امرأة طاعنة في السن اتشحت بلباس كردي أزرق وفوقه كنزة، وإلى جانبها جلس شيخ بسروال أسود وكنزة ملونة، يتطلعان في الماء، ويمضغان خبز العسكر الصلب أسمر اللون الخاص بالجيش العراقي. وأمست لهما قصة قد أرويها في مناسبة أخرى.

وغادرتُ المدينة على عجل ملتحقاً بأرتال القطعات الزاحفة على مدينة كيلان غرب التي تقع شرق القضاء المنكوب.

بعد أيام شاعت قصة بين القطعات، وأؤكد هنا أني لستُ شاهداً عليها بل رواها لي أكثر من مصدر، وهي قصة تواترت بشدة في تلك الأيام العصيبة.

نائب ضابط من أحد منتسبي الفرقة الثامنة ومأمور حانوت وحدته، اعتاد أن يعطي بعضاً من بضاعة الحانوت إلى بيوت في قصر شيرين. في إحدى الليالي، عاد متخفيا إلى أحد البيوت، حيث كانت تعيش امرأة كهلة، ومعها ابنتها البالغة من العمر 15 عاماً. قرع باب البيت، وقدم لأهله هدايا من طعام وصابون وما شاكل، ثم طلب شاياً من الأم، وحين ذهبت لإعداده ، هاجم ابنتها، واغتصبها بقوة السلاح. وحين عادت الأم، عاد واغتصب البنت أمام أمها بقوة السلاح.

في اليوم التالي، مر قائد الفرقة الثامنة بسيارته المرسيدس التي تحمل علم العراق وعلم الفرقة، وتوقف أمام بيت تبكي على بابه امرأة وضعت على رأسها ووجها وحلاً وطين وهي تندب بصوت عال. ترجل الجنرال من سيارته، واقترب منها يسألها عما جرى، فروت له ما فعله بابنتها العسكري العراقي، وتولى مترجم يرافقه ترجمة كل ما قالت. ثم سألها عن اسم العسكري، فقالت له (...)، ولا تعرف عنه غير أنه يدير دكاناً في الفرقة الثامنة!

عاد القائد، وكلّف فصيل أمن الفرقة بجلب كل مأموري حوانيت الفرقة للتحقيق الذي تابعه شخصياً. وسرعان ما عُرف الجاني وجرى توقيفه. فرفع الجنرال الهاتف، وكلّم صدام حسين شخصياً وروى له القصة، طالباً منه البت فيما ارتكبه هذا العسكري بحق المراهقة الإيرانية. بعد دقيقة صمت أمر صدام حسين بإعدام المعتدي، أمام باب بيت الضحية.

عصر ذلك اليوم، قامت حضيرة من انضباط الفرقة بإعدام نائب الضابط المذكور بعد ربطه على شجرة تواجه بيت الضحية، وبحضورها وحضور أمها مع جمع من منتسبي الفرقة بعد تلاوة التفاصيل عليهم.

لا أدّعي أنّ القصة صحيحة، وقد تكون كذلك فهي متواترة، ولكن يمكن أن تكون الحقيقة بالاحتمالات التالية:

*كل القصة مصنوعة لتأكيد عدالة صدام حسين وسيفه البتّار بحق المعتدين.

*نائب الضابط المذكور، قد طوّر علاقة من نوع ما مع البنت أو مع أسرتها، وقد وشت به أجهزة الأمن وأجهزة الحزب، فأعدموه ليكون عبرة للآخرين.

*قصة صُنعت بأمر أجهزة اعلام وأمن صدام حسين، بقصد ردع من تسول له نفسه الاعتداء على المدنيين.

*قد تكون القصة صحيحة وحقيقية.

ملاحظة: هذا فيديو وزعته وكالة الأنباء الفرنسية عن دخول القوات العراقية إلى قصر شيرين يوم 8 تشرين الثاني/ اكتوبر 1980. إن لم يشتغل، خذه كوبي، وضعه على النت أو على يوتيوب للمشاهدة:

https://www.youtube.com/watch?v=TU4zOEEeQ-4

***

قادسية مقدم ركن خلف عليان!

في تلك اللحظة انتهت حرب القادسية بالنسبة للمقدم الركن خلف عليان آمر لواء المشاة 23. لم يكن قد مرّ على اندلاع معارك قادسية صدام سوى ثلاثة أسابيع.

في أوج المعركة، لم يجد مقدم ركن خلف في حوض سربل زهاب الخصيب الجميل، سوى قنطرة حجرية تحت الشارع المؤدي إلى الطريق الدولي المسافر إلى مفترق الطرق بين كيلان غرب وكرمانشاه تحميه من جحيم القذائف والصواريخ التي تستهدف مقره.

كانت خرائط هيئة الأركان العامة، قد رسمت للقوة المهاجمة من محوري سربل زهاب وكيلان غرب هدفاً نهائياً تمثل في احتلال مضيق بايطاق، وعزل كل ما خلفه غرباً عن سائر إيران.

لكن مضيق بايطاق (الذي أطلق عليه في عام 1987 أسم مضيق مرصاد) كان يبعد 70 كيلومتراً عن تنك حمام في عنق حوض سربيل زهاب، وعجزت القطعات العراقية بعز زخمها عن الوصول الى تنك حمام، فكيف الحال مع بايطاق؟

كان على المقدم ركن خلف بمقره الجوال تحت القنطرة الحجرية أن يقود جحفل معركة مشاة، وبدعم كتائب مدفعية محددة بصرفيات قنابل معينة، لكي يتسلق سفوح جبل زرده الغربية، ويعتلي الأكتاف الشاهقة للجبل والسلسلة المتصلة به بما يصل إلى هضبة كرند، ثم يهبط بهذه القوة ليحتل مضيق بايطاق.

وأرسلت له تعزيزات بألف مقاتل مسلح بالبنادق من الأفواج الخفيفة يقودهم سردار الجاف، وكان عليّ أن أذهب بالأخير وسط ظلام حالك عبر نياسم جبلية تتساقط القذائف عليها بلا توقف إلى مقر اللواء الجوال، الذي يستقر فيه آمر اللواء، وهذه فحوى الحديث الذي دار بين القائدين:

مقدم ركن خلف: أهلا بك كاكه (سردار)، ما هي القوة التي معك؟

أهلا كاكه (لف)، معي ألف مقاتل مسلحين بالبنادق ومعهم عتاد الخط الأول فحسب (120 إطلاقة لكل مقاتل). لدينا 10 هاونات ستين ملم دون عتاد، و10 رشاشات بي كي سي، ومع كل رشاشة شريط عتاد 380 طلقة.

تبسّم مقدم ركن خلف بمرارة، وضوء الفوانيس في القنطرة يسقط على وجهه الشاحب الذي ذهب جهد وعرق المعركة بوسامته، وقال : كاكه، عندي لكم واجب واحد، احتلال السفوح الغربية لجبل زرده، وتأمينها لنا لنتقدم باتجاه تنك حمام.

بُهت المقاتل العتيق سردار الجاف (أو قائد كان ينوب عنه ولست متأكداً من اسمه)، ونظر برعب إلى محدثه وقال: هذا غير ممكن كاكه، الجبل كله مدافع ودبابات وقوات كثيفة، كيف نقاتلهم بالبنادق؟! يجب أن تتخطى قواتكم الجبل باحتلال حوض سربل زهاب ثم العبور إلى تنك حمام، فيكون الجبل خلفكم وتسقطه الطائرات والمدفعية والدبابات!

شكرا لك كاكه، هذا لا يساعدنا، لا أحتاج قواتكم هنا إذن.

وعدت بالقائد الكردي إلى مقر اللواء، ليرحل بمقاتليه عائداً من حيث أتى.

في الساعة 12 ليلا، شرعت القوات العراقية بهجوم جديد يتوخى الوصول إلى مضيق (تنك) حمام الذي يمسك عنق حوض سربل زهاب. كان على القطعات تخطّي سلسلة التلال والقمم الصغيرة الممهدة لجبل زرده، في الطنف المعروف باسم المهد، لتصعد بعدها عبر كهوف ومسالك جبلية قَطعا حاداً يمثل سفوح جبل زرده الشاهق. وخلال اسبوعين من المعارك، فشلت القطعات في تخطي عارضة المهد، وهي طنف الجبل فحدث ولا حرج عن سفوح الجبل الشامخ المكللة قممه بجليدٍ باقٍ من شتاء العام الماضي.

ما إن تقدمت القطعات، حتى انفتحت عليها فوهات الجحيم، فقد حشد الإيرانيون فوهات نارية كثيرة فاقت إلى حد كبير القدرة النارية للقوة المهاجمة. وتساقط جنود الفوج الثاني والثالث ضحية انفتاحهم فوق هضبة المهد، كما تداعت سرية مغاوير اللواء التي كانت مكلفة بالتوغل من جنوب المضيق عبر فتحة الشارع عند خط شروعها، فقد دخلت حقل ألغام وتساقط عدد كبير من منتسبيها وجرح اثنان من ضباطها.

وبات على القطعات في ظهرة المهد الاحتماء بأجساد القتلى على الهضبة الصخرية المكشوفة الخالية من أي عارضة قد تستتر خلفها القطعات. لم يكن إخلاء الضحايا ممكناً بسبب كثافة النار، سقطت القوات في كماشة.

نداءات الاستغاثة ظلت تتصاعد عبر أجهزة الاتصال اللاسلكي بعد أن توقفت الاتصالات السلكية تماما، استترت مفارزنا السلكية في أخاديد حوض سربل زهاب بسبب كثافة النار. واضطرت قيادة الفرقة إلى زج فوج قوات خاصة، لدعم القطعات المنهارة، وما لبث الفوج أن انهار بعد أن قتل آمره الرائد الركن أحمد العبيدي، إثر تطويق الإيرانيون لمقره، فخرج يقاتلهم بالقاذفة، وقتل وبقيت جثته على الهضبة الصخرية أياماً طويلة حتى جرى اخلاؤها بعملية خاصة.

الساعة الرابعة صباحاً، كسر الإيرانيون الجناح الجنوبي للقطعات، وتخطوا سرية المغاوير مقتربين من مواضع الفوج الأول من اللواء الخامس الذي كان ممسكاً بجبل سيسر، وتوجهوا لاحتلال السفح الشرقي للجبل، وهذا كان سيعني تهديد القطعات العراقية وقد يقود إلى إجبارها على الانسحاب إلى ما وراء خط الشروع، وعلى شبكة القيادة اللاسلكية اتش

اف التي تصل إلى الإيرانيين أيضا، تفجّر غضب المقدم الركن خلف عليان، وبدأ بشتم قائد الفرقة، مستهلاً عبارته بالجملة المفصلية القاتلة:

لأني لست تكريتياً، وضعتموني في هذا الموقف القاتل، اللواء قد دُمر، وفوج القوات الخاصة الرابع قد أبيد وقتل آمره، والقوة غير كافية، ومع ذلك تصرون على أن واجبي احتلال سفوح جبل زرده. هذا الواجب يحتاج إلى قوة بمستوى فرقة! لماذا لا تأتي بفلان (أمر اللواء الثالث) وفلان (آمر اللواء 22) لدعمنا؟ سأقول لك لماذا، لأنهم تكارتة ولا تريد أن تزجهم في هذا الجحيم. نحن ذاهبون للموت، وخطيتنا برقبتك، واللعنة على أبيك وعلى كل من هو بلا غيرة مثلك!

سمعت هذا الكلام كل محطات القيادة الداخلة على شبكة اتش اف، وسمعته محطات التنصت العراقية والإيرانية، وكان يعني عملياً النهاية للمقدم الركن خضر العلوان، لاسيما أنّ قائد الفرقة كان العميد الركن عبد الرحيم طه الأحمد، وهو أبن عمة صدام حسين.

الساعة العاشرة صباحا اليوم التالي، دخلت مقر اللواء سيارتان تويوتا لاند كروزر من مديرية الاستخبارات العسكرية العامة، في إحداهما ضابط برتبة رائد، وأخذتا المقدم الركن خلف عليان إلى مصير مظلم. وانتهت القصة بالحكم عليه بالسجن لمدة 7 سنوات بتهمة إهانة المافوق وعدم تنفيذ الأوامر. والفضل في تخفيف الحكم، لوالد خلف عليان، الذي كان قد استضاف صدام حسين لبضعة أيام أثناء هروبه بعد محاولته اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم عام 1959، (حسب ما كان يتردد في أوساط العسكر). خرج خلف عليان من السجن عام 1982 بعفو رئاسي بعد أن قابل صدام حسين فكرّمه بسيارة تويوتا سوبر صالون، وأحيل إلى التقاعد وانتهت بالنسبة له بسلام قادسية صدام.

***

أبو علي بوجه الدبابات

الدبابات بالنسبة لنا كارثة، سواء جاءت من طرف العدو المهاجم، أم كانت دباباتنا، ففي الحالين هي تسحق خطوط مواصلاتنا السلكية. وهذه كارثة لا يفهمها سوى أبطال المخابرة عبر الحروب.

مضى أسبوع، لم أنم فيه سوى بضع ساعات، بدلتي التي أخذتها من وحدة الميدان الطبية بعد جرحي، التصقت ببدني مثل قطعة جنفاص متصلبة بسبب العرق والوسخ.

وصل بي الإعياء أشده، ثم بُلغنا بأنّ كتيبة دبابات المثنى، ستقوم بهجوم لدعم أفواجنا التي تهاجم عارضة المهد، وهكذا فإنّ علي أن أنشر مفارز تصليح الخطوط السلكية، على طول محاور الهجوم، وهي تبدا عادة بنفس المسالك والطرق النيسمية التي نستخدمها لأنّ القاطع جبلي، ثم تنتشر "الحدايد" وهو الاسم الرمزي للدبابات، في حوض سربل زهاب الخصيب الدامي المشتعل، وهذه طامة أخرى، حيث تنتشر شبكتنا السلكية الواصلة إلى مواقع الأفواج، وأكثرها خطورة موضع الفوج الثاني فوق عارضة المهد الذي تسقط عليه القذائف والرصاص بلا انقطاع، ولا يخلي جرحاه وقتلاه إلا ليلاً بسبب شدة الرمي.

كيف سأفعل ذلك؟ جلست على حافة حفرتي "الخندق الشقي"، وفيها كليم (مشمع تفرش به أرضيات الخنادق لحجب رطوبة الأرض عن فراش الجندي)، وفيه حقيبتي السوداء المعبأة بعلب السكائر، والجوارب والألبسة الداخلية، ومنشفتان وبدلة عسكرية ثانية، علاوة على زمزمية ماء، وحقيبة ظهر عسكرية موروثة من تقاليد الجيش البريطاني لا يستعملها أحد قط، و ملعقة وشوكة، وحربة. هذا كل أثاثي في المعركة. واعتدت أن أغفو في حفرتي بضع دقائق بين الكوارث، وبقيت جالساً على الحافة وأنا أدخن محاولا استيعاب الفاجعة المقبلة.

لابد أن أخرج لأشرف على مفارز الخطوط وهي ترفع الأسلاك أمام سُرَف (سلاسل) الدبابات وخاصة في المفارق حيث يشتعل القصف، وإن لم أرافقهم، يتلكأ الجنود. وجود الضابط مع القطعة التي يقودها هو معنوي بنسبة 80 بالمائة، وحقيقي بنسبة 20 بالمائة. الجنود وضباط الصف يتقنون عملهم خيراً من أي ضابط، لكن وجوده المعنوي يشجعهم لتحمل فكرة أننا قد نموت معاً!

وسط هذه التأملات اليائسة جاءني معاوني نائب ضابط "و" وندعوه جميعاً أبو علي احتراماً له ولسنه، فخدمته في الجيش بقدر عمري، وابنه علي تلميذ في الكلية العسكرية ويؤمل أن يتخرج قبل أقل من عام. أدى التحية بوجهه الطيب الممتلئ القريب إلى النفس وقال: ماذا

ستفعل يا سيدي بشان انفتاح كتيبة دبابات المثنى، "عساها لا أجت ولا ردت، دبابات الكشرة علينا وعلى أمة محمد"؟!

أضحكني دعاؤه، فقلت له: لا أعرف يا أبو علي، أنا وصلت الى خط النهاية، لا أستطيع أن أحرك ساقي، ولو تركتني لحظة واحدة سأنام، منذ أسبوع أنا بلا نوم.

فقال مدافعاً عن موقفه: كلنا بلا نوم يا سيدي، لكن أنت أكثرنا تعباً، دعني أذهب أنا مع الجنود بدلاً عنك، لرفع الشبكة!

وهل تستطيع وأنت بهذا الوزن والعمر، وماذا عن ركبتك التي لا تقوى على حملك لمسافات طويلة؟

ابتسم وهو متألم فعلاً لركبته التي انسحقت بمرور الأيام وبالوزن الثقيل، ثم قال: سأذهب معهم بالدراجة، وهذا يتيح لي أن اتجول حولهم، وأبقى راكباً.

هل تجيد استخدام الدراجة النارية أبو علي؟

ضحك وقال: جا شلون! عشر سنوات أنا معتمد، وأنقل بريد الوحدات بالدراجة.

ولكن تلك دراجة إنكليزية قديمة، وهذه دراجة أم زد ألمانية، هل تعرف قيادتها؟

لا فرق يا سيدي، صدقني لا فرق، اذهب أنت إلى النوم في مكان هادئ واسترح، ونحن سنقوم بالواجب، ولا تقلق، سيكون كل شيء على ما يرام.

ضحكت بيأس وسألته: أين المكان الهادئ مثلا، الركن الهادئ؟

ضحك أبو علي ملأ شدقيه وقال بعين تطاير مكرها: من أين لي بالركن الهادئ الآن في هذا الجحيم؟ (الركن الهادئ اسم حانة شهيرة في شارع سينما الخيام ببغداد، وكان أبو علي من عشاق الخمرة وشاربيها). على كل حال، اختفِ من هنا، لا تدع أحداً يراك، وسيظنونك قد خرجت إلى الواجب، أبلغ مقدم اللواء أنك ستقوم بالواجب، واذهب لتنام في مكان ما، وأنا سأجمع المفارز، وأوزعها على الواجبات، وسآخذ سيارة الأسلاك وجهاز اتصال معي.

دار هذا الحوار فيما كانت 3 كتائب مدفعية عراقية تتناوب القصف على مواقع العدو لمنعه من دفع تعزيزات، في المقابل تتساقط قنابل مدفعية العدو بعيدة المدى على أطراف مقرنا بسبب البث اللاسلكي لكتائب المدفعية ومراصدها. وتخيلت نفسي ذاهباً إلى النوم في هذا الحفل المدفعي الصاخب.

ذهبت إلى مقدم اللواء وأبلغته بخطتنا، وأخفيت عنه أني ذاهب للنوم وسأرسل معاوني بدلاً عني. ثم اصطحبت سيارتي وسائقي البصري، وذهبت إلى واحة تبعد خمسة كيلومترات في العمق خلف مقر اللواء المستقر في سفح جبل "سيسر" الشمالي، كانت القذائف تصلها

وتعبرها في فترات متباعدة، نظرا لوقوعها في طية أرضية مخفية بين التلال، وهذا يجعلها واحة آمنة بحق.

ترجلنا عند الواحة، وانزلت من السيارة فراش الجندي المخابر الذي ذهب في إجازة طبية بسبب اصابته ب"صدمة المعركة"! مهدت الفراش عند الواحة، واخبرت سائقي أن يدبر حاله في نومة هانئة لبضع ساعات. فتمدد على مقعد السيارة الخلفي ووضع صدرية عتاد بندقية وساداً تحت رأسه، ونام تاركاً باب السيارة مفتوحاً.

ما إن وضعت رأسي على الوسادة حتى ذهبت في غفوة استمرت لفترة طويلة، وحين صحوت فجأة كانت الشمس قد تدنّت إلى المغيب، ونظرت إلى ساعتي وهالني أنني قد نمت 4 ساعات، وهذا مكسب كبير سيمكنني من العمل باستمرار لبضعة أيام.

عدت إلى مقر اللواء، ففوجئت أن الدبابات تتقدم على الطريق الجبلي الحجري الذي تتساقط عليه القذائف، والضجيج على أشده، واصابتني نوبة يأس قاتلة. ماذا جرى؟

حين وصلت مقري (خندقي وما حوله من خنادق الجنود)، استقبلني بوجه ضاحك نائب الضابط أبو علي بالتحية: أهلاً بك، حمد الله على السلامة، كل شيء تمام، لا تقلق!

كيف لا أقلق، والدبابات تتقدم الآن، وسوف تنفتح بعد عبورها المضيق في الوادي؟؟

لا لا لا، هذه دبابة أو دبابتان متأخرتان فقط، كل الدبابات عبرت، ورفعنا الشبكة، وكل شيء تمام التمام.

في هذه اللحظة، قال لي عامل البدالة: سيدي، مقدم اللواء طالبك!

تناولت هاتفا أكلمه، فتفجر الرائد ركن ن يخبرني أنّ الخطوط كلها عاطلة، وأين أنتم وماذا فعلتم وهذه مخالفة عقوبتها الإعدام وأنّه لن يتحمل المسؤولية وسيبلغ أمر اللواء...إلى نهاية السمفونية الغاضبة !

وكان عليّ أن أبدأ من الصفر بإصلاح الخطوط في وسط المعركة، جزاءً وفاقاً لي لأني أخذت بنصيحة أبو علي!

***

ضربات نقيب شملان

كل ما في النقيب شملان كبير، رأسه أكبر من جسده، كتفه أكبر من وسطه، قدماه أكبر من ساقيه، أسنانه أنياب كبيرة، شاربه غليظ لكنه متفرق. يأكل بشراهة بأصابعه وهو ينفخ، ويتكلم بصوت عالٍ، ويدّعي نسباً لشيخ عشيرة كبرى، وهو رفيق من حيث لا ندري.

النقيب شملان (إسم رمزي) كان آمر بطرية مدفعية ميدان في عام 1981 من قادسية صدام، وقد التقيته بضع مرات وهو ينفخ على مائدة الطعام والزبد يتدفق من فمه مدراراً. لم يكن بديناً، لكنّ بدنه كان مشوهاً.

زارنا وفد من "حرائر العراق" قادمات برفقة إحدى مذيعات التلفزيون العراقي الجميلات، واستقبل الوفد بترحاب كبير، واستضيف في ملاجئ القيادة، وكُرّم بذبيحة، وبعد الغذاء أعلنت كبرى الزائرات عن رغبتها وسائر الحرائر في مشاهدة "بطولات جيشنا وهو يتصدى للعدوان الفارسي المجوسي"، فصدر الأمر بأخذهن إلى مرصد المدفعية الذي يديره النقيب شملان، ليشاهدن من المرصد حركات العدو وما يفعله به "جنود صدام النشامى".

جرى تقسيم الوفد على ثلاث عجلات واز، تحركت بتوقيتات متفرقة لتفادي رصد العدو، ورافقتُ أنا إحدى العجلات.

في مرصد "السنجاب" في قاطع العمليات الأوسط، استقبلنا النقيب شملان، وقد ارتدى عدة القتال كاملة، والخوذة الحديدة الروسية الثقيلة قد طوقت رأسه، وإلى يمينه تدلى قنباص روسي، وإلى يساره تدلى مسدس مكاروف روسي، وفي يده ملف خرائط مغلفة بالفابلون، وقد أشّرت عليها موضع قطعاتنا، ومواضع العدو على مستوى فوج مشاة متقابل.

قادنا عبر خندق متلوٍ يصعد إلى قمة جبيل ارتفاعه 400 متر، وأخذ يشرح عبر النواظير ونواظم المدفعية المثبتة في المرصد، ما يصيب العدو من ضربات المدفعية. سألت إحدى الحرائر إن كان يمكن رؤية جنود العدو، فقال لها شملان، نعم أحياناً، هم عموماً يخافون الحركة نهاراً بسبب ضرباتنا الدقيقة. لكن سنحاول أن نعرض لكم بعض حركاتهم.

ودعا الجمع إلى التحلق حول النواظير والنواظم وبدأ يصف لهنّ ما يشاهدون، هل ترون الحديدة السوداء؟ إنها دبابة مدمرة للعدو، قربها مواضع جنود، هل ترونهم...هذا أحدهم يتحرك وبيده أبريق.

انظروا اقصى يسار الدبابة، هذا جندي جالس في الشمس، وبيده صحيفة أو كتاب كما يبدو. انظروا انظروا إلى اليمين، هذه شاحنة تنقل جنوداً، يبدو أنهم رجعوا من الإجازة، انظروا أنهم يترجلون من السيارة.

قالت كبيرة الوفد: لماذا لا ترميهم، فتقتل كثيراً منهم، إنّه هدف سهل؟

ضحك النقيب شملان وقال: إنهم مثل الدود، ونقتل منهم عشرات ومئات، وإكراماً لكنّ ولزيارتكنّ سننفذ ضربة عليهم. وطلب عبر الهاتف من رعيل مدفعية (مدفعين) أن يتهيأ. ثم بدأ بتمرير إحداثيات الهدف لهم، وعيّن النقاط الدالة، ثم أصدر أمر إطلاق النار، فدوت أصوات مدفعية الميدان الروسية لتدك الهدف.

وانتظر الجمع أن يرى القذائف، انتظرنا، ثم سمعنا صوت الانفجارين. نظرنا معاً إلى الهدف، فلم نجد أثرا للانفجارين، لا دخان، والجنود مازالوا يتحلقون حول شاحنة يبدو أنها جلبت لهم أرزاقا.

تساءلت الحرائر من النقيب شملان عن مصير القنبلتين، فأجاب أنهما أصابتا الهدف ودمرتاه.

وتعجب الجمع لأنّه لم ير سقوط القنبلتين؟ فقال النقيب شملان: القذائف سقطت خلف خطوط العدو، وقتلت ما لا يقل عن 10 من جنود الفرس المجوس! وهذا يحدث كل يوم خاصة في أوقات توزيع الأرزاق.

سكتت الحرائر عن السؤال احتراماً لقصة النقيب، وبعد دقائق، انطلقنا في طريق العودة، ليذهبن عن مقر اللواء إلى الفرقة ثم يعدن إلى العاصمة قبل حلول الظلام.

في الموقف المسائي للفوج لذلك اليوم جاء ما يلي:

الموقف المسائي ل "ف 3، ل مش 5، فق مش 8، فل 2" حتى الساعة 1700 من يوم 1981..." اصابة جنديين من فصيل حجاب الفوج على بعد 500 متر غرب الدبابة المحترقة بنيران صديقة، إصابة أحدهما خفيفة وتم إخلاؤه الى المنطقة الإدارية للفوج، وإصابة الآخر متوسطة وجرى اخلاؤه إلى و. م. ط 144".

وكانت ضربات النقيب شملان "الصديقة" التي أصابت "جنود صدام النشامى" حديث بهو الضباط في مقر اللواء ذلك اليوم، وتوقع كثيرون أن تلحق به عقوبة كبرى قد تصل للسجن لهذا الخطأ الشنيع!

قبل نهاية العام، قُبل النقيب شملان في كلية الأركان، وجرى ايفاده إلى أكاديمية كوتا في باكستان لإتمام الدراسة ونيل شهادة ماجستير علوم عسكرية يحمل بموجبها شارة الركن الحمراء.

***

قائد الفرقة الثامنة محاصرٌ في قرية!

خرجنا مكسورين من جحيم هجمات الشهر الأول من قادسية صدام. ويبدو أن غضب قائد الفرقة من آمر اللواء الذي طُرد من الجيش وذهب إلى السجن أنصب على اللواء نفسه، فزجّ بنا مرة أخرى إلى حذاء القرى المحيطة بسفوح جبل زرده. هذه المرة نحن بين فكي التمساح.

أهم ملامح سلسلة القرى المهجورة في وادي تنك حمام كانت، القرية العصرية في قره بلاغ التي اسميناها "غابة سهامي" وتشمل مزرعة لأشجار الصنوبر بمبنى إداري ومساكن كانت في زمن قريب جداً مقراً لإدريس بارزاني حيث وجدنا شعارات الحزب الديمقراطي الكردستاني وصور البرزانيين على جدران المباني، ثم قرية بس بس التي استقرت فيها سرية المقر، مع مرصد محلي، ثم قرية كريم كويك المتصلة بقره سعيد والتي باتت مقراً جوالاً للواء وقد استقر فيها آمر اللواء الجديد العقيد الركن دحام راضي العسل، ثم قرية عباس كويك وفيها نصف الفوج الثاني، وبعدها قرية لطيف كويك وفيها السريتان الباقيتان من الفوج الثاني، ثم السفح الجنوبي الشرقي من عارضة المهد، وتشغله سرايا الفوج الثالث. أما الفوج الأول من اللواء فقد خرج من إمرة اللواء إلى قاطع آخر.

كان قاطع لوائنا واقعاً بالكامل تحت رحمة الإيرانيين، وكان بإمكانهم عملياً القضاء على القوات برجمها بالحجارة فحسب! ولكن بسبب ضعف استخباراتهم، وفقر قواتهم، لم يستطيعوا أسر اللواء كاملا مع أسلحته وآلياته.

وبسبب انكشاف أجنحة اللواء جنوباً وشرقاً، قرر آمر اللواء، إمساك القرى الأخرى في الوادي بمفارز وهمية، وهكذا طلب مني أن أمسك بقرية "رشيد أغا" التي سميت السترة، وأضع فيها بدالة عشرة خطوط وسطية، مع مفرزة، وبضع جنود ببضع بنادق ورشاشة خفيفة لمنع أي تسلل مفاجئ.

ومقابل القرية، وضع في مخفر مهجور على الشارع مفرزة إخلاء طبي متقدمة. طبيبان، وعدد من المعاونين الطبيين، وسيارتا اسعاف، وبضع بنادق، وكان يُنتظر منهم ومنّا أن ندافع عن الطريق الذي يغذي القوة الرابضة على سفوح زرده الغربية !! والدفاع عن أنفسنا عند أي هجوم، وبسبب عدم واقعية الموضوع، فضّلنا السكون، وعدم كشف أنفسنا بحيث عشنا في بيوت معتمة، وحين نتحرك ليلا نتحرك بسيارة مطفأة الأنوار، وهكذا نجونا من أي عملية ومن القصف.

قائد فرقة المشاة الجبلي الثامنة آنذاك كان العميد الركن عبد الرحيم طه الأحمد التكريتي، وقد تولى منصبه بداية الحرب بعد أن كان آمراً للكلية العسكرية الأولى. وأصرّ الجنرال

الأحمد على أن القرى المحاذية لسفوح زرده الغربية خالية من القوات الإيرانية، وأنّ جبل زرده ليس فيه سوى بضع عشرات من قوات البسيج الكرد وهم غير موالين لحكومة إيران حسب معلومات الاستخبارات العراقية.

ولكي يُثبت هذا، طلب من آمر اللواء الجديد أن يعمل له وليمة غذاء نهاراً، على أن يتخذ القائد من قرية كريم كويك مقرا جوالاً له، للقيام بتعرض على سفوح زرده الغربية بقوة اللواء الممسك بالأرض نفسها !؟

وهكذا كان، في يوم من شهر تشرين الثاني 1980، وصل قائد الفرقة بسيارة تويوتا لاند كروزر فيها 4 هوائيات، وعليها علم العراق وبيرق الفرقة! تتبعها سيارات الحماية المحملة برشاشات م ط ، وسيارة ضابط الركن الثاني لحركات الفرقة.

كان موكباً مهيباً وصل في نهار مشمس إلى القرية، وترجل القائد وسط التحيات والاستقبال الحافل، وقام قصاب اللواء، بذبح الخروف المسكين تحت قدميه، ثم انهمك في طهي الخروف ليعد لهم الغذاء.

كل شيء هادئ في سفوح زرده الغربية، وكأنّ العدو لا يرى شيئا، وانتاب الجميع شعور أن مفاجأة مزعجة في طريقها إلينا.

تناول الجمع طعام الوليمة وبدأوا بشرب الشاي، واقترح القائد أن يخرج مع الغروب برفقة آمر اللواء العقيد الركن دحام راضي العسل إلى سفوح زرده، لاستطلاع خط الصولة لعملية سينفذها اللواء قريبا ليمحو بها "عار الهزيمة في معركة هضبة المهد" قبل أسابيع.

ثم فاجأت الجميع زخة قذائف تساقطت على القرية، تلاها قصف من فصيلي هاون متوسط (81 ملم) ، بلا توقف على قرية كريم كويك وقره سعيد. استمر القصف لمدة 3 ساعات، حتى حلّ الظلام، ولم تصدر عن الرتل الذي دخل القرية أيّ حركة. في تلك الليلة، غادر العميد الركن عبد الرحيم طه الأحمد المكان بسيارة قد ثقبتها الشظايا. ما نقله الجند والضباط عن حصار القائد هو اضطراره تحت وطأة القصف المرعب إلى أن يتبول في قنينة كولا، لخوفه من مغادرة الملجأ الأرضي الذي كان يحميه في غرفة مدير المدرسة!

مع حلول منتصف الليل، بدأت القوات الإيرانية بقصف سلسلة القرى بكثافة، ما يوحي بأنه قصف تمهيدي، عزز المخاوف أن معتمد اللواء (ساعي البريد الذي ينقل بريد اللواء على دراجة نارية) قد هرب إلى صفوف القوات الإيرانية على سفوح جبل زرده حاملا معه كل محافظ بريد ذلك اليوم.

كل هذا دفع مقر اللواء الجوال بضباطه الأربعة ومرافقيهم وآمر كتيبة مدفعية الميدان 48 الى مغادرته على عجل إلى كهف في نفس جبل زرده لا يراه العدو لأنه مخفي في طيات الجبل.

لم يهجم العدو، لكن مقر اللواء أضطر إلى مغادرة القرية التي كشفتها زيارة الجنرال قائد الفرقة ورتله المهيب وهروب المعتمد، فانضم مقدم اللواء وآمر كتيبة المدفعية إلى قريتنا، فيما ذهب آمر اللواء وضابطي الاستخبارات والحركات، الى قرية عباس كويك كي لا يتهمون بالتخاذل!

أغرب ما في ذلك المشهد أن الايرانيين لم يكلفوا أنفسهم مشقة الهجوم على القطعات المنتشرة على جهتي تنك حمام، اللواء الخامس من جهة جبل سيسر، واللواء 23 على سفوح جبل زرده الغربية. وهذا يدل على تفكك قيادة القوات الإيرانية وافتقارها إلى معلومات واستخبارات آنذاك، لأنّ تلك المنطقة كانت من المناطق الكردية في إيران، وهي لم تكن تحت قبضة الحكومة الإسلامية بالكامل.

العراقيون لم يستفيدوا من ضعف الإيرانيين وهزال استخباراتهم، والإيرانيون لم يستفيدوا من قلة عديد وعدة القوات العراقية في الوادي الخصيب.

اتفاقية "الخوف المشترك والضعف المشترك" غير المعلنة، حافظت على خرائط النفوذ في هذه المنطقة كما هي حتى انسحاب القطعات العراقية من العمق الايراني وفقاً لقرار مجلس الأمن في تموز/ يوليو عام 1982 .

***

المشفرة التي استخدمت في شبكات اتصالات القيادة العامة للقوات المسلحة مع الفيالق ودوائر العمليات

قاصة وذمة الملازم سعد !

الضابط الإداري في الحرب محسود، بل مكروه، وبانَ هذا بشكل فاضح في حرب السنوات الثمان بين العراق وإيران. ملازم سعد الضابط الإداري في وحدتنا كان أحد أشد "المحسودين" في الوحدة ومن أسباب ذلك ان مقر الضابط الإداري عادة في القدمة الإدارية الآمنة للواء، علاوة على قاصته الألمانية وما في ذمته من معدات عسكرية متناثرة.

مضت سبعة أيام من شهر تشرين الأول/ اكتوبر 1980، ولم يستلم منتسبو مقر اللواء رواتبهم وهم منهمكون في معارك القادسية، بسبب مشكلة القاصة والحسابات ويدير كل ذلك الضابط الإداري الملازم سعد (اسم رمزي). عيلَ صبر الجميع، ووصلت الشكاوى بحقه إلى أعلى المستويات. فكانت أعذاره أسوأ من أسباب التأخير نفسها.

حين بدأت قادسية صدام، واستعد اللواء للحركة إلى الجبهة، كانت مدة خدمة الملازم سعد برمتها 9 أشهر، وظل يقول إنّ اللواء لا يمكن أن يذهب إلى الجبهة، حتى بدأت القطعات تتحرك فعلاً. فلم يبق في الوحدة جنود يساعدونه في رزم وتحميل الأسلحة والأعتدة والمعدات وكلها أحمال ثقيلة. وهكذا كان عليه أن يستعين بجنود من وحدات تركت قدمات إدارية في المعسكر القديم، وأغلبهم معاقون، علاوة على سجناء من سجن حامية راوندوز.

وكان آخر ما فكر الملازم سعد بنقله هو القاصة (الخزانة الحديدة المقفلة ويبلغ وزنها 100 كيلوغرام) . وتركها في مكتبه الطيني المهلهل في راوندوز، ورحل إلى الجبهة ليوصل مدافع هاون ورشاشات متوسطة كان قد استلمها تواً من العينة، وتأخر في إيصالها إلى الجبهة، ما سبب في تشكيل مجلس تحقيقي بحقه. وحال وصوله، تلقته تهديدات الجميع بأنّ تأخير الرواتب، سيرسله إلى محكمة الثورة بتهمة العمل على تخريب معنويات المقاتلين، كما هدده مقدم اللواء !

عاد الملازم سعد ليجلب القاصة، لكنّ نفسه راودته أن يزور بيته في بغداد قبل الذهاب إلى راوندوز البعيدة، وهكذا استجاب لنداء قلبه وذهب إلى العاصمة العراقية محمولا على بساط الشوق الجارف! وأمضى في بغداد 3 أيام، ثم رحل إلى راوندوز، ليجد أن مكتبه قد اقتحم من قبل مجهولين، وقد أخرجت القاصة منه، وبعد أن عجز المعتدون عن فتحها أو عن نقلها ، تركوها في العراء بعد أن كسرت قبضتها بسبب محاولاتهم.

حار الملازم سعد ما يفعل، وما لبثت وحدة البريد في راوندوز أن ابلغته بوصول برقية مدنية باسمه من أحد معارفه. أسرع الملازم سعد إلى بريد راوندوز، ليستلم البرقية فوجد انها تنص على التالي:

"استلام بدلات وأحذية خدمة عسكرية ومشمعات مطرية فورا من العينة. خضر" !

البرقية من آمر اللواء المقدم الركن خضر العلوان شخصياً، وهو الذي سبق أن شكّل بحقه مجلسين تحقيقيين، أحدهما بسبب تأخير إيصال الأسلحة، والثاني بسبب تأخير رواتب الوحدة.

حاول سعد أن يجد جنودا يساعدونه في تحميل القاصة المطروحة تحت المطر والرياح، لكنه فشل، فلجأ إلى استئجار عمال مدنيين من راوندوز، أعانوه في حمل القاصة مقابل أجر. بعد ذلك تحرك الملازم سعد، والقاصة معه إلى بغداد ليستلم من العينة التجهيزات الرومانية الشتوية التي تدخل العراق أول مرة. حال وصوله إلى العاصمة، اتصل بمقر اللواء هاتفياً عبر بدالة الدفاع، وطلب أن تُرسل له شاحنتان ليستلم المواد المطلوبة ويقوم بتحميلها من بغداد.

استجاب اللواء بسرعة خارقة، فأرسلت له شاحنتا ايفا عصر ذلك اليوم، وفيما كان نائماً في بيته الساعة 11 ليلاً، اتصل به سائق إحدى الشاحنتين متسائلا أين سيلتقيه ومتى حسب أوامر آمر اللواء شخصياً، فطلب منهم سعد أن يكونوا في مدخل بغداد من جهة معسكر التاجي تمام الساعة 11 صباح اليوم التالي.

وكالعادة، نهض الملازم سعد متثاقلاً صبيحة اليوم التالي، وتناول بهدوء طعام فطوره مع أهل بيته، ثم ودعهم ورحل بالشاحنة التي تحمل القاصة ليلتقي بالشاحنتين الأخريين. حين وصلهما كانت الساعة قد شارفت على الثانية عشر ظهرا.

قاد الملازم سعد رتل الشاحنات إلى معسكر التاجي، ودخل إلى العينة، فإذا الدوام قد انتهى عندهم، وعليه الانتظار حتى اليوم التالي لتسلم التجهيزات الشتوية. وفي اليوم التالي استلم التجهيزات وعاد إلى مقر اللواء بعد أن أمضى أسبوعا كاملاً لرحلة جلب القاصة التي كان مقررا أن يعود بها خلال 48 ساعة، جالباً معه التجهيزات الشتوية، ليخزنها في مستودعاته بالمنطقة الإدارية بخانقين.

في اليوم التالي، ذهب إلى مقدم اللواء في مقر اللواء المتقدم، مبيناً له أن القاصة قد تعرضت لمحاولة سرقة، وكُسر مقبضها الذي يدور فيفتح الباب، وبالتالي فهي غير قابلة للفتح الآن، ولا يعرف كيف سيستلم رواتب الوحدة وأين سيخزنها لحين توزيعها!؟

تطور الأمر إلى تشكيل مجلس تحقيقي حول القاصة، وحول تأخره لمدة أسبوع في العودة إلى اللواء بعد تكليفه بواجب محدد. وكانت المشكلة الأصعب هي كيفية استلام الراتب، وهكذا أوعز آمر اللواء بتشكيل لجنة مؤقتة برئاسة ضابط ركن إدارة اللواء وعضوية كل من الضابط الإداري للفوج الأول، والضابط الإداري للفوج الثاني، لاستلام رواتب شهر

تشرين الأول/ اكتوبر 1980 الخاصة بسرية مقر اللواء بسبب مشكلات نجمت عن إهمال الضابط الإداري! في النهاية وصل الراتب لمنتسبي مقر اللواء متأخرا 20 يوماً.

انتهى عام 1980 وقد تشكلت 5 مجالس تحقيقية بحق الملازم سعد، وكان كثيرون يرون أنه ذاهب للسجن آجلاً أم عاجلاً بسبب أخطائه المميتة وبروده التاريخي العجيب وتقاعسه الذي لم يتخل عنه حتى في أصعب لحظات الحرب! لكنّ هذا لم يحدث، بل جرى شيء عجيب.

فقد وصل بعد أشهر كتاب من ديوان رئاسة الجمهورية، وبتوقيع رئيس مكتب ديوان الرئاسة جاء فيه: "بأمر الرئيس القائد المهيب الركن صدام حسين القائد العام للقوات المسلحة، تنسب سفر الملازم سعد... المنسوب إلى لوائكم على نفقة ديوان رئاسة الجمهورية إلى النمسا لأغراض العلاج، وسيعاد إليكم حال انتهاء علاجه. لترتيب المكاتبات والموافقات اللازمة للمراجع العسكرية من قبلكم".

دامت رحلة الملازم سعد إلى النمسا 4 أشهر، وكانت أطول رحلة كسل ورفاهية عاشها في حياته الحرة الكريمة!

***

الحرب على حيوانات قرية "السترة"

لا ينطبق وصف قرية على بيوت قره بلاغ "السترة"، حيث كلفت بمراباة فيها على الطريق الصاعد إلى مقر اللواء، فهي لم تكن أكثر من ثلاث صرائف، وحظيرة حيوانات على شكل صريفة، وكدس أعلاف.

يبدو أن سكان بيوت "السترة" أفراد عائلة واحدة، انتبذوا كل قرى وادي سربل زهاب الخصيب الجميل، وأسسوا لحياتهم على جدول صغير تغذيه وتديمه الأمطار. هذه الواحة ما زالت تعبق برائحة الريف، وبقايا الساكنين في تلك الأكواخ ومظاهر حياتهم ما زالت ماثلة: كلبان، أحدهما أسود والآخر ملون، حصان أشيقر هرم، حمار تآكل وبرُ ظهره بسبب أحمال فرضتها البردعة، سنوّر هرم فاحم السواد بغرّة بيضاء في جبهته وتحت فمه بمسرى عنقه.

الدجاج والديك الرومي "فيسفس" وجدنا بقاياها، (ويصفها العرب بوصف فطائس وهو وصف لا أحبه ولا أرغب في تداوله) وقد أكلتها الحيوانات ومنها ذئاب وثعالب تزور البيوت ليلاً فتتخطف ما تبقى من حياة فيها وفي ربوعها. أقمتُ نقطة حراسة، تواجه جدول السترة لتراقب الشارع من مكمن لا يراه من يسافر على الشارع، فكانت النقطة تبعد الذئاب والثعالب ليلاً عن صيدها، وهكذا بقي "قطيع" الحيوانات غير الموحد، حياً قارّاً في تلك البيوت الدوارس يأبى أن يفارقها وكأنه يرفض الإذعان لأهوال الحرب التي غيرت ديموغرافيا المكان خلال ساعات.

واجبي وواجب رعيل الجنود الذي يعمل بأمرتي هو تأسيس وإدامة المواصلات السلكية لمقر اللواء، لكنّ ظروف المنطقة وعدم وجود قطعات كافية تمسك الأراضي الإيرانية الشاسعة التي أحتلتها القوات العراقية فرضت علينا واجباً إضافياً، إذ انقسم الرعيل إلى 4 أجزاء، وجرى تعييني بأمرٍ "لوائي" أمر ربيئة على الطريق ونصبت في الربيئة بدالة وسطية سعة 10 خطوط لتقصير خطوط الاتصال وتسهيل ادامتها لدى القصف، إضافة لواجباتي المتعلقة باتصالات اللواء. وهذا يعني أن الجندي يقضي ليله ونهاره ممسكاً بندقية وهو يحرس طريق اللواء، وفي نفس الوقت، يترك البندقية ويخرج بالأسلاك على الأقدام لإصلاح الشبكة السلكية عندما يحدث قصف، وهو يحدث يومياً بلا أسباب وبلا توقيتات معلومة.

بالنسبة لي ولهم، خلت تلك المرحلة الصعبة من فقرة "نوم" الأساسية في حياة الإنسان. وكنّا جميعاً منهكين ليل نهار بلا هوادة ولا فاصلة. الفرق بيننا، وبين باقي الرعيل الموجود في مقر اللواء الرئيسي في قرية تبه انوشروان هو أن نصيبنا من القصف أقل من نصيبهم بكثير، لأنّ ربيئتنا السترة، تنعدم فيها الحركة نهاراً.

صباحات البرد في تشرين الثاني / نوفمبر 1980، كانت توقظنا من نومة الصرائف الرطبة. المكان ما زال يعبق بالرطوبة وبرائحة الحيوانات وفضلاتها. والفجر كان موعد استيقاظ حيوانات السترة، فتبدأ رحلة الحيرة، ماذا ستأكل هذه المواشي في وادٍ كان خصيباً لكن أفقرته الحرب؟ فضلات حصصنا الغذائية العسكرية لا تغني الحيوانات ولا تشبعها، وهكذا كنا مضطرين دائما أن نحثها على الرحيل عبر الوادي بحثاً عن كلأ تخلّف عن ربيع العام المنصرم، أو علفٍ اختفى في بيوت هجرها أصحابها في تنك حمام.

هذا الطرد المستمر جعل الدواب المسكينة، ترحل عن السترة مع حلول الصباح، بحثاً عن العشب والعلف، ولن تعود لنا إلا عند الغروب، أما الكلبان والسنور، فيبقون معنا بانتظار سيارة الأرزاق التي تصلنا مع خيط الظلام الأول بعد غروب الشمس. وهذا يعني بعد الخامسة عصراً. مواشي السترة كيّفت نفسها مع الحياة العسكرية.

ذات ظهيرة، وقفت عندنا عجلة إسعاف عسكرية من نوع مرسيدس اوتومارسان الألمانية (وهي عبارة عن مستوصف ميداني متنقل كبير الحجم بشكل مكعب معدني يسير على دواليب عملاقة) ضلّت طريقها، ونزل سائقها يسألنا عن الطريق إلى وحدته. ودله الجند على طريق الوحدة، لكنّ منظره وهو واقف عندنا بالسيارة العسكرية الكبيرة لفت نظر الراصد الإيراني على سفوح جبال زرده الغربية، وما إن رحلت سيارة الإسعاف عن سترتنا، حتى انهالت علينا قذيفتا مدفع ميدان، ثم تبعتهما قذائف متفرقة بمعدل قذيفة كل ربع ساعة لفترة دامت نحو 3 ساعات، حتى غروب الشمس. بقينا مختبئين في الخنادق الشقية، فيما تتساقط القذائف حولنا، وانحشر معنا في الخنادق الكلبان والسنور مستترين من جحيم القذائف، بل إنهم قد تبولوا في الخنادق لشدة رعبهم.

مع كل قذيفة كنا نقطع أنفاسنا ونقول إنها ستمسحنا من الحياة، فيصلي البعض ويدعوا آخرون أن لا تسقط عندنا، فيمر شرها سلاماً علينا. استمر القصف إلى ما بعد الغروب ثم انقطع، فخرجنا نتنفس وخرجت حيوانات السترة من خنادقنا. لم يصب أحد المقاتلين لكن الحصان الهرم، وهو الباقي من أصحاب المكان الحزين، أصابته شظية في فخذه الأيسر، وبقي ينزف ويئن لشدة الألم، فيما أصابت شظية رأس الحمار المسكين فذهبت بأذنه، وفتحت جرحا سطحياً نازفاً في جبهته فما برح ينهق متألماً.

وقفت أتأمل هذا الحزن الذي لا يطاق، والكارثة التي حلت علينا فجأة، وتقافزت لذهني مشاهد من أفلام الويسترن، حين يصاب حصان البطل برصاصة، فيترجل فارسه، ويعانقه بحنان ثم يعدمه برصاصة ليعفيه من ألمٍ لن يفهم قط سببه.

استل مسدسي، وأعبئ فيه رصاصة وأبقى أنازع نفسي أن أزهق روحين أم لا، وأنين الحيوانات المسكينة يمزقني بلا شفقة. تحرك الجندي المشاكس الأشقر شامل السامرائي معترضاً **"لا سيدي، حرام!"**

- لكنهما يتألمان يا شامل ولن يستطيعا أن يرعيا، ولن يتمتعا بنور شمس الشتاء، ولن يسعدهما المطر، ولن يسمع الحمار أصوات الطيور، هما سيموتان بألم يجهلان سببه، هل هذا عدل؟

- لقد شاءت إرادة الله أن يعيشا، فاتركهما يعيشان حياتهما حتى تحين ساعتهما.

كانت فلسفة بسيطة لكن مقنعة تماما، خاصة وهي تعفيني من خيار القتل اضطراراً الذي كنت أفكر فيه. أعدت مسدسي إلى غلافه، وقلت لشامل: خليها إذن على الله حتى تحين ساعتهما.

تلك الليلة لم ينم الحصان والحمار، ولم يرقدا أرضاً، وفي وقت ما بعد منتصف الليل، ايقظني من نومتي الثانية القلقة صوت صهيل وحوافر! ظننت نفسي أحلم، ثم قمت من غفوتي، وخرجت إلى باحة الصريفة الخلفية حيث تساقطت القذائف. فهالني وجود قطيع كبير من الخيل احتشد حول الدابتين الجريحتين. سألت الحرس ماذا جرى، فأخبرني أن القطيع جاء فجأة إلى المكان من جنوب الوادي، باتجاه الشمال الغربي. كانت الخيول تحك أنوفها بأنفي الدابتين الجريحتين، في منظر مواساة لا أنساه قط.

مع الفجر، تحرك القطيع، فخرجت مرة أخرى أتأمل المشهد الحزين، وياللعجب حصاننا وحمارنا الجريحان يضلعان في السير مع القطيع الراحل!

قطيع الخيول التائهة في وادي سربل زهاب، كانت له قصص في هذا السفر الحزين المتطاول.

***

عاشوراء المقدم عباس!

في ثنايا القتال مواقف يصعب وصفها بأنها حربية، لكن يمكن القول بأنها كانت تتحدى ثوابت النظام، وثوابت العداء بين الدولتين. وجاء أول عاشوراء في تاريخ الحرب العراقية الإيرانية بقصة من هذا النوع.

في قرية تبه رش الإيرانية المحتلة من قبل الجيش العراقي والتي تبعد عن الجبهة مسافة 15 كليومترا استقر المقام بمقر لوائنا المنهك بعد معارك أول الحرب. الفوج الأول من اللواء خرج من إمرة الفرقة منذ أشهر طويلة ويعمل في قاطع الشوش، والفوج الثاني ونصف الفوج الثالث سحبت إلى المحاويل لإعادة التنظيم وتعويض الخسائر(خسر الفوج الثاني 50 بالمائة من موجوده بين قتيل وجريح وأسير، فيما خسرت السريتان الأولى والثانية من الفوج الثالث 70 بالمائة من الموجود، وفقدت 90 بالمائة من مهماتها ومعداتها، وكان بقاء بعض جنودها بأسلحتهم الشخصية أشبه بمعجزة بعد معارك هضبة المهد الشرسة).

الهدف المعلن للقطعات كان لا يزال "السيطرة على مضيق بايطاق"، فيما لم تستطع كل العلميات القتالية والتعزيزات وجحافل المعركة أن تدفع بالقوات مترا واحدا بعمق السفوح الغربية لجبل زرده. وبقيت الفاصلة دون الهدف المعلن 70 كيلومترا من الجبال والقطعات الإيرانية.

مقر اللواء الذي سُحب إلى قرية تبه رش، لم يكن يملك قطعات، لذا ألحق به فوج من لواء 91 مشاة جبلي الاحتياط، وهو فوج لا يملك آليات، ولذلك لا يستطيع الحركة ولا تأمين أرزاق جنوده، ولذا فقد تولت سيارات سرية النقل والتموين الثامنة تأمين ذلك له، و3 سرايا مغاوير من الفرقة الثامنة سحبت لإعادة التشكيل بسبب خسائرها بالأشخاص والمهمات والآليات، وفوج فرسان خفيف من أفواج الأيزيدية، على أن تقوم كل هذه الوحدات بمهام تأمين خطوط امداد القطعات من قره تو، وتأمين حماية الجهد المدني الهندسي الذي باشر بمد طريق عبر فتحة كوميشان وصولاً إلى حوض سربل زهاب.

ذات صباح، استيقظ مقر اللواء على مقتل حسيني بصوت حمزة الصغير تبثه مكبرات صوت التوجيه السياسي بمقر لواء المشاة 23. وكانت مفاجأة صاعقة للجميع، لم تفقها إلا مفاجأة وصول سيارة الأرزاق في الساعة 11 قبل الظهر وهي تحمل قزانات (قدور) الهريسة لجنود مقر اللواء!

كنت ضابط الخفر لذلك اليوم، وكان من ضمن واجباتي الإشراف على توزيع الطعام، وهكذا اعتمرت الخوذة، وخرجت إلى سيارة الأرزاق حيث اصطف جنود مقر اللواء،

ومعهم جنود من سرية مغاوير اللواء قدموا بسيارة أمر سريتهم الجريح مع ضباطه الاثنين ليستلموا أرزاقهم من مقر اللواء لأن سريتهم لا تملك آليات! السرية كان يديرها رئيس عرفاء السرية!

طباخ اللواء الموصلّي العريف القصير كنعان ما برح يدرخ الهريسة بالكفكير النحاسي العملاق وهو يتمتم. سألته ماذا يقول ويتمتم، فأجاب بلغته المتعثرة المضحكة، أن المقدم عباس آمر السرية قد أمره بوضع خروفين في قزاني الهريسة، وهو مع جنوده يعملون منذ الساعة الواحدة ليلاً على تهيئة القدور، ما حرمه من النوم لمدة 24 ساعة!

أول الواقفين بصفوف الجنود كان الجندي "العملاق الجبار" كطّان من حضيرة انضباط اللواء، والذي سمع كلام الطباخ فابتسم وقال مشجعاً: لا عليك عريفي، عملك مأجور، هذا بثواب الحسين الشهيد، وكل من يعمل بثواب الشهيد مأجور، صلوا على محمد وآل محمد! وردد أغلب الواقفين من الجند صلواتهم بصوت عالٍ.

تسلقت ظهر شاحنة الإيفا، فنظرت في القدرين، ثم قلت للطباخ: أين الدهن وأين الدارسين وأين السكّر؟ الهريسة لا تؤكل بدون هذه الأشياء.

قال العريف كنعان مرتبكاً: سيدي أنا لم أر هذه الطبخة في حياتي، وقد عملتها بمساعدة بعض جنود السرية، لكنّ الملازم سعد (الضابط الإداري) لم يجهزنا بما ذكرته من مواد؟

تعالى صوت المقدم عباس فوق أصواتنا وهو يخاطب الجميع: شوف شوف شوف، هل تقول إنّ الملازم سعد مقصر؟ لقد ابلغته منذ اسبوع أن يستلم هذه المواد من المذخر ويسلمها للطباخ، وقد كلمته هاتفياً عصر يوم أمس وأكدت عليه، فقال إنه قد تسلمها، واعطاك إياها، فأين هي المواد؟

فاجأني كلام آمر وحدتي وأنا معلق فوق ظهر الإيفا، فأوعزت إلى الواقفين بالاستعداد وأديت له التحية وموقعي أكثر ارتفاعاً من موقعه جغرافيا، وهو أمر غير محبب عسكرياً.

وما إن رد المقدم التحية وأوعز للجميع بالاستراحة، حتى قفز العريف البدين المضحك كنعان ببدلته الزرقاء الملوثة بالشحم ورائحة الطبيخ من ظهر سيارة الإيفا إلى الأرض، ونزع بيريته وألقى بها أرضاً يائساً وهو ينحب بصوت عالٍ: يابه وحق أمير المؤمنين العباس إبن الحسين اللي هذا يوم عزاءه، لم أستلم من الملازم سعد شيئا، قابل وديته إلى بيتي، بيتي في الموصل، كيف أصل بهذه المواد إلى الموصل!!

وسرت همهمة بين الجنود، تلتها ضحكات متفرقة، وابتسمتُ لما قاله، فيما ضحك المقدم عباس آمر سرية المقر (وهو ضابط نجفي يكنّى بأبي كوثر، وهو ضابط قديم لكنه لم ينل الترفيع لكونه غير بعثي)، فانفجر الجنود يتضاحكون لجهل العريف كنعان وخلطه بين

أسماء الأئمة. كل هذا يجري فيما يردد صوت الرادود حمزة الصغير عبر مكبرات الصوت "يا حسين بضمايرنا، أحنا بيك آمنّا" .

وأطلق المقدم عباس عبارته النجفية الشهيرة: جا هسا اشلون؟؟

في هذه اللحظة تعالى صوت آمر اللواء العقيد الركن دحام راضي العسل متسائلا: شنو القضية مقدم عباس؟

أوعز المقدم عباس للجميع بالاستعداد، وفعلت ذلك معهم رغم إني معلق فوق سطح شاحنة الايفا، وأدى المقدم التحية لآمر اللواء نيابة عن الجميع.

استعد آمر اللواء وقال وهو يرد التحية برشاقة: استرح.

فاتخذ الجميع وضع الاستراحة، وتساءل العقيد الركن دحام عما يجري، فروى له المقدم ما جرى وبلهجته نواح من شكوى عزاها من طرف خفي إلى الضباط الإداري الملازم سعد.

أوعز آمر اللواء بتوزيع الهريسة كما هي، على أن يتابع المقدم عباس مصير المواد المفقود، ويكتب كشفاً بما جرى ويقدمه لآمر اللواء.

وهكذا مر يوم عاشوراء الأول في قادسية صدام في شهر آذار/ مارس عام 1981، حسب ذاكرتي الهرمة.

***

معركة الخيول

غرفة الحركات في مقر اللواء يشغلها دائما ضابط ركن، وينوب عنه ضابط من مقر اللواء يسمى خفر حركات، وكان هذا واجبي ذات ليلة شتاء من عام 1980 حيث وقعت معركة غريبة من نوعها.

رنّ هاتف مرصد سيسر المرتبط بغرفة الحركات نحو الساعة الثانية ليلاً، وابلغني عناصر الاستخبارات والمدفعية عن تحرك كبير يجري في فتحة تنك حمام (وهي فتحة بين جبلين تصل مساحتها إلى نحو كيلومتر وفيها حطام طائرة مقاتلة سقطت في يوم المعركة الثاني أو الثالث وما زالت مجهولة الهوية، إذ يراها البعض روسية عراقية، فيما يراها آخرون أمريكية إيرانية).

غرفة الحركات هي ملجأ كبير يتكون من مجموعة ملاجئ هندسة حديدية الرقم 9 التي تكسو جدرانها ألواح خشبية ويهال على سقفها حجر وصخور واتربة وتبنى عادة تحت الأرض، وتختلف مساحتها بحسب جغرافية منطقة مقر اللواء والامكانات المتاحة له. جدران غرفة الحركات عليها خرائط اللواء وخرائط مساحة قتاله وانفتاح أفواجه، وأهداف المدفعية لقاطع اللواء، وفيه هواتف وأجهزة اتصال ومقاعد تلتف حول طاولة للاجتماعات وجهاز تلفزيون ملون غالي الثمن يعرض اهتمام صدام حسين اليومي بقادسيته وبجنودها وضباطها، ثم اضيف للتيلفزيون الملون جهاز فيديو مهدى من مديرية التوجيه السياسي إلى كل وحدات الجيش العراقي وصولا إلى مستوى سرية مستقلة.

يقابل غرفة الحركات هذه مثيلتها في مقر الفرقة، ولكن بإمكانات أكبر بكثير، أما في مقر الفيلق فتسمى غرفة العمليات، وتُلحق بها خلية استخبارات وخلية مخابرة وخلية حركات ومكتب معلومات ومكاتب ضباط ركن الفيلق.

غرف الحركات لا تفرغ وكذلك غرفة عمليات الفيلق وتمثل مقرات القيادة الحية القائمة على مراقبة جبهات القتال بشكل مستمر. (بعد سنوات طويلة جداً من وقائع حرب القادسية اكتشفت أنّ العسكرية الإيرانية خلال الحرب مع العراق، كانت تفتقر إلى مستويات هذا التنظيم، وكانت مراقبة الجبهات تقتصر على مقرات قواطع العمليات الكبرى مثل، "ستاد كل خاتم الأنبياء"، "ستاد كل حمزة سيد الشهداء"، "ستاد كل قدس" الذي بات يعرف ب" فيلق القدس").في العادة يقوم ضابط الخفر المقيم في الحركات بإيقاظ ضابط الركن المكلف بالواجب عند وقوع فعالية صديقة أو معادية أمام قاطع اللواء، وفي تلك الليلة كان ضابط الركن المكلف بالواجب هو ضابط الركن الثالث استخبارات اللواء، إلا أنه كان قد خرج في واجب استطلاع مع قوة من المغاوير، ولم يكن أمامي سوى مقدم اللواء، وقد ذهب قبل ساعة إلى ملجئه للنوم، وأخشى أن يكون بلاغ المرصد ليس دقيقاً، ولا يزيد الأمر عن دورية

معادية تتنقل في حوض تنك حمام، وقد لاتصل خطوطنا الأمامية، فارتأيت أن أتريث في ايقاظه. وهكذا عدت للمرصد أسالهم وصف ما يرون بنواظير الرؤية الليلية العاملة بالأشعة تحت الحمراء. فشرحوا لي أنهم يرون قوة يقدرون عددها بسرية، ومعهم دواب، قد تكون محملة بأسلحتهم ومتاعهم، والمجموعة تتحرك جيئة وذهاباً بين الطرف الشرقي للفتحة، وهو وادٍ خالٍ من قطعات العدو، وبين حقول ألغامنا التي تغلق الفتحة بعمق يصل إلى 300 متر مزروعة بألغام ضد الأشخاص وضد الدروع.

سارعت اتصل بمرصد الفوج الثاني اللواء الخامس العامل بأمرتنا، والمتقدم على مرصد سيسر، لكنه يقع على تل أقل ارتفاعا من جبل سيسير. كلمت ضابط رصد المدفعية وسألته ماذا يرى من جانبه. فأجابني أن هناك حيوانات تتحرك جنوب فتحة تنك حمام، لكنه لا يرى مع الحيوانات جنوداً، ربما كانت دواب تائهة.

اتصلت بضابط خفر مقر الفوج الثالث الذي يحتل السفح الغربي من تلة المهد، وهو يطل على مضيق تنك حمام، لكنه لا يرى ما خلف الطائرة المحترقة. وفاجأني النقيب عادل مراد بالإجابة على هاتفي المباشر لأنه كان يقوم بواجب آمر الفوج بالنيابة، إذ أنه آمر سرية متقدمة، ولم أعهده في مقر الفوج. عادل كان صديقي، وكنّا زملاء في صف واحد عام 1972، لكنه ذهب للكلية العسكرية، وأنا أخترت الجامعة فباعدتنا المهن، وجمعتنا الحرب بعجائبها. قال عادل: لا تقلق يا صديقي، لينم مقر اللواء ومقر الفرقة والفيلق قرير العين، فنحن نرصد الجبهة ومفتحين بالتيزاب و"شحدة اليوصل يم حدنا"، وضحكنا لأني عرفته كثير الشرب، وفهمت ما في كلامه من تلميحات. وعدت أسأله هل يرى مرصدهم شيئا من هذه الناحية، فقال لي إنّ المرصد منذ عصر اليوم، سجل وجود قطيع خيول يتحرك جيئة وذهاباً عبر تنك حمام، ولا شيء أكثر من ذلك.

شكرته وعدت أحاور مرصد سيسر المستقر أعلى الجبل، فأكد لي الجنود فيه أنهم يرون دواباً تتحرك، وقد استنتجوا من عندهم أن الدواب يرافقها جنود حتماً!أثار هذا الرأي الفطير غضبي، وكلمت جندي الاستخبارات بخشونة لافتاً نظره إلى أن يتوخى الدقة في وصف ما يراه دون اضافات، وطلبت منه مزيداً من الرصد.

بقينا على هذا الحال ساعة كاملة، وعاد ضابط ركن الاستخبارات الرائد الركن ح. من الدورية، فأطلعته على ما جرى، وبقينا نراقب التطورات، حتى اقترب الفجر، فدخل قطيع الخيول التائه حقل الألغام راكضاً، وتساقطت بضعة منه ضحية الانفجارات، لكن الجزء الأكبر منه عبر إلى حوض سربل زهاب، وبقي يلوب في الحوض حتى انسحاب القوات العراقية إلى الحدود الدولية. شرور الحرب طالت الحيوانات والنباتات وحتى المياه.

***

وجهاً لوجه مع إيرانيين لأول مرة

في نيسان 1981 شنت القوات الإيرانية هجوماً من ثلاثة محاور على قاطع عمليات سربل زهاب، وفيما كانت وحداث الفرقة الثانية تتصدى للهجوم على جبل كولينا، كانت قطعات الفرقة الثامنة تتصدى لرتل الهجوم على ألويتها في تنك حمام ووادي آلانة، وكانت لي قصة.

منذ الفجر، ما برحت راجمات الصواريخ الإيرانية الصينية الخفيفة، ومدافع الهاون المحمولة على العجلات وهي من ابتكارات القتال الإيراني، تدك مواقع لوائنا، وظلت القذائف تتساقط على خط الإمداد الواصل بين مقر اللواء وبين الوحدات المنفتحة على السفوح الغربية لجبل زرده، وتلك المسيطرة على فتحة تكتك والمقبرة، وعلى فتحة تنك حمام. هدف التعرض الإيراني كان انتزاع المرتفعات المذكورة من قطعاتنا. فوق ذلك ، ظلت مدفعيتهم الثقيلة تحاول أن تقصف قدماتنا الإدارية فتسقط قذائفها دون تلك المناطق المؤمنة في عمق الجبهات.

عبء المعركة الأكبر يسقط على عاتقنا نحن وحدات المخابرة بشكل خاص، لاسيما رعائل وحضائر المخابرة السلكية والتي ما إن تبدأ المعركة حتى تنطلق لإعادة الحياة إلى الخطوط التي تمزقها القذائف فيما يحاول المقاتلون الاستتار من القصف والرمي من خنادقهم الشقية.

كانت المعارك قد استقرت منذ أشهر، وبات الاعتماد مستمرا على الاتصالات السلكية الآمنة من تنصت العدو، بل أن الوحدات حتى في حال توفر وسائل مواصلات لاسلكية مشفرة، فإنها تفضّل الاعتماد على الاتصالات السلكية تجنباً ًلاستهدافها من قبل مدفعية العدو.

وبقيت أركض مع مفارز التصليح ونحن منهمكون بالعمل مع انفتاح سرية دبابات في قاطع العمليات تحسباً لخرق يحققه الإيرانيون من فتحة تنك حمام التي لا يحرسها سوى حقل ألغام مرّ عليه شتاء مطير كامل.

عدت إلى مقر اللواء نحو الساعة العاشرة صباحاً بعد رحلة راكضة دامت أكثر من 4 ساعات بين القنابل والدبابات والخطوط. كنت منهكاً جائعاً ومتربا من رأسي حتى قدمي. جلست في ملجأي وما إن نزعت عن قدمي حذاء الخدمة "البسطال"، حتى رن هاتفي، فأهملته محاولا أن أغسل وجهي وارتاح بضع ساعات، فالمعركة قد تستمر أياماً ولابد من سرقة ساعات النوم والراحة، لكن الهاتف بقي يرن، حتى أجبته، وقال لي المخابر أن مقدم اللواء يطلبني بسرعة في غرفة الحركات. تراءى لي عالم الراحة مهزوماً، فسارعت ألبس حذائي وخوذتي وأذهب إليه في غرفة حركات اللواء. وفاجأني وجود مسلحين من جنود أفواجنا مع سيارة كاز 66 محملة بمقاتلين إيرانيين معصوبي الأعين في الفسحة أمام غرفة

الحركات. تلقاني مقدم اللواء الرائد الركن نبيل بقامته العملاقة المخيفة مبتسماً بوجه متعب الملامح لعدم النوم وهو يقول:

يا ملهم كن قريبا منا فقد نحتاج لغتك الانكليزية. علينا إجراء تحقيق أولي مع الأسرى لانتزاع معلومات فورية عن المعركة وحجم القوات، وليس لدينا من يتكلم الفارسية، ففكرنا بك وبدكتور علاء الدين (طبيب كردي) ربما تستطيعان محاورتهما. سيقوم عناصر الاستخبارات باطلاعكما على الأسئلة وعلى النموذج المطلوب تعبئته. حاول أن تحصل على أي معلومة منهم دون عنف أو ضرب، وهذا واجب آني ميداني، لأن استجواب واستنطاق الأسرى ليس من واجباتنا بل من واجبات فصائل الاستخبارات في الفرق والفيالق أو حتى المديرية نفسها.

بدأت أقلب النظر في وجوههم، 12 شاباً صغير السن قصير القامة بملابس مدنية وملابس نصف عسكرية وبقيافة غير موحدة، شعورهم طويلة ولحاهم كثة، وأغلبهم ينظرون في الأرض بانكسار. هذه أول مرة في حياتي ألتقي جنودا إيرانيين وجهاً لوجه، بقيت أحدق فيهم، فيما كان جنود الاستخبارات يدونون أسماءهم من أقراص هويتهم. قلّبت مقتنايتهم الشخصية الموضوعة على الطاولة، مسابح وترب، مفاتيح نحاسية صغيرة (عرفت فيما بعد أنها وعد بمفتاح للجنة) مع كراسات دعاء كميل أو كراسات أدعية، وحرز لحفظ الأشخاص، قطع نقود، أوراق نقدية عليها صورة خميني، صور شخصية لعائلات أو لأطفال، خواتم فضية رخيصة. المنظر مؤلم جدا، لكنّ نشوة النصر تزيح مشاعر الألم، فهؤلاء الجنود المسلحون هاجمونا ليقتلونا ويطردونا عن الأرض، لكنهم انكسروا ووقعوا في أيدينا. إنها الحرب، سجال مستمر وتبادل مواقع، وهم اليوم أسرى ونحن المنتصرون.

نظر إلي نائب ضابط الاستخبارات حسين مستغيثاً معلناً عجزه (حضيرة استخبارات لوائنا كانت مكونة من إثنين من نواب الضباط، وعريف و3 جنود، وتنحصر واجباتهم في الانتشار بالمراصد ونقاط السيطرة لضبط المعلومات) وطلب مني أن أكلمهم بالإنكليزية، فيما كان دكتور علاء يحاول أن يكلمهم بالكردية.

حاولت محاورة أي منهم بالإنكليزية، لكن كان واضحاً أنهم لا يعرفون هذه اللغة، فهم في النهاية جنود بسطاء ساقتهم قرارات قادتهم وساستهم إلى جبهات الموت. وعجزت عن أفهم منهم أي شيء، فأعلمت مقدم اللواء بذلك، وخرج الرجل ونظر بيأس إلى الوضع، ثم قال لي" إذن اذهب بهم إلى مقر الفرقة، وأنت يا نائب ضابط حسين نظّم لهم كتاب اخلاء وهاته لأوقعه وخذ معك 4 مسلحين، وحافظ على أيديهم مغلولة بالحبال وعلى أعينهم معصوبة.

أعترض نائب ضابط حسين: سيدي سيارة الفوج تريد أن تعود؟

لابأس أرسل لهم سيارتهم، وخذ سيارة من سرية مقر اللواء، أحد المسلحين يجب أن يجلس في الصدر.

ثم التفت لي قائلاً: ملازم ملهم رافقهم بسيارة صغيرة وخذ معك جندي مسلح أو أكثر. ممنوع الوقوف مهما كان السبب، واذا حاول أحدهم الهروب أطلقوا عليه النار.

بعد دقائق سارت بنا القافلة الصغيرة، وحرصت أن تسير سيارتي خلف شاحنة الكاز التي تقل الأسرى. بالنسبة لي كان هذا حدثاً جديداً ولكنّه يومي وسيصبح معتاداً فالحرب كما يبدو لن تنتهي قريبا، وبالنسبة لهم، انتهت صفحة الحرب وبدأت صفحة الأسر، وقد نجوا من الموت، لكنهم ذاهبون إلى أسر لا يعلمون كم سيستمر. نوع جديد من العذاب والمشقة.

وصلنا الفرقة، وانتهى الأمر خلال دقائق فاستلموهم مني، وعدنا إلى اللواء لتستمر المعركة حتى عصر ذلك اليوم، وتنتهي باندحار الهجوم المعادي، وعودة الوضع إلى ما كان عليه.

***

بدالة روسية 194 سعة اربيعن خط لمستوى قيادة لواء

حرب المخابرة وحرب الاستخبارات

بين المخابرة والاستخبارات بعض الارتباط، لاسيما أن عمل الجهتين يرتبط بالمعلومات، المخابرة تهتم بنقل المعلومات وسرعة إيصالها، والاستخبارات تهتم بجمع المعلومات وتبويبها وتحديد درجات كتمانها. في قادسية صدام كان الصنفان يتداخلان بشكل واضح أحياناً.

مع انطلاق الحرب اكتشف العاملون في صنفي المخابرة والاستخبارات أن المحافظة على أمن البريد العسكري اليومي وأمن الاتصالات تحدٍ لم تحسب "القيادة السياسية" (وهو وصف مؤدب يشير إلى صدام حسين شخصياً بغموض وإبهام) حساباً له، وباتوا يواجهون مشكلة أكداس من البريد مصنفة سري للغاية.

لواؤنا المصنف مشاة جبلي، كان مستقراً قبل الحرب في مدينة راوندوز، وكان بريده الخاص بالفرقة يرسل على أجهزة تعرف ب "سايكرفون" تؤمّن نقل البريد بطريقة مشفرة إلى الفرقة، ويتم ذلك عبر محطات راديو ريلي روسية، كل واحدة منها محمولة في شاحنة زيل كاملة.

مع بداية الحرب، سقط هذا النظام، وبات على معتمدي الألوية والأفواج إرسال بريدهم يومياً على الدراجات والسيارات. ومع اطلالة عام 1981، خرجت مديرية الاستخبارات العسكرية العامة باختراع عتيق، وعممته على الوحدات والتشكيلات في الجبهة، طالبة الالتزام به. الاختراع هو الشفرة العسكرية، وتقوم على برنامج تشفير يدوي بالأرقام ترسله المديرية إلى التشكيلات والوحدات كل شهر، لتعميم العمل به. ونص أمر مديرية الاستخبارات على تخصيص ضابط للقيام بهذا الواجب. ولأنيّ الضابط الأقل قدماً ولكون صنفي مخابرة فقد وقع الاختيار عليّ في تنفيذ هذا الأمر الكارثي. وهكذا فقد خصصوا لي غرفة في مقر بلدية قرية تبه ريش دراويش السابق الذي أضحى مقر لوائنا، وخصصوا لي مكتباً، وجهاز لوكس يعمي نوره الأبصار، ليكون واجبي الليلي المستمر تشفير كل الرسائل المصنفة سري للغاية، وهذا يعني 90 % من البريد اليومي. ومن خلال العمل اتضح أن هذا التحدي صعب جداً وغير عملي. فخلال عمل مستمر لمدة 24 ساعة لم استطع تشفير أكثر من 10 رسائل !!

وهكذا كتبت تقريراً بهذا الأمر إلى ضابط الركن الثالث استخبارات اللواء، وشرحت فيه صعوبات هذا العمل ومقترحاتي لتطوير العمل. وكنت قد قرأت في نسخة من مجلة "ديفينس" الاسترالية حصلت عليها من مكتبة مدرسة المخابرة في معسكر الرشيد ببغداد عن أجهزة تشفير تربط على وسائل الاتصال السلكي واللاسلكي لتضمن عدم سرقة

المعلومات المرسلة على السبل، فضمنت في تقرير مقترح استيراد أجهزة التشفير وتعميم استخدامها على الوحدات. آنذاك لم تكن أجهزة الفاكس وحتى التلكس قد ظهرت، وكان نقل الوثائق والبريد بسرعة المعركة تحدٍ يخضع لزيادة عدد المعتمدين، والذين ثبت في أحيان كثيرة عدم أهيلتهم وكفاءتهم وقلة الاعتمادية عليهم.

وحين قرأ ضابط الركن تقريري، سألني هل يعني هذا أن استخدام الشفرة العسكرية، غير مجدٍ. ضحكت وأجبته أن هذا أسلوب اعتمد في الحرب العالمية الثانية قبل 40 سنة، ونحن في زمن آخر، ثم سألته بجد إن كان رفع تقرير من هذا النوع بهذا المقترح إلى مديرية الاستخبارات العسكرية العالمة، يمكن أن يذهب بي إلى الشعبة الخامسة في الاستخبارات (التحقيقات) سيئة الصيت فيطير رأسي أو ما شابه؟؟

ضحك الرائد الركن ح. وكان تكريتياً قريباً جداً من عائلة صدام حسين، ثم قال بالحرف الواحد" شلون يعني، إذا واحد يقدم مقترح للعمل يطير راسه، خو هي مو ولاية بطيخ؟ أحنا موجودين ملازم ملهم، ما نخليهم ياذونك "!!

وقضيت أسبوعين على هذا الحال، جالس كل الليل، أشفّر الرسائل، وبعضها كانت مستعجلة جداً، فكنت أعيد ترتيب الأولويات، وأقدم المستعجل من الرسائل. ثم حدث انفراج فرضته الظروف، فقد آن الأوان أن أذهب في إجازتي الدورية الأولى بعد 100 يوم من الحرب بلا هوادة، ولمدة 48 ساعة! وهكذا أخبرت ضابط الاستخبارات بضرورة تأمين بديل يحل محلي في هذا الواجب، وكان الاختيار محصوراً بضابط المخابرة الأقدم، ملازم أول ثائر، وهمس في أذني ضابط الاستخبارات أنّ "ثائر زلمة زين، لكن أخاف ما يدبرهه"؟

وبعد أخذ ورد، صار المقترح أن أدربه لمدة يومين، قبل ذهابي في إجازة، على أن أنتظر عودته ليتولى عني تلك المهمة الشاقة. وهكذا جرى تأخير إجازتي يومين آخرين، ليكون بين وصوله وذهابي فاصلة تكفي لتسليمه المهمة الجديدة.

ذهب الرجل في اجازته وعاد وبقيت أدربه، ولابد من القول إن مهامنا كضباط مخابرة كانت كثيرة جداً، لكن جرى تفريغي لهذا الواجب تقريباً لخطورته.

ذهبت في إجازتي الأولى، بغداد تخنقها أزمة المشتقات النفطية، وقد عملوا بطاقات تموين للعوائل، وفرضوا نظام سير الارقام الفردية والزوجية. ولم أفهم من اليومين سوى الركض خلف قنينة الغاز وخلف نفط العائلة، أما البنزين فلم يؤثر عليّ، لأني لم أكن أملك سيارة أصلاً، وهذه قصة أخرى سأرويها فيما بعد.

لدى عودتي من الإجازة، تسلمت مرة أخرى مهام التشفير، الذي بات ماركة مسجلة باسمي، وابلغني م. أول ثائر" هذه أمانتك والله ابدالك، أتعس شغلة".

بعد نحو اسبوعين، جاءت نسخة جديدة من الشفرة، وبات علي أن أتدرب عليها من جديد، وكانت النسخة أكثر تعقيداً وتعيق العمل، فتباطأت أكثر سرعتي في العمل مرة أخرى. وتواترت الأخبار من التشكيلات، بأنّ العمل لا يسير بشكل سلس، ولا بد من حل سريع. وجاء الحل في زيادة مفاجئة بعدد المعتمدين والدراجات، وقلّ الاعتماد على الرسائل المشفرة لتنحصر في رسائل يقرر آمر التشكيل تشفيرها فحسب، وهذا يعني عملياً القضاء على خطة مديرية الاستخبارات العسكرية العامة الخائبة العتيقة.

ومن مفارقات القضية، أن مديرية المخابرة صرفت لرعيل المخابرة الثاني الذي كنت آمراً له دراجتي أم زد صنع ألمانيا الديمقراطية، لتعزيز نشاط المفارز السلكية، لكن، وبمجرد وصولها، أخذها اللواء للمعتمدين الجدد وكان عددهم 3 نسّبوا إلى اللواء. فرّ أحدهم وهو نائب ضابط بعد شهرين من التحاقه بنا، لأنه لم يطق الخدمة في الجبهة فقد كان معتاداً على الخدمة في مديرية الاستخبارات قرب بيته، فيما فرّ الثاني بالبريد والتحق بصفوف العدو أمام أعين جنود اللواء كما مر في قصة أخرى من هذا الكتاب.

***

حربٌ على الكلاب

الحرب شر كُلُها، فهي تقتل الإنسان وتشرّده وتفرّق الأسر، وتهدم الحواضر وتمسخ التاريخ أحياناً، وغالباً هي حرب على كل شيء حي، فلا ينجو منها حيوان أو نبات وتبتلى بها حتى الحشرات والفطريات والمكروبات. وهكذا كانت حرب العراق وإيران.

من أصعب مهام مفارز تصليح الخطوط السلكية، تلك التي تتم ليلاً، حيث أن القطعات تتحرك بدون أنوار، والدبابات مثلاً لا تميز الناس إلا بمستوى نظر زلفها الزجاجية المسلحة (منافذ موشورية صغيرة تؤمن للجندي داخل الدبابة أن ينظر إلى أمام وإلى خلف، وهي لا تغطي مساحة نظر الزوايا والأطراف، لذا يقال إنّ الدبابة عمياء). الأسوأ من ذلك، أن المفارز تتقرب عادة من خلف القطعات وليس من أمامها، لذا تشتبه نقاط الحراسة والمراصد الخلفية أحياناً بوجود تسلل معادي، ويبلغ الخوف ببعض الجنود حد أنهم يطلقون النار على الاشباح التي يرونها خلفهم دون تحذير أو طلب استسلام كما تنص تدابير الحراسة والمراباة الليلية.

وتجنبا لإشكالات من هذا النوع، نبلّغ هاتفيا الوحدات التي ننوي التقرب من خلفها ليلا، قبل ساعة أو أكثر من انطلاق المفرزة، ونفهمهم أنّ مفرزة من 3 أو 5 جنود تتقرب منهم، وعليهم تبليغ الحراس. لكنّ هذا بدوره، يفشل أحيانا، إذ لا يبلغ الشخص المكلف بالتبليغ نقاط الحراسة، أو يتبدل الحرس المبلغ بحارس آخر لا علم له بالأمر وتحصل المفاجأة غير المنتظرة: قطعاتنا تطلق على جنودنا النار !!

ولكن ما حدث ذات ليلة مطيرة باردة في شهر كانون الأول 1980، جاء غير متوقعاً إطلاقاً. فبعد أن أدامت إحدى مفارزنا خطوط الهاتف مع قرية السترة (المرابية على طريق امداد القطعات في حوض سربل زهاب) عادت إلى مقرنا قرابة الساعة الواحدة ليلاً وأثناء اقترابها من خلف مقر اللواء في قرية تبه رش، هاجمها قطيع كلاب متوحش جائع، واضطر أفراد المفرزة إلى إطلاق النار على الكلاب، فأطلق العدو قنبرة تنوير لتكشف المنطقة، واضطر عناصر المفرزة إلى الانبطاح على الأرض كي لا يراهم العدو القريب جداً. فعادت الكلاب تهاجمهم وتنبحهم، فأطلق العدو قنبرة تنوير مرة أخرى، وهو يشك في الأمر، ما أجبر المفرزة على الاستمرار بالكمون، واستمرت الكلاب تنبح. خرجت من ملجأي الوسخ، اتطلع إلى المشهد المضحك المبكي، وسألت عامل البدالة إن كانت مفرزتنا هي المستهدفة، فأكد لي صحة ظنوني، وبقيت اتأمل المشهد والكلاب المسعورة التي ستسبب كارثة لمفارزنا.

وأطلق العدو قنبرة تنوير ثالثة، أتبعها بعد دقيقة بقنبرتي هاون 60 ملم سقطتا ليس بعيداً عن جنود المفرزة. خرج مقدم اللواء على صوت القصف والنباح والرمي، وسألني عما يجري فرويت له القصة، وقال مكتئباً: هذا يعني أن العدو قريب لدرجة أنه سمع صوت الكلاب، وصوت طلقات البندقية! لا بد من القضاء على هذه الكلاب، إنها خطر على مقر اللواء وعلى جنودكم.

بسبب القصف خافت وابتعدت الكلاب، وبعد نحو نصف ساعة، عاد جنود المفرزة وقد نال منهم الإرهاق وابلغوني بقصة الكلاب وضرورة القضاء عليها.

بعد ظهر اليوم التالي، تجمع قطيع الكلاب نفسه أمام المدخل الرئيسي العابر من قنطرة غابة "سهامي" المؤدية إلى تقاطع الطرق الذي يفضي إلينا وإلى وحداتنا، مع وصول سيارة الأرزاق إلى مقرنا. واتصل بي مقدم اللواء، مؤكدا ضرورة القضاء عليها في هذه المناسبة قبل حلول الظلام، لكنّه نبهني إلى ضرورة التريث حتى ينتهي توزيع الأرزاق، ويعود الجميع إلى ملاجئهم، وترحل حافلة الأرزاق عن مقرنا!

بعد ساعة ونصف، خرجتُ لهم ببندقية، ورافقني الصديق الراحل الدكتور جنان، طبيب اللواء وكان من أهل الموصل. كانت الساعة تقترب من الرابعة بعد الظهر، والجو بارد، والسماء صافية، فيما بردت الشمس، حتى عاد نورها كأنه رياح ثلجية تسفح الوجه.

بدأت أطلق النار على الكلاب المسكينة، لم يكن أمامي خيار آخر، فأما أرواحنا وأرواح جنودنا، وأما حياة الكلاب النابحة المسعورة. وقتلت ثلاثة منها، فيما أصيب كلبان آخران في فخذيهما، فجريا إلى الغابة وهما ينبحان متألمين.

تحريت مع دكتور جنان الكلاب القتيلة، فوجدت اصاباتها في الرأس، ثم عدنا إلى مقرنا، وبقيت واقفا معه أمام ملجأ البدالة المحصن، ونحن نراقب غروباً جميلاً يودع الوادي الخصيب. وانهالت علينا فجأة 3 قذائف، تلتها بعد دقائق قذيفتا هاون 120 ملم "يتعلم المقاتل أن يميز القنابل واتجاهها من أصوات انطلاقها، ومن صفيرها، والقنبلة التي تقتلك تصلك غالباً قبل صوتها، فلا تسمعها وأنت قتيل".

ثم ساد هدوء مريب، لنحو ربع ساعة تلاه سقوط 3 قنابر أخرى...وتعالى صراخ من أحد الخنادق داخل قريتنا. انقطع القصف هنيهة، فركضنا إلى مصدر الصراخ. قذيفة هاون 120 ملم سقطت على حافة ملجأ محصن، فقتلت نائب عريف جاسم فرعون، الذين كان محتمياً عند مدخل الملجأ تحت خشبة غليظة من خشب السكة الحديد، وقد ارتفعت الخشبة الثقيلة نتيجة عصف القنبلة، وعادت وسقطت بثقلها ومسمارها المعدني الكبير على رأس الانضباط جاسم فقتلته على الفور. فيما أصابت شظية من القنبلة، العريف المخابر هادي الحلاوي، وهو أحد منتسبي رعيل، في قدمه، فبدأ يصرخ مستغيثاً.

المصيبة الأكبر، أنّه لا توجد سيارة في مقر اللواء في تلك اللحظة، وكان إخلاء الجريح تحدٍ صعب للغاية، حدث ولا حرج عن إخلاء القتيل، فلم أجد بداً أن أخرج دراجة المعتمد النارية بنفسي محاولاً اخلاء هادي بها، لكن المعتمد جاءني راكضاً، يدافع عن دراجته وشجاعته وقال لي أنّه سيخلي الجريح بنفسه، وهكذا جلس المعتمد، وخلفه جلس العريف الجريح هادي، وتحركا إلى مفرزة الميدان المتقدمة، التي تبعد عنا نحو 5 كيلومترات.

وهكذا دفعنا ثمن قتل الكلاب النابحة، قتيلاً وجريحاً، وكانت ليلة رهيبة لف فيها الجميع حزن لا حدود له.

***

قادسية المقدمين- مكانك راوّح!

انطلقت القادسية بعد عام من قرار صدام حسين إشعالها، وكانت بداية الأزمة، البرقية الجوابية التي بعثها خميني رداً على أحمد حسن البكر الذي هنأه فيها بالثورة متمنيا للشعب الإيراني مستقبلا أفضل عام 1979. فخميني وعلى الطريقة الملائية البذيئة تطاول على السيادة العراقية وختم برقيته بالآية القرآنية "والسلامُ على مَن أتبّعَ الهدى" وهي آية تطلق عادة في وجه الكافرين.

حين أشعل صدام القادسية في أيلول 1980، كان عدد كبير من الضباط من دورات 39 ، 40، 41 قد دخلوا رتب القيادة واستحقوا ترفيعات ترفعهم الى مراتب عقداء أو عمداء أو حتى ألوية، لكنهم بقوا يراحون برتبة مقدم، فيما دفع عدنان خير الله الأقل قدماً منهم بكثير 5 رتب مرة واحدة ليصبح فريق أول ركن ! علة عدم ترفيع هؤلاء الضباط هي أنهم لم يكونوا بعثيين، ولكنهم ليسوا محسوبين في صف أعداء البعث، لذا كان القرار في بقائهم في الجيش بمناصب ضعيفة لا تصنع قرارات حاسمة، وإبعادهم عن قيادة الوحدات القتالية الفعالة المؤثرة.

قادسية صدام انطلقت والعراق يملك 12 فرقة، ولواء من الحرس الجمهورية، و3 أفواج قوات خاصة هي ف 31، ف 32، وف 33. وبلغ عدد الفرق التي زجت في المعركة 11 فرقة فحسب (بقياس الملاك العسكري 110 ألف جندي، لكن العدد الحقيقي كان يقل عن هذا الرقم بنحو 20 ألف مقاتل). هذه الفرق لم تكن كافية لسد جبهة واحدة في الحرب، حدث ولا حرج عن كل الجبهات الممتدة على مسافة 1400 كم، لكن الإيرانيين في الحقيقة كانوا بلا جيش وبلا قيادات، ولا توجد لديهم سوى بقايا قوة جوية.

ما إن استمرت الحرب لأكثر من أسبوع حتى شعر صدام حسين ومستشاروه وأركانه بالحاجة إلى تجنيد المزيد، وهكذا صُنعت على عجل تشكيلات ووحدات قليلة التدريب سيئة التجهيز، وبرزت الحاجة عندها إلى تعيين ضباط قادة بمناصب سيادية، فعاد الجيش إلى المقدمين الذين أوقفت ترفيعاتهم لعدم انتسابهم لحزب البعث، ونُصّبوا آمرين وقادة لتلك التشكيلات، كما أطلقت ترفيعات بعضهم. ولابد من الإشارة بوضوح هنا إلى أنّ الترفيعات وتعيين المناصب لهؤلاء الضباط كان يجري دون النظر إلى كونهم شيعة أو سنة، وأعرف ضباطا من صميم البيت الشيعي ومن أعرق العوائل النجفية والكربلائية وقد بلغوا مناصب هامة. المهم في هذا الوضع كان ولاء الجنرالات المطلق لصدام حسين، وهو المحك الذي يحدد أهمية المناصب المسندة إليهم.

لكنّ كثيراً من المقدمين بقوا متجمدين في رتبهم، بعد مرور سنوات طويلة على استحقاق ترفيعهم، وبقيت تسند إليهم مناصب ضعيفة.

من أقدم هؤلاء المقدمين المقدم مخابرة ز.، وهو ضابط من الدورة 38 وقد عملت معه في الأشهر الستة الأولى قبل الحرب، وكان ضابطا لا مثيل له في التكاسل والتقاعس والتهرب عن العمل وهي عناصر تتنافى تماماً مع العسكرية وظروفها الصارمة في زمن الحرب. لكنه كان متفوقاً على كل آمري الألوية الذين عمل معهم بصفته سابق لهم بالقدم بسنين طوال، ومن الناحية الأدبية والقانونية لا يتلقى منهم أوامر. وحين بدأت الحرب، بقي (لا أدري كيف) ممتنعا عن الحضور والالتحاق بوحدته، ثم أحيل إلى التقاعد.

كان مقدم ز. من أهل الاعظمية، وقد تربى في مقاهيها واختلط بالبعثيين وكبر معهم في المدارس وفي الكلية العسكرية، لكنه رفضهم، فرفضوا ترقيته، ومع انطلاق الحرب حُسم ملفه.

وما لبث أن نُسّب إلينا آمراً مقدم آخر من الدورة 41 هو المقدم مشاة ع. وكان من أهل النجف، ولم يكن بعثياً، وحين بدأت الحرب وألحوا عليه أن ينتسب فرفض ذلك، فقد كان منغمسا في التجارة مع والده، وصاحب أموال وأملاك كثيرة، وكان يحسب الأيام ليغادر العسكرية متقاعداً، ويتفرغ للتجارة، لكنّ الحرب شملته، وبقي فيها بمناصب ضعيفة حتى نهاية عام 1981 حيث أحيل إلى التقاعد.

ثم التحق آمرا لسريتنا رائد مشاة ح. من الدورة الخاصة الأولى (دورة نواب الضباط الموس من البعثيين الذين طُوعوا على عجل عام 1963 لصنع ضباط بعثيين في الجيش). الرائد ح. كان مثالاً للفساد والقسوة في وقت واحد، وقد عُين بمنصب آمر فوج فاختلس وسرق من الفوج مبالغ طائلة. وكان بقاؤه في الجيش مرهوناً بماضيه البعثي، حيث كان من عناصر الحرس القومي سيء الصيت، لكنّ شدة فساده حجبت عنه الترفيع مع زملائه الذين باتوا مقدمين وعقداء في صف القادة. بقي الرائد ح. آمرا لسريتنا لمدة 6 أشهر، واستلم سيارة تويوتا سوبر، تقديرا لخدمته العسكرية الجليلة ! ثم أحيل على التقاعد لعدم كفاءته!!

ثم التحق آمرا لسريتنا، مقدم المشاة ج. وهو من الدورة 39 ومن أهل الأعظمية وقد تربى في مقاهي البعث التي ملأت هذه المنطقة التي طالما اعتبرت عريناً للبعثيين والقوميين، وكان قياديو البعث من أصدقائه، وبينهم صباح مرزا المرافق الشخصي لصدام حسين. المقدم ج مع صداقاته لم يكن بعثياً، وهذا كان سبباً مباشراً في حجب ترفيعه، لكني فهمت من جلساتي الخاصة معه أنه لم يرغب بالانتساب إلى البعث رغبة منه في الخروج متقاعداً عن الجيش، وهذا ما جرى، فبعد قضائه ما يقرب العام آمرا لسريتنا، أستحق الترفيع الثاني، أي لرتبة عميد (جنرال)، فأحيل مع هذا الاستحقاق إلى التقاعد براتب عقيد!

الأمثلة التي اوردتها أعلاه، جرت في وحدتي فحسب، وكانت مثيلاتها منتشرة في كل الجيش، وقد حُسمت أغلب هذه الملفات عام 1982، ثم جاءت نكبة المحمرة، فأعادت الحسابات ودفعت اضطراراً بضباط ذوي رتب صغيرة إلى مناصب قيادية بعد منحهم رتباً متقدمة بقرارات رئاسية خاصة.

***

الجبهة هادئة وكارثة في بغداد!

كل أيام الحرب هي انتظار لأسبوع الإجازة الدورية البائس كل شهر، وحين حلت إجازتي في حزيران 1981، كان وادي سربل زهاب ما زالت تدب فيه خضرة الربيع، واستغرقت رحلتي من موضعي في جبهة الحرب حتى بيتي في بغداد ساعتين ونصف. المفاجأة كانت في بغداد.

بعد نحو عام لم تعد الحرب هجمات بلا انقطاع، بل استقرت قطعاتنا وقطعات العدو في مواضع دفاعية متقابلة، وباتت وسائل الإعلام الغربية تتحدث عن "استراتيجيات حرب الأنفاق في الحرب العالمية الأولى" التي تبناها طرفا الحرب، كما تراجع الاهتمام الإعلامي بها، باستثناء راديو مونت كارلو الذي كان يصوغ أحياناً اخباراً مثيرة لكنها لا تغير واقع الحرب ومفردات أيامها.

وهكذا، أمسينا نقضي أيامنا في الجبهة الهادئة في لعب الورق، واقترح طبيب اللواء د. طاهر(اسم رمزي) أن نلعب الورق بمقامرة حقيقية، ففي الحرب لا يخشى المرء سوى أن يفقد حياته، وهذه لن يخسرها بلعبة قمار، فكان شعاره "نقامر اليوم، لنموت غداً" محل تندر جميع الضباط لكنه في النهاية فاز بالجولة، وسادت بينا أجواء المقامرة بلعبة بلاك جاك (واحد وعشرين) السريعة الكريهة.

وحين حلت إجازتي، كنت قد خسرت في مقامراتي السخيفة، 30 دينارا من راتبي البالغ 160 دينارا، وكان الدينار حينها يعادل 3 دولار. وحين وصلت بغداد، تخيلت أن المبلغ الذي معي سيحيي كل أيامي بالأفراح والسكر والتجوال في فنادق وكازينوهات وحانات العاصمة.

ودعاني صديقي عادل، خبير برامج الكومبيوتر الذي يعمل في "المركز القومي للحاسبات الإلكترونية" وهو الكومبيوتر الوحيد في العراق حينها، دعاني وزوجته أنا وصديقتي خ. للعشاء في كافية أنيق بفندق شيراتون الجديد في بغداد.

العاصمة غارقة في أفراحها وأضوائها والحياة أكثر من طبيعية، ولا يرى المرء مظاهر تسلح أو آليات عسكرية في شوارع بغداد، بل يجري كل شيء بهدوء وأناقة. كانت الحرب قضية الضباط والجنود العالقين في خنادقهم الموحلة الوسخة وملاجئهم الساخنة العفنة على جبهات الحرب، أما أهل العراق وخاصة سكان العاصمة فلهم عالمهم الذي بات أكثر انفتاحا وتمدناً. وحين جلسنا في صالة كافتيريا اسبانية بفندق شيراتون بساحة الجندي المجهول في منطقة بستان كبة بشارع السعدون، نسيت تماما أني وصلت يوم أمس من جبهة الحرب،

ونسيت كل قصصها، وانهمكت أقرع الانخاب مع أطراف حفلنا الصغير، ونحن نتجاذب أحاديث مزركشة بالفرح وعبث الشباب.

ومع تطاول الجلسة، انهمكت صديقتي وزوجة صديقي في حوار نسائي يخص الموظفات في دوائر الدولة، فيما انشغلتُ بالحدث مع صديقي عادل، وهو يسألني عن أوضاع الحرب، حتى فاجأني بسؤاله: وكيف استقبلت القطعات العراقية خبر الغارة؟

تصورت أنه يتحدث عن غارات إيران الجوية الوهمية التي تنتهي غالباً بإلقاء الطائرات المغيرة حمولاتها من القنابل والصواريخ بعيداً عن أهدافها، بسبب افتقارهم لمعلومات استخبارية دقيقة حول الأهداف العراقية التي يغيرون عليها، فسارعت أجيبه "يا صديقي إنها غارات للدعاية فحسب، طيرانهم فقير ضعيف، وطائراتهم تفتقر إلى مواد احتياطية وإطارات، وأغلب قنابلهم تنقصها صمامات تسليح، لذا فإن ما يعلنونه عن قيام سلاحهم الجوي بغارات ناجحة على أهداف عراقية مهمة هو ليس أكثر من دعاية رخيصة يخاطبون بها شعوبهم المتذمرة تماما من تطاول مدة الحرب وعبثيتها!

سارع عادل يطفئ سيجارته في منفضة الكريستال الخضراء الأنيقة أمامنا ويتجرع كأسه من الويسكي سراعاً، وهو يقاطعني بالقول هامساً " لا لا ، أنا أتكلم عن الغارة الإسرائيلية"!

صعقني كلامه فسارعت أتساءل: هل قامت إسرائيل بغارة جوية على العراق؟

نظر إلي بذهول، وقال "من حقكم أن لا تعلموا بخبرها فالحرب تشغلكم عن كل شيء، لكن الحقيقة أن اسرائيل شنت غارة جوية على المنشآت النووية العراقية في بغداد، وقد أحسسنا بالغارة لحظة وقوعها، فقد تشوش البث التلفزيوني والاذاعي العراقي لبضع دقائق، كما تعطلت أجهزة الهاتف والخطوط، وشعر أغلب البغداديين بأنّ شيئا جسيما يحدث في العاصمة، ثم توالت أصوات الانفجارات من جهة جنوب بغداد، جسر ديالى وما حولها، وخمنت أنا شخصياً انها غارة على مفاعل تموز النووي في التويثة، وحسبتها غارة إيرانية ولكن اتضح فيما بعد أنها غارة إسرائيلية.

ثم قرّب عادل رأسه مني وبدأ يتحدث همساً "الحكومة لم تعلن في اليوم الأول أي شيء، لكن بياناً صدر في اليوم الثاني عن مجلس قيادة الثورة، تلاه ايضاح من القيادة العسكرية جاء فيه... لحظة واحدة، عندي نسخة جريدة الثورة التي نشرت البيان يوم 9 حزيران، ومد يده إلى حقيبة سامسونايت يدوية سوداء باذخة، ترافقه حيثما ذهب، وأخرج منها عدداً من صحيفة الثورة واعطاني لأقرأ فيها فقرة قد أحاطها بالأقواس بقلمه وجاء فيها:

"يوم أمس الأول، الساعة 1837، قام عدد من الطائرات المعادية بالإغارة على مدينة بغداد، وعلى المنشآت النووية. وعلى الفور، أصبح واضحاً لدينا، أن تلك الطائرات، كانت صهيونية. وقد كشفتها أجهزة الرادار العراقية، وأجهزة الرادار في القطْر الأردني الشقيق،

وبخاصة عند عودتها إلى الأرض المحتلة. آثرنا عدم الاستعجال في الإعلان عن الغارة، لاستكمال كل المعلومات الفنية عنها. وفي الوقت الذي كان يُعَدّ فيه بيان مجلس قيادة الثورة، عصر أمس، أعلن العدو الصهيوني مسؤوليته عن الغارة، فانكشفت الحقيقة كاملة."

صعقت حقا لسماع هذه القصة، وسألته هامساً إن كان يحتمل حصول تسرب اشعاعي سيؤثر على حياة البغداديين، فأجاب هامساً : أستبعد حصول ذلك، وربما لم يكن المفاعل محقونا بالوقود النووي حينها، على كل حال لم تعلن السلطات حصول تسرب شعاعي.

وأدركت المرأتان اللتان أخذهما حديث الوظيفة أننا نتحدث في أمر خطير، فتدخلت صديقتي خ. وهي تعلق: دخلتما في عالم الأسرار، يعني ان حواركما يدور حول النسوان، والا لماذا تتهامسان!؟

ضحك الجمع، وأدركت من جانبي أنهما ترومان تغيير مسار الحديث، ليكون مناسباً لجو البهجة الذي نجالسه، وللتقليل من مخاطر الحديث السياسي في مكان عام مثل هذا، فسارعت اقترح عليهما أن نقوم خلال إجازتي هذه بسفرة إلى بحيرة الحبانية، حيث أن منشآتها السياحية جميلة ويشيد الجميع بأجوائها، وهكذا انتقل الحديث إلى تفاصيل المتع التي تمتد وتنتشر بسرعة في الحياة العراقية، وهو موضوع آمن، يمكن للمرء أن يثرثر بشأنه ما شاء حتى إذا تعته السكر!

***

حروب المخابرة وأعداء المخابرين

في معارك القادسية، أبدع رجال المخابرة وكان لهم قصص بعضها مدعاة للفخر وبعضها مثير للضحك. صنف المخابرة يعرف لدى الجيوش العربية والعالمية بسلاح الإشارة وهي ترجمة عن الإنكليزية لكلمة Signal. ويعد من الصنوف السائدة في الحرب، رغم أنه في صميم القتال.

ما برح عريف رعيل المخابرة الثاني يشكو من حالة غامضة تنتاب خطوطنا الممدودة إلى قرية السترة في البدالة الوسطية، وخطوطنا الممتدة بشكل مباشر إلى أفواج بأمرتنا في مرتفعات كوميشان. وقد بلغ عنده السيل الزبى، فقال لي علناً أنه يشك في وجود تخريب عند منطقة فتحة تكتك، حيث تمر عقد خطوطنا السلكية! علماً أن فتحة تكتك يحرسها فصيل مشاة معزز بمدرعة بيردم !

وهالني هذا الكلام، فتخريب خطوط الاتصال جريمة قد تصل عقوبتها إبان الحرب إلى الإعدام، وهكذا فإن عليّ توخي الدقة قبل الإقدام على إجراء ما بشأن هذا الاتهام. وهكذا تكلمت مع ضابط ركن استخبارات اللواء حول هذه الشكوك، فطلب أن أكتب له كشفاً بالموضوع، لكني أبلغته بضرورة قيامنا بإجراء احترازي قبل الإقدام على كتابة كشف قد يثير ردود فعل غير منتظرة. وهكذا كان، فقد اتفقنا على أن نرسل كميناً ينتظر في المكان قبل حلول الظلام وحتى الفجر لرصد من يفعل ذلك. ولهذا الكمين أخترت ن.ع عماد، وثلاثة من خيرة الجنود، أكدت عليهم بضرورة حمل بنادقهم معهم، والاختباء في مكمن يرون من خلاله اليد التي تتعمد تخريب الخطوط. ولابد من الإشارة هنا، إلى أن أغلب جنود مفارز الخطوط السلكية لا يحملون أثناء الواجب بنادق، لأنها تعيق عملهم وتؤخر حركتهم. وهذا أمر لابد أن تدرسه كليات الحرب للخروج بتغيير لتسليح جنود رعائل المخابرة في الألوية والفرق والفيالق، وتحويل التسليح من بندقية إلى مسدس. بنادق أغلب رعائل المخابرة في الجيش على اختلاف مستوياتها، أنهت حرب القادسية بسنواتها الثمان دون إطلاق رصاصة واحدة!

اتخذت القوة الساعة الرابعة بعد الظهر مكمناً قريباً غير مرئي من النقطة التي تتعرض عقد المواصلات فيها إلى التخريب. وبقيتُ على اتصال هاتفي معهم لمتابعة هذا الأمر الغريب، حيث أن هذه المنطقة تبعد أكثر من 8 كيلومتر عن الحافة الأمامية، واحتمال تسلل عناصر العدو إلى هذا العمق لتخريب المواصلات أو التنصت على المكالمات بعيد وغير محتمل.

بحلول الساعة السادسة، اتصل بي ن ع عماد، وزفّ لي خبر حل المعضلة، كاشفاً وهو يضحك، أن الرعاة الكرد من سكان القرى الإيرانية التي بقيت واقعة تحت سيطرة الجيش العراقي، يعودون من مراعيهم بقطعانهم وقت الغروب، وهناك بعض الخراف والنعاج،

يجذب نظرها اللاصق البلاستيكي الملون الذي نضعه على العقد السلكية، فتقوم بقضمه، وقضم العقدة معه، فتنقطع العقدة ويتوقف الاتصال... جريمة خرفانية من الدرجة الأولى!

وهذا يذكرني بواقعة قام بها الرائد الركن ح. ضابط ركن ميرة اللواء، في إحدى العمليات الصغرى التي نفذتها قوة مشتركة من وحدات اللواء للتعرض للجهد الهندسي للعدو. كان الضابط المذكور خفراً في غرفة الحركات، حين بدأت مدفعيتنا تنفذ ضربات على العدو لتهيئة غطاء ناري للقوة المتعرضة، فشرع العدو بسرعة يرد على قصفنا، وتوقفت كالعادة بعض خطوطنا السلكية مع الوحدات. وكنت قد خرجت قبل العملية، واتخذت موقعاً عند المقبرة على رابية عقدة مواصلات القطعات، كي يتاح لنا متابعة العطلات والقطوع من منطقة أقرب للعمليات. وجاءني هاتف من الرائد الركن ح. وهو غاضب يحمّلنا مسؤولية التخريب المتعمد، ويهدد بأنّه سيرفع كشفاً بذلك! لم أهتم لتهديداته، لأنّ منصبه خدمي، وهو لا يعرف المعركة وظروفها، لكنّ ذهاب ضباط الركن في إجازاتهم، والعملية المفاجئة التي طلبت الفرقة تنفيذها، جعلته مسؤولا عن غرفة الحركات وهو لا يفقه شيئا! وأنهيت المكالمة بالقول إننا نقوم بواجبنا على أكمل وجه، وسيستمر تصليح العوارض حال الوصول إليها.

انتهت العملية بسلام، وجرى تصليح الخطوط، وكان من غريب الصدف أنّ كتيبة مخابرة الفرقة الثامنة وجهت لنا شكراً لسيولة المواصلات أثناء العملية، وهو ما تناقض تماما مع تهديدات الرائد الركن ح.!

ولدى لقائي بالضابط المذكور الذي لم ينفذ تهديه، سألني مستفهماً: لماذا تترك القنبلة أو الصاروخ كل هذه المساحات من الأراضي وتأتي لتصيب خطوطكم السلكية؟ لا يمكن أن أصدق هذا الأمر، هل توضح لي كيف ذلك؟"

أجبته بهدوء: لأن الخطوط السلكية تسير بمحاذاة طرق التنقل والإمداد، ولأن هذه الطرق مسجّلة لدى العدو كأهداف ثابتة، فإنّه يبدأ بقصفها مع كل تحرك أو تعرض، وهكذا تنقطع الخطوط!

رد بلهجة لزجة: بسيطة، ابعدوا الخطوط عن طرق المواصلات والتنقل، مدوها عبر التلال!

اجبته مبتسما:" في هذه الحالة لن نتمكن من متابعة تصليح وإدامة الخطوط بالسيارة أو الدراجة، وهذا سيؤخر إلى حد كبير من عمليات التصليح"!

قال يائسا: لابد من وجود حل، لا يجوز أن تنقطع الاتصالات السلكية مع كل معركة!

قلت له متخابثاً: كتيبة مخابرة الفرقة وجهت لنا كتاب شكر لحسن إدارة المواصلات أثناء العملية، هل قرأته؟

نعم مرّ علي الكتاب، وأحلته لكم، لكن بيني وبينك أقول لك إنّ كلامهم لا يعني شيئاً، فهم يدافعون عن صنفهم، وأنتم ممثلوهم عندنا، يعني "عصفور كفل زرزور واثنينهم طيارة" !

هذا الضابط بالذات، كان من أسوأ العسكريين تعاملاً مع هواتف الميدان الخاصة بنا، فهو يطالب باستمرار بتغيير هاتفه، ويكسر بعض الهواتف، ويشكو دائما أنّ الخطوط المدنية ضعيفة. ولهواتف الميدان قصص لا حصر لها في حرب القادسية.

بدأت الحرب وفي الجيش نوعان من هواتف الميدان، الهاتف الروسي تاي 43 القديم الذي ينتمي إلى الحرب العالمية الثانية، وهاتف الميدان تاي 57 الروسي الذي استخدمته وحدات معاهدة وارشو، وكان بسيطاً خفيف الوزن بالغ الكفاءة في الاستخدام. مع تطور المعارك، دخل إلى الخدمة الهاتف تاي 85 وهو روسي مطوّر عن سابقه ال 57، لكنه كان ضعيفاً كثير العطلات. واضطرت مديرية المخابرة إلى التعاقد مع شركة كندية لاستيراد هواتف الميدان، وهكذا دخل إلى الخدمة الهاتف الكندي تلمنت أخضر اللون، وسرعان ما بدأت تظهر عيوبه، فهو ينفق كثيراً من البطاريات الجافة (3 بطاريات كبيرة، تشتغل أقل من اسبوع) وكان ضعيفاً في مواجهة ظروف المعركة، وخلال أقل من سنة تعطلت كل الهواتف التي سُلمت إلى الوحدات، وأعيدت إلى معامل المديرية وباتت خارج الخدمة.

بعد عامين تعاقدت المديرية مع شركة أريكسون السويدية الشهيرة، واستوردت منها هواتف ميدان خضراء اللون تستخدمها جيوش حلف الناتو آنذاك، لكنّ تلك الهواتف لم تنجح في ظروف المعارك، وسرعان ما بدأت تخرج من الخدمة. ولابد من الإشارة هنا إلى أنّ مشكلة الهواتف الميدانية في الجيش العراقي يقع القسم الأكبر منها على عاتق الضباط، وخاصة كبار الضباط، اذ يروّحون عن غضبهم بألقاء الجهاز اليدوي للهاتف بقوة على الجهاز، ما يؤدي الى كسره، كما أنهم لا يعاملونه باعتباره جهازاً ميكانيكياً، بل ينتظرون منه معجزات. ولو تعاملت سلطات الجيش العراقي مع أجهزة المخابرة كما تتعامل مع السلاح وأهميته، لما تكبد الجيش تلك الخسائر الباهظة ولما عانى من نقص مستمر بأجهزة الاتصال وخاصة بالهواتف.

***

العقارب نواة الاستطلاع العميق

ولدت فكرة العقارب من اقتراح تقدم به أحد ضباط ركن الفرقة الثامنة، بنشر مفارز خلف خطوط التماس في العمق الإيراني للقيام بعمليات فردية نوعية، ولأن قائد الفرقة كان ابن عمة صدام حسين، فقد واقفت القيادة العامة للقوات المسلحة على تشكيل فصيل العقارب.

فصيل العقارب لا ينتمي لصنف معين في الجيش، فهو ليس مغاوير ولا صاعقة ولا قوات خاصة ولا استخبارات، بل خليط من كل ذلك.، ولذلك جرى تعميم كتاب إلى كل وحدات الفرقة الثامنة، بحث المنتسبين جنوداً ومراتب وضباط على التطوع لفصيل العقارب، للقيام بعميات نوعية خلف خطوط التماس.

المفاجأة أن ن ع مخابر مطوع عماد وهو أحد منتسبي رعيل المخابرة الثاني السلكي الذي كنت آمراً له، قد تقدم بكتاب للتطوع على هذا الفصيل، استدعيته وهنأته على التطوع، وسألته إن كان يرى نفسه أهلا لهذه المهام، فأجاب مبتسما "سيدي أنا مطوع، وأي تكريم سينقلني نقلة كبرى في السلك العسكري"، وأبديت تفهماً تاماً لدوافعه، علاوة على أنه كان مندفعاً جسوراً مغامراً غير هياب، وهذا هو عز المطلوب من قوة العقارب.

بعد نحو شهرين صدر امر استخدام ن ع عماد في مقر الفرقة الثامنة، فانفك عن وحدتنا وذهب. بعد نحو 3 أشهر، زارنا ن ع عماد، وقد ترفع لدرجة نائب ضابط درجة ثالثة، أي أنّه قد قفز 6 رتب إلى أعلى خلال هذه المدة القصيرة! وسألته عن هذا الفوز العظيم السريع، فأجابني أن القوة قد خطفت سيارة ماء حوضية إيرانية مع سائقها، ومعتمد بريد مع دراجته وجاءت بكل ذلك إلى قواتنا، فصدر أمر قائد الفيلق بتكريمه وباقي القوة بهذا الشكل. ثم رحل عماد عنّا بلا خبر.

بعد نحو سنة وصلنا أمر بتكريم ن ض عماد برتبة ملازم أول!! لنجاحه مع منتسب آخر بخطف ضابط إيراني برتبة مقدم، وجلبه سالماً مع سلاحه إلى القوات العراقية. ثم لحق ذلك كتاب نقل الملازم الأول عماد إلى مديرية الاستخبارات العسكرية العامة!

وانقطعت أخباره، ثم علمت في عام 1984، بأنه قد نُسب إلى مشروع 999، استطلاع عميق، وما كنت أعرف عن ذلك المشروع شيئا، فسألت الضباط الأكثر قدما، وقال أغلبهم إنه مشروع استخباري لكنهم لا يعرفون عنه شيئاً.

بعد أعوام التقيت النقيب عماد، في نادي الضباط بمدينة الربيعي ببغداد وكنتُ قد ترفّعت تواً إلى رتبة ملازم أول، وهالني كم تغير الرجل، فبات مفتول العضل أنيق المظهر، رياضي رشيق الحركة. وتبادلنا القبل، وجلسنا نتعشى إلى مائدة واحدة وأصر على أن يدفع الحسب، ثم كشف لي ونحن نحتسي كؤوس الطلا أنّ المشروع 999 وتوأمه المشروع 888، ينفذان

عمليـات فـي العمـق الإيرانـي. لكـنّ 999 مخـتص بـإيران، و888 ينفـذ عمليـات فـي إيـران وغيرهـا عبـر العـالم علـى طريقـة الموسـاد! ثـم بـين لـي أنّ هـذين التشـكيلين يعرفـان بأنهمـا وحدات الاستطلاع العميق، ويحظيان بتدريب عالٍ جدا، وتسخّر لهم إمكانات كبرى.

في عام 1988، بات لكل فيلق سرية استطلاع عميق، وكان سبب التوسع أن نهاية الحرب أدت إلى حل التشكيلات والألوية بالجملة فيما عرف بالهيكلة، وهي تقنية إسرائيلية تتيح تعبئة التشكيلات والوحدات عند أي طارئ. ولم يشأ القادة أن يفقدوا تشكيلات الاستخبارات الكبرى التي عملت في الفيالق، فعمدوا إلى استحدث وحدات استطلاع عميق في كل فيلق، نُقل إليها عناصر من مغاوير واستخبارات الفرق المنحلة.

مع غزو الكويت، تحركت هذه الوحدات لدعم مقرات الفيالق ضد عناصر الانتفاضة جنوب وشمال العراق، ولكنها لم تستطع أن تغير المعادلة في كركوك، حيث سقط مقر الفيلق الخامس بأيدي البيشمركة، وأسر عناصر سرايا الاستطلاع العميق وقتل بعضهم، فيما سلم أغلبهم إلى إيران وبقوا في الأسر والتحقيق مدة 13 سنة.

أما عناصر الاستطلاع العميق، من قوات النخبة التابعة لمديرية الاستخبارات العسكرية العامة، فقد قتل أغلبهم في عمليات تحرير العراق عام 2003، ولهذا قصة قد أمر عليها فيما بعد.

لقاؤنا في تلك الليلة، علمني القاعدة التالية، إبان الحرب يمكن أن يُقتل الجندي بسهولة، ويمكن أيضا أن يصبح جنرالاً بسهولة، وهكذا فإنّ عماد قد ترفع في الرتب، لو بقي كل عمره في الخدمة ما كان سيصل إليها، وتفصيل ذلك:

من نائب عريف إلى عريف سنتان.

من عريف إلى رئيس عرفاء سنتان.

من رئيس عرفاء إلى نائب ضابط درجة ثامنة 3 سنوات على أن يكون حاصلا على شهادة الدراسة المتوسطة على الأقل.

من نائب ضابط درجة ثامنة إلى نائب ضابط درجة ممتازة 24 سنة بواقع 3 سنوات في كل رتبــة.

لا يترفع نائب الضابط إلى رتبة ضابط إلا بأمر جمهوري خاص!

كل هذا اختصره النقيب عماد في ثلاثة أعوام، الحرب تصنع معجزات.

***

حرب العقيد الركن دحام راضي العسل

في اليوم الخامس للحرب أعلن العراق من جانب واحد وقفاً لإطلاق النار، لكنّ إيران رفضته، واستمرت بالعمليات، وقد زار مقرنا حينها عقيد ركن قصير القامة مزرق السمرة رياضي البدن، هو بلا شك دحام راضي العسل، وبقي في ذاكرتي وصفه للقصف الإيراني بأنّه "مطر اللوز".

آنذاك كان العقيد الركن دهام من ضباط ركن حركات الفرقة، ودئب على زيارة القطعات في أوقات مختلفة، وهو أمر لم يكن ضباط ركن الفرق والفيالق يقومون به إلا نادراً وبرفقة القادة عادة.

حين ألقي القبض على آمر لوائنا المقدم الركن خلف عليان بتهمة شتم التكارتة وهي شتيمة انسحبت على شخص الرئيس نفسه، وخلا منصب آمر اللواء، نُسّب إلينا بعد أيام قلائل العقيد الركن دحام آمراً للواء بأمرٍ رئاسي رغم أنه لم يكن بعثياً.

كان دحام ضابطاً طموحاً مغامراً، لكن عدم انتمائه الحزبي وسلاطة لسانه ظلت تطارده وتحجب عنه مناصب القيادة رغم كفاءته، فقد تخرج في عام 1962 من الكلية العسكرية العراقية وعمل ضابطاً في صنف المشاة. كما تخرج من الأكاديمية العسكرية الملكية البريطانية "ساند هيرست" ومدرسة مغاوير الجيش الأمريكي. ولكنه كان مجموعة تناقضات في آن واحد، فهو من الموصل، لكنه شيعي وهذا نادر، وهو ليس بعثياً لكنه سليط اللسان وينتقد بلا خوف.

شخصياً كان ينظر إلى منصبه كآمر لواء في بداية القادسية باعتباره بوابة لتوليه مناصب قيادية متعاقبة أخرى، لذا حرص على أن يزج اللواء في معارك حاسمة مع العدو، لكنّ خلال عام من توليه المنصب لم تحصل معارك كبرى، بل تعرض اللواء إلى انهيارات في جبهات سربل زهاب وما حولها، ثم انتهى الأمر باللواء إلى أن تسحب أفواجه لإعادة التنظيم، فيما بقي الفوج الأول منه معاراً للخدمة خارج قاطع الفرقة. وتلى ذلك إعادة مقر اللواء، ليدير قاطع عمليات وهمية في حوض سلسلة كوميشان ممسكاً بفتحة تك تك التي تغذي حوض سربل زهاب من الجانب العراقي، وكان تكليف اللواء في ذلك القاطع، بإلحاق أفواج ضعيفة عارية به هو حماية خط إمداد القطعات، وهو أمر لم يرق لدحام قط، فقد كان يتطلع لدور ريادي.

في تلك المرحلة، التحق باللواء ضابطان، أحدهما عضو شعبة والآخر عضو فرقة، وكانا من نواب الضباط الرفاق الذين منحوا رتبة ملازم، وجرى ترفيعهم بعد عامين إلى رتبة ملازم أول، دون تحديد وظائف لهم في الجيش. الرفيقان قدما للواء وهما يدّعيان أنّ أحدهما

ضابط أمن والثاني ضابط توجيه سياسي، لكن كتاب تنسيبهما لم يشر إلى منصبيهما، وهذا وضع الجميع في حيرة. وبقي الضابطان يشار لهما بالكنية، الأكبر سناً أبو منير، والأصغر سناً والأضخم قامة هو أبو بثينة، ولحظ الجميع أن كل نواب ضباط اللواء يخاطبونهما بالكنية، الرفيق أبو منير والرفيق أبو بثينة، متجاهلين العرف العسكري الذي يلزم نائب الضابط بمخاطبة الضابط بكلمة سيدي. كما دئب الاثنان على قضاء وقتهما في بهو نواب ضباط اللواء، وهو يخالف تقاليد العسكرية، حيث أن للضباط بهو خاص بهم.

كل هذا، جعل من الضابطين الرفيقين موضع تندر من قبل ضباط اللواء كافة، وكان هناك تفاوتاً في المواقف، فنواب الضباط ومراتب اللواء يشعرون أن هذين الضابطين يمثلان نموذجاً يحتذى به ويمكن أن يقتدون به فيصلون مثلهما عن طريق الحزب إلى الرتبة، أما ضباط اللواء باختلاف رتبهم فكانوا يرون فيهما نموذجا للخيبة والفشل، وقد فُرض وجودهما على الجميع عن طريق قرار حزبي غير مدروس رغم جهلهما بقيمة الرتبة لأنهما لم يمرا بمراحل تدريب الضابط.

آمر اللواء العقيد الركن دحام، كان من ضمن المنتقدين، بل إنّه اصدر أوامر تمنع دخولهما إلى بهو الضباط ما لم يتدربا على آداب الطعام والجلوس وآداب المحادثة التي تجمع بين مختلف رتب الجيش في هذا المكان الحساس. وبات يتندر على أكبرهما سنا بوصفه تمثال معروف الرصافي، بسبب كرشه المتهدل.

مضت الأيام هادئة في قاطع سربل زهاب، وهو ما كان يثير حنق آمر اللواء، فقد كان يريد مناسبة تحقق طموحه، لكنه مقابل ذلك كان متكبراً متعالياً دائم الاذلال لمن حوله، بل أنه كان يبدي عدم احترام واضح لهيئة ركنه، وكلهم من خيرة الضباط، وطالما وضعهم مواضع سخرية وتندر لا تليق بمن هو في منصبه، ونجح، بشكل منقطع النظير، أن يصنع لنفسه أعداء من حيث لا يدري، وتوّج كل ذلك، بأرساله سيارة آمر اللواء الرسمية (تويوتا لاند كروزر) إلى بيته في شارع الربيعي ببغداد لجلب ولديه إلى مقر اللواء في جبل سيسر، وكان مراهقان أكبرهما اسمه علي وقد أمضيا نهاراً كاملاً في جبهة الحرب، وصعداً إلى المرصد، وأمر آمر اللواء بأطلاق قذائف مدفعية على العدو إكراما لهما. كل ذلك سجله أعداء دحام الكثيرون، وذات يوم، ليس بعيداً عن هذه الزيارة العائلية، وصلت اللواء سيارتا تويوتا لاند كروزر من مديرية الاستخبارات العامة، أخذتا آمر اللواء ولم يعد بعدها، فقد أحيل إلى محكمة عسكرية لأسباب لم تعلن حينها قط، وصدر بحقه حكم بالسجن مع إحالته إلى التقاعد.

فيما بعد قرأت أنه قد " حكمت عليه محكمه الثورة عام 1981 بالسجن سبع سنوات بتهمة انتقاده سياسة الدولة وتهجمه على القيادة". وهكذا وبعد عام واحد على القادسية، ذهب آمر لوائنا الثاني إلى السجن، وبات الجميع يشيرون بخوف وتهجس إلى لواء 23 المشؤوم!

بعد سنتين، أطلق سراح العقيد الركن دحام راضي العسل من السجن، وأعيد للخدمة، واحتسب له القدم الذي فاته. وأذكر أنه زار مقر لوائنا في قاطع عمليات شرق البصرة بعد سنتين، وأرسل في طلبي إلى غرفة الحركات لأني كنت الوحيد الباقي من ضباط اللواء القدامى، وهنأني بترفيعي إلى رتبة ملازم أول، ثم سألني بإلحاح قلّ مثيله "أريدك أن تقول لي يا ملهم بإخلاص، من كتب عني"؟ و احترت كيف أجيبه، لأني لم أكن أعرف حقاً من كتب عنه، ومثل هذه الأمور لا تجري عادة علناً، بل تجري غالباً عبر الأروقة الحزبية، وطالما كنت بعيداً عن هذه الأروقة المظلمة. وهكذا فقد أكدت له جهلي بمن كتب عنه، كاشفاً له بصراحة أني بعيد عن أروقة الحزب، فهي تخص الرفاق حصراً، ولست منهم، بل غالباً هم يصنفوني ضمن اعدائهم!

وسألني بلهفة: هل هو أبو منير، عندي شك كبير فيه؟

لا أدري يا سيدي والله، وهذا الرجل ليس بيني وبينه أكثر من سلام ومجاملة يابسة غالباً، وقد توفي بعد رحيلك عنا بأسابيع.

وانتهى اللقاء وهو يقول لي أنه سعيد بلقائي، وسيسعى جاهداً لمعرفة من كانوا سبباً في سجنه، ورحل ولم أسمع به أو منه حتى عام 2004 حيث قرأت أنه قد أعيد إلى الخدمة برتبة فريق أول ركن وعين معاوناً لرئيس أركان الجيش، وتوفي في عام 2017 بسبب مرضه.

***

من التدريب إلى الجهد الهندسي المدني

في منتصف عام 1981، دخلت معارك القادسية فترة ركود في الجبهات العراقية الإيرانية على حد سواء، وانهمكت القطعات العراقية بالتدريب وإعادة التسليح والتنظيم، فيما انشغل العراق في تلك المرحلة بمد وتعبيد طرق جديدة لإدامة القطعات في الجبهة، وهكذا احتشد الجهد الهندسي لوزارات الري والإسكان والتعمير والحكم الذاتي في قواطع العمليات لتعبيد طرق عراقية داخل إيران، وكانت لي قصة في ذلك.

بهدوء العمليات، عادت حملات التدريب المملة المزعجة تطل برأسها، ليقع كل ذلك على عاتق الضباط الأعوان (ملازم، ملازم أول ونقيب)، فعليهم وضع المناهج والتوقيتات، وتهيئة ساحات العرض والتدريب، وتهيئة وسال الايضاح والنهوض صباحاً، والذي يسبقه النهوض للإنذار الصباحي الساعة 4 صباحاً، ولا تدري متى تنام بناء على الأوامر العليا. خلاصة ما تعلمته في تلك الحرب، أن اطاعة الأوامر وتنفيذها بحذافيرها ستؤدي إلى موت مبكر وعجز في القلب وتخلف عقلي وعشرات الأمراض الأخرى ! فيومك في المعركة مقسّم بهذا الشكل:

*من الساعة 4 إلى الساعة 6 صباحا الإنذار الصباحي، الجميع بكامل قيافة الحرب وبالبنادق في خنادق القتال.

*الساعة 7.30 الفطور الصباحي.

*طيلة اليوم ليل نهار، نمارس جميعا واجبات المعركة، وبالنسبة لنا، تصليح الخطوط ومد الخطوط، وإعداد البدالات والتناوب في الواجبات عليها، وتغيير الهواتف، وتصليحها، وجمع الأسلاك القديمة ودفن الشبكة في مقتربات المقرات، والعناية بالشبكات السلكية، وتنسيق المواصلات مع الأفواج والوحدات ومع مقر الفرقة.
*الساعة 12.30 وحتى 13.30 طعام الغذاء.

*يعود بعده الجميع إلى واجباتهم.

*الساعة 5 إلى 7 مساء، انذار مسائي كما حال الإنذار الصباحي، ينتهي بوصول وجبة العشاء.

*مع حلول الظلام، توزع نقاط الحراسة، ويجب تنظيم الجنود للقيام بها.

*ينسّب الضباط من رتبة ملازم إلى نقيب للقيام بواجبات ضباط خفر وحداتهم

*يقوم كل الضباط في مقرات القيادة بواجب معاون ضابط خفر حركات التشكيل، من الساعة 11 ليلاً حتى الساعة 9 صباحاً.

يجري هذا السياق على مدار 28 يوماً للجنود، و24 يوما للضباط! وحين تحل المعارك، يتغير كل ذلك ويتزايد الجهد بشكل جنوني.

كيف يمكن لإنسان أن يعيش ذلك على مدى 8 أعوام؟ أعلن هنا بكل صراحة، أن هذه التكليفات كانت شكلية في الغالب، ولم يلتزم بها أحد حرفياً، ومع ذلك كانت مضنية مملة شاقة.

أما التدريب فهو الأسوأ من كل هذا. ومع قيام موجة التدريب، بدأت في قاطعنا عمليات فتح طريق استراتيجي للإمداد يختفي بين السلاسل الجبلية الممتدة طولياً في حوض سربل زهاب، بما يؤمن اختفاء عجلات التموين والإمداد والتعزيزات عن مراصد العدو المعلقة في أعالي وسفوح جبال زرده الغربية.

وكلّفت شخصيا بكتاب رسمي بمرافقة الجهد الهندسي من الساعة 7.30 صباحاً وحتى الساعة السادسة مساء لتأمين الحماية والخدمات اللوجستية له، مع محطتي اتصال لاسلكي، إحداهما معي في سيارتي والأخرى مع القدمة الخلفية للجهد الهندسي داخل الأراضي العراقية بسيارة أخرى، كما يرتبط الجهازان بشبكة اللواء الرئيسية اللاسلكية مع الوحدات لتأمين الاتصال عند الحاجة. كما توجب عليّ أن أشرف على تأمين وايصال الأرزاق والوجبات الساخنة للعاملين في الجهد الهندسي يومياً على امتداد مساحة وزمن عملهم في قاطعنا.

كنت اتنقل بالسيارة كل يوم مع الآليات حسب انفتاحها، وفي ذات مرة، انتبه راصد إيراني إلى حركة آليات الجهد، فأطلق عليه قذائف من تنك حمام، ولم يكونوا يملكون مدفعية ميدان على سفوح زرده الوعرة، بل مجرد هاونات وراجمات صينية محمولة على شاحنات تويوتا لاند كروزر صغيرة من انتاج إيران، وهي أسلحة قصيرة المدى، وتساقطت القذائف دون أهدافها، ولم تتضرر آليات الجهد الهندسي، لكن العاملين عليها ارتعبوا، واشتكوا إلى قيادتهم من الخطر القائم، فأوعزت القيادة العسكرية إلى قيادة الفرقة الثامنة بأن تقوم بتوظيف جنود من كتيبة الهندسة الثامنة للعمل على آليات الجهد الهندسي، وهو ما رفضته الوزارات المعنية حرصاً على سلامة الآليات، وبقي الأمر يراوح بين أخذ ورد، ثم وصلوا إلى تسوية، أن تعمل آليات في المناطق المستورة، وأن تكمل كتيبة هندسة الفرقة الثامنة الطريق حين يصبح مكشوفاً ومعرضاً لرصد وقصف العدو! وهذا ما كان بالفعل، وباتت مناطق الطريق المكشوفة التي نفذها الجهد العسكري هي الأسوأ تعبيدا!

الصعوبات الملحوظة الأخرى، كانت ضرورة استعمال أصابع الديناميت لفتح الطريق في الخواصر الجبلية، وهي عملية تتطلب جهداً في الإعداد والنسيق، ومنع مرور العربات العسكرية في تلك المناطق، الجزء الأكبر من هذا الجهد وقع على عاتقي.

استغرقت هذه المَهمة نحو 3 شهور بشكل يومي، وكانت بالنسبة لي رغم الانشغالات والمسؤوليات الكثيرة، مناسبة عظيمة للعودة إلى القراءة وعالم الكتب الذي ابتعدت عنه لنحو سنتين.

الآليات الهندسية التي شاركت في الجهد، كانت ترنبولات وكريدرات وشفلات وحادلات، تلتها شاحنات تحمل الخابط وهو خليط من الحصى والرمل ويعرف عالمياً بسب بيس Sub Base، ويوضع على الطرق كطبقة تسبق الأكساء بالقير، ثم شاحنات تحمل القير إلى الطريق. كان الجهد المبذول والإنفاق المخصص للعمل خرافي وبلا حدود، ولا أعرف إن كانت إيران تستخدم هذه الطرق اليوم للتقرب للحدود العراقية أو لتمرير صفقات المشتقات النفطية المهربة والعكس، حيث تنشط بينها وبين كردستان العراق في هذه المنطقة.

***

بدالة روسية 198 سعة مائة خط لقيادات الفرق

أنزع كرامتك فأنتَ في بيت العسكر!

وهذا ليس من عندي، بل أول شعار سمعته من ن ض خليل حين اجتمع بنا في مقر الفصيل 13 السرية الثالثة كلية الضباط الاحتياط. وكنا قد سمعنا جميعاً قبل لقائنا به المزحة المريرة "خريج مريج يشرب بالبريج"، فمسحنا بيدنا على الباب النظام، كأننا نتبرأ من كرامتنا!

تفسير ذلك، أنّ خريجي الجامعات وبعد سنوات الترف والدلال في كلياتهم، يدخلون كلية الضباط الاحتياط، وعليهم أن يمضوا فيها سنة كاملة، لينالوا بعدها دبلوم عالي علوم عسكرية، ورتبة ملازم بقرار من وزير الدفاع وليس من رئيس الجمهورية، وكأنّ رئيس الجمهورية ينأى بنفسه أن يدنس قراراته بالضباط المجندين.

واعتدنا بعد سنوات الخدمة المتطاولة أن نسمي أنفسنا مع بعضنا "ضابط مجمد"، لأنه لا يعود إلى الحياة المدنية ولا يتمتع بمزايا الضابط الدائمي، وحين أقول سنوات الخدمة المتطاولة فأنا أعني الوصف حرفياً، فقد خدمتُ أنا ومن هم في دورتي 10 سنوات متصلة، وبلغت رتبة نقيب، وفي غزو الكويت نلت رتبة رائد.

ولكن قبل كل ذلك، انتقلت من عالم الكرامة والتأهيل الأكاديمي الرفيع، إلى عالم الجيش الذي كانوا يصفونه بأنه بلا كرامة، وكي أكون أمينا، فإنّ هذا الوصف يصدق على الجندي وليس على الطالب المتأهل ليكون ضابطاً، فالأخير له كرامته، لكنّ خشونة العسكرية تصدمه عادة، وهذا ما وجدناه.

آمر كلية الضباط الاحتياط حين دخلتها كان اللواء فايق الحاج أسود، ثم تولى المنصب العميد الركن محمد رياض الحلاق (لاجئ سياسي سوري)، الكادر التعليمي الذي دربنا هم النقيب ليث السامرائي، آمراً للفصيل، ن ض خليل معاون آمر فصيل، عريف هادي عريف الفصيل وآمر الحضيرة الأولى، ن ع معد آمر الحضيرة الثانية، ن ع عبد القادر آمر الحضيرة الثالثة، ن ع يوسف آمر الحضيرة الرابعة. كلهم خريجو مدرسة ضباط صف المشاة في الموصل، فيما كان آمر السرية الرائد ياسين الأعظمي السامرائي.

بالنسبة لي كان عالم الجيش والأوامر والعلوم العسكرية غريباً مهيباً مريراً غامضاً، وكنتُ، ومثلي باقي التلاميذ، أنظر بحسد إلى شلة الضباط وهم يدخلون ساحة العرضات (ميدان التدريب) وعلى أكتافهم تلمع النجوم، وفي أيديهم تتأرجح العصي.

البندقية التي واجهتني كانت باردة وثقيلة، لكن بعد شهر من التدريب صارت تبدو خفيفة الحمل جداً، و آمر حضيرتي نائب العريف عبد القادر الموصلي النحيف كان كابوساً مرعباً

بالنسبة لي، أما نائب ضابط خليل، فمخاطبة آمر الفصيل أسهل من مخاطبته، وحين يصل الأمر إلى آمر الفصيل النقيب ليث، فكانت محاورة رئيس أركان الجيش أقرب إلى خيالي من مكالمته، وقد أنهيت خدمتي في كلية الاحتياط ولم أكلمه أو يكلمني شخصياً.

كل شيء في الجيش يعلمك كيف تنزع نفسك من عالمك وتنتمي إلى عالم الحرب والشدائد، وللأمانة أقول هنا إن كلية الضباط الاحتياط كوحدة عسكرية كانت من الوحدات الأكثر نزاهة والأقل فساداً التي خدمت فيها. ويبدو أنّ رقابة السلطات العليا كانت مستمرة وشديدة على الكلية لتخريج ضباط ميدانيين سيكونون وقوداً لحرب القادسية ولغزو الكويت!

نقلني الجيش من منطقة الفوضى الوجودية الثورية اليسارية المطلقة، إلى منطقة النظام العسكري المحافظ اليميني الصارم وزرع في نفسي روح العسكرتاريا وهو ليس وصف مهين كما يقترح بعض اليساريين. وللأمانة، فإنّ قدرتي على الانتاج والجهد المفيد اكتسبتها من الجيش ونظامه الصارم الذي حررني من أوهام اليأس الوجودي اليساري الذي كان يجتاح الشباب.

يومنا يبدأ في السادسة والنصف صباحا، يتجمع الفصيل وسط صرخات "انهض" التي تقصفنا من أفواه ضباط الصف، نكون قبلها في السادسة قد استيقظنا وحلقنا وجوهنا ولمعنا أحذية الخدمة، وحين يصرخ انهض، نلبس بدلة العرضات وحذاء الخدمة، ونجتمع كفصيل (60 تلميذا) في حديقة مقر الفصيل.

نخرج مهرولين إلى مطعم الكلية وهو مكان نتن وزفر الرائحة باستمرار، فنأكل كعكاً لياً كأنه جلد حذاء جديد وشاياً وحليباً، أو شوربة عدس أو ماش، والأكل بالعد، يعني العريف يعد من 1 إلى 10 حيث يجب أن تكون قد أكلت كل شيء، والا ستخرج إلى التدريب جائعاً.

بعد الفطور الأول، في السابعة وحتى السابعة والثلث رياضة صباحية، وبعدها عودة إلى مقر الفصيل، استلام السلاح من المشاجب، والعودة مجتمعا إلى ساحة العرضات، حيث تفتيش معاون أمر فصيل، ثم تفتيش آمر فصيل، وأحيانا تفتيش آمر السرية، وفي أحيان قليلة، يطلب آمر الكلية أو آمر جناح التدريب تفتيش أحدى السرايا أو الفصائل، وهي مناسبة تنتهي غالباً بعقوبة جماعية لسبب مجهول!

في تمام الساعة الثامنة ينادي آمر الكلية "سرايا داوم بالتدريب للساعة الأولى حسب المنهج"، فتتفرق السرايا إلى فصائل والفصائل إلى حضائر ويبدأ التدريب. حركات التدريب والتحية العسكرية والمسير ثم السلاح وحركات السلاح والتحية بالسلاح، وخلالها تراشق الأوامر وكيفية اصدار الأمر" أيعاز- إجراء" يعني حين تقول استعد ! تقولها هكذا:

فصيل ل ل ل ل ل ، استا ا ا ا ا ا عد!

وهكذا، وأصعب الأوامر كان إيعاز الوقوف وايعازات حركة الفصيل والسرية بالغة الصعوبة، حيث تنتقل الحركات والأجنحة بدقة الأوامر.

ثم بدأت مرحلة السلاح وتمارين السلاح، وشملت البندقية كلاشنكوف، المسدس ماكاروف، الرشاشة ار بي كي، القاذفة آر بي جي، الرمانة اليدوية الروسية الهجومية والرمانة الدفاعية.

في الساعة العاشرة والنصف ينتهي التدريب، حيث تعود الفصائل إلى الثكنة بعد تسليم السلاح إلى المشاجب، ثم تذهب الفصائل إلى الفطور الثاني (جبنة أو قيمر البان مع حليب وشاي وصمون عسكر(شعير) ساخن طازج، وكانت بالنسبة لي أهم وجبة في اليوم) ثم تتجه الفصائل في الحادية عشرة إلى قاعات الدرس بعد أن يدوي بوق الدروس وقد ترجم التلاميذ لحنه إلى: "طب أدرس، طب أدرس" فتتوزع الفصائل على قاعات الدرس، ويصطحب التلاميذ معهم الكراسات والكتب والدفاتر. تشمل الدروس، التخطيط، التعبئة، التاريخ العسكري، الجغرافية العسكرية، الحرب الكيماوية، الهندسة العسكرية، التوجيه السياسي. وكانت مقاومة النعاس أصعب ما يوجه التلاميذ، ومن ينم يواجه عقوبة الركض حول ساحة العرضات في الساعة الثالثة أو الرابعة ظهراً من أشهر الصيف!

تنتهي الدروس في الساعة 13.30، ثم تذهب الفصائل مجتمعة بشكل كراديس إلى المقصف، البهو أو المطعم، حيث نتناول الطعام، وكلنا نتندر أنهم يجلبون لنا لحم "كنغر" لأنّ العظام كانت كبيرة جداً وشكلها غريب، ولكن شدة التدريب تجبرنا أن نأكل كل شيء، وعموما كان الأكل سيئاً جداً من ناحية الطبخ ومن ناحية حصة الفرد، وربما كان هذا الأمر الجانب الأسوأ في الكلية.

في الساعة الثانية والربع تعود الفصائل إلى الثكنات، لاستراحة طولها ساعة. وكانت عبارة عن ركضة للتهيؤ لما تبقى من اليوم.

في الساعة الرابعة تخرج الفصائل مجتمعة بملابس الرياضة إلى الرياضة المسائية، ثم تذهب بعدها إلى قاعات الدرس للمذاكرة المسائية الإجبارية ولكن بالحذاء الخفيف وبالقيافة الداخلية وليس بحذاء الخدمة وقيافة العرضات. في السادسة والنصف تنتهي المذاكرة المسائية، وتعود الفصائل لاستراحة قصيرة تخرج بعدها في السابعة إلى طعام العشاء في البهو.

في الساعة السابعة والنصف تعود الفصائل إلى الثكنات، ويبدأ التهيؤ للتعداد المسائي. في الثامنة مساء يدوي بوق التعداد، فتخرج الفصائل مجتمعة بقيافة التدريب إلى ساحة العرضات، وتصطف كما هو الحال في التعداد الصباحي، ويجري التعداد وأحيانا تصاحبه عقوبة جماعية لكل الكلية أو لبعض الفصائل أو السرايا، ثم يعود الجميع إلى الثكنة

لاستراحة تصل إلى ساعة، وفي الساعة 9.30 يدوّي بوق النوم، ويجب أن يسارع الجميع إلى تغيير ملابسهم والدخول إلى الفراش وإطفاء النور، وإلا فالعقوبة صارمة.

من أسوأ ضباط الخفر ضابط من أهل الدور اسمه هذال! اللؤم متأصل في نفسه، في ذات يوم ساخن من أيلول عاقب تلامذة الكلية مجتمعين بالهرولة حول الكلية لمدة ساعة كاملة. 1200 تلميذ ومعهم ضباط صف يهرولون كالحصن لأنّ نقيب هذال كان سكراناً ولم تعجبه حركاتنا!

بعد أسبوعين، كرر نفس الفعلة في خفارته، مضيفاً إليها إبقاء الكلية مجتمعة بوضع الاستعداد لمدة ربع ساعة!

وكانت النتيجة شكوى تقدم بها الجميع إلى هيئة التوجيه السياسي، لكنها لم تحقق شيئا، فالنقيب اللئيم القبيح (أشقر أبرص بعيون خضر بلا أهداب، قصير القامة محدب الساقين ولا أدري كيف قبلوه ضابطا)، هذا النقيب كان من أقارب عزة الدوري، وهو يشبهه لكن بنسخة مصغرة، وبذا فإن الشكاوى لم تغير شيئا.

بين كل هذا الجحيم اليومي، كنت وأحد الزملاء واسمه نائل من أهالي كركوك، بين الرياضة والمذاكرة المسائية نذهب بترمس أنيق إلى سياج ساحة العرضات الملاصق لقاعدة الرشيد الجوية، وننادي جندي حانوتهم، فيملأ لنا الشاي لقاء 100 فلس، فنكون قد حققنا مكسباً رهيبا يعيننا على تحمل آلام الدروس والمذاكرة. الشاي كان حلماً وكذلك التدخين، كنا نرشف كؤوس الشاي وأدخن أنا وندندن بصوت واطئ بأغاني فيروز! فيروز في كلية الضباط الاحتياط، تحدٍ بصوت خافت!

كل تلميذ كان يتقاضى راتبا شهرياً قدره 35 ديناراً، وهو مبلغ كبير آنذاك، حيث كان راتب المعلم في بداية تعيينه هو 18 ديناراً.

وهكذا عشنا جحيم التدريب لنحو عام كامل، كانت أصعب فقراته تلك التي بدأنا بها منذ 3 آب 1979 وحتى نهاية العام. وبعد 6 كانون الثاني 1980، أجريت لنا قرعة الصنوف، وحصل كل واحد على الصنف الذي اقترعه، وكانت القرعة نزيهة إلى حد كبير، وجرت بأشراف هيئة عسكرية عليا، لكنّ المفضلين حظوا بصنوف مختارة خارج القرعة.

في مدارس بعض الصنوف، خفّت الشدة إلى حد كبير، لكن تلاميذ المشاة والدروع كانوا الأسوأ حظا بيننا، وعانوا بشدة حتى في مدارس الصنوف، ولهذا قصة أخرى.

***

العقيد الركن سلطان هاشم آمر لواء العالي

دخلنا قاطع سيسر في سربل زهاب لنبدل اللواء الخامس الفرقة الرابعة مشاة جبلي (والمعروف بالعالي)، وهناك التقيت لأول مرة آمر اللواء الخامس العقيد الركن سلطان هاشم أحمد.

يعد اللواء الخامس مشاة جبلي من خيرة تشكيلات الجيش العراقي وأقدمها، وأطلقت تسمية العالي أصلا على الفوج الثاني منه لأنّه كان مكلفاً بحماية الملكة عالية خاصة إبان اقامتها في القصر الصيفي بمصيف سرسنك بمدينة دهوك، ثم عمت التسمية اللواء برمته. هذه هي القصة التي سمعتها عن هذا اللقب، وقد لا تكون دقيقة.

في ملجئين للهندسة العلامة 3 شكّلا غرفة حركات اللواء الخامس التقيته أول مرة، مع هيئة ركنه في ربيع عام 1981، وكان بشوش الوجه مضيافاً دائم الأسئلة، وتوجه لي على وجه الخصوص بالسؤال عن صفتي، وعن مسؤوليتي، هل هي المواصلات السلكية أم اللاسلكية؟ وفي ذلك اليوم كان ضابط المخابرة الأقدم الملازم أول ثائر في "مأمورية" لذا لم يرافقنا، فطلب مني العقيد الركن سلطان أن اتسلم الشبكات السلكية واللاسلكية لتصبح ضمن قاطع مسؤوليتنا، واعداً بأن يبقى مخابرو لوائهم معنا حتى الغد كي يدلونا على مسارات الخطوط والشبكات اللاسلكية، وهذا ما كان بالضبط.

لفت نظري أنه رجل متواضع، متفائل دائم الابتسام، واثق من نفسه بشكل كبير، وروى عنه جنوده أنه متدين يحترم مشاعر الجنود والضباط ولم يسمع قط صوته مرتفعاً بالصياح على أي أحد، وهذا نادر جداً.

كان يلبس بدلة دروع خضراء اللون، ورغم كرشه الكبير نسبياً فإنّه كان دائم الحركة واضح النشاط، وما برح ضباط وجنود اللواء يشيدون به، بل سمعت من ضباط مخابرتهم، أنهم في اليوم الذي سينقل فيه العقيد الركن سلطان هاشم من لوائهم، سيسعون أنفسهم للنقل إلى وحدة أو تشكيل آخر.

هذا النوع من المحبة والود والألفة نادرة جداً في صفوف الجيش، لكن ظروف المعارك، تخلق مشاعر من هذا النوع.

وحين التقينا نظرائنا من ضباط ومراتب المخابرة في لوائهم، خرجوا معنا في جولات استطلاعية في قاطع اللواء ليدلونا على العقد السلكية وممرات الأسلاك، مؤكدين أنهم قد نجحوا في مد كابلي ميدان إلى الفوجين المتقدمين على تلة المهد، عند فتحة تنك حمام، ما يجعل الاتصالات أفضل، ومستوى الصوت أكثر صفاء وارتفاعا. وفعلا استلمنا منهم كابلين يصلان إلى الفوجين، لكن رئيس عرفاء عداي الذي كان عريف الرعيل السلكي، قال لي

همساً إنّ الكابلات غير مفيدة في الاتصالات مع الوحدات المتقدمة، لأنّها تنقطع إسوة بالخطوط السلكية، ولكن إصلاحها أصعب وأكثر تعقيداً من إصلاح الخطوط السلكية، وخاصة في ظروف الرؤية السيئة والظلام حيث تجري عمليات تصليح الخطوط ليلاً لتجنب قناصة العدو وقصفه. وافقته الرأي، ولكن ما باليد حيلة، فعلينا استلام الشبكة كما هي، وهكذا فعلنا، وبالفعل كانت خطوط الفوجين المارة على الكابلين سيئة جداً لدرجة أننا اضطررنا إلى تبديلها فيما بعد بخطوط سلكية، ابتداء من خروج الشبكة من فتحة جبل سيسر المطلة على حوض سربل زهاب وصولا إلى فتحة تنك حمام.

الحديث عن سلطان هاشم الأحمد، وهو خريج الدورة 39 كلية عسكرية، يجرنا إلى الحديث عن تراتبية المسؤولية والقيادة في الجيش، والتي تتيح إصدار وتنفيذ الأوامر وتوزع الصلاحيات، وقد تدخل حزب البعث وقادته في هذا النظام الانكليزي فأضافوا إليه حلقة اسموها "التنظيم العسكري" وترتبط بالمكتب العسكري وهو أعلى سلطة حزبية بعثية في الجيش، ويقود نظرياً هذا الجيش، وإبان الحرب، كان عزة الدوري شخصياً يقود المكتب العسكري. هذا الإقحام أساء إلى حد كبير لقيم العسكرية العراقية الموروثة عن الحكم الكولونيالي البريطاني في العراق.

تراتبية المسؤولية تعني أن الأوامر تصدر عن سلسلة مراجع، وتنفذ من قبل سلسلة مراجع أدنى، وتقسم رتب الضباط إلى:

*أعوان - من رتبة ملازم إلى رتبة رائد.

*قادة - من رتبة مقدم إلى رتبة عميد.

*أمراء - من رتبة لواء إلى رتبة مهيب.

*أما شارة الركن فيرمز لها بشريط أحمر على الكتف، وتدل على حصول الضابط على شهادة ماجستير علوم عسكرية، وذلك بعد اتمامه سنتين ونصف في كلية الأركان .

*هناك شارة الحرب، التي تدل عليها قطعة جلدية فيها ما يشبه الوسام، توضع على جيب البدلة العسكرية فوق القلب، وتدل على شهادة الدكتوراه، وفي الجيوش العربية يقال لحاملها مثلا "اللواء أركان حرب"، بمعنى أنه حاصل على الماجستير والدكتوراه، أما في الجيش العراقي فلم تستحق تسمية رسمية، وذلك لتعاقب الحروب وإقالات وطرد الضباط المستمر، وعدم قدرة القائد العام للقوات المسلحة "صدام حسين" على حملها دون الحصول على شهادتها، مع انّه منح نفسه رتبة فيلد مارشال ركن، وهي أرفع رتبة في العالم دون أن يخدم في الجيش يوماً واحداً، وفي هذا حيف مبطن شعر بها كل من بذلوا دمهم في حروب العراق المستمرة!

وترتبط هذه الرتب والوصول إليها باعتبارات كثيرة منها الاستحقاق، والسيرة، ووجود شاغر في الملاك، وهذا يحدث عادة منذ منتصف رتب القادة.

وحتى قيام حرب القادسية حصل العقيد الركن سلطان هاشم أحمد الطائي على استحقاقه من الترفيعات:

إذ تخرج من الكلية العسكرية عام 1964 م ومن كلية الأركان عام 1976 م.

انخرط في دورات عسكرية في الاتحاد السوفيتي السابق والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية، كما عمل مدرساً في الكلية العسكرية.

وعشية قيام نوايا الحرب في عام 1979 بعد قيام ما عرف بالجمهورية الإسلامية في إيران بات ينظر اليه كقائد محتمل للجيش، وفي عام 1980 عين العقيد الركن سلطان هاشم أحمد آمرا للواء المشاة الخامس في الفرقة الرابعة، ثم رقي في المناصب إلى قائد للفرقة الرابعة، ثم قائد للفيلق الخامس ثم الفيلق الأول خلال الحرب العراقية الإيرانية 1980 – 1988 م.

ترأس الوفد العراقي خلال مفاوضات وقف إطلاق النار مع قوات التحالف عام 1991 م خيمة صفوان.

شغل منصب معاون رئيس الأركان للعمليات حتى عام 1993 م.

عين في منصب محافظ نينوى عام 1994 م.

في عام 1995 م عين بمنصب رئيس هيئة الأركان العامة.

في عام 1996 م عين بمنصب وزير الدفاع ليصبح عضواً في القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية، وبقي في منصبه حتى اسقاط نظام صدام حسين في 9 نيسان 2003، وكان ذلك سبباً لمشكلته الكبرى التي ابقته سنوات طويلة خلف القضبان.

منذ عام 1981، ارتقى بالرتب بشكل صاروخي، مختصراً جداول ترفيع كثيرة لأنّ صدام حسين كان ينظر إليه باعتباره من أكفأ قادة الجيش، وهذا الجانب يتفق عليه أغلب ضباط الجيش العراقي آنذاك، حتى قيل أنّ وزير الدفاع الأسبق عدنان خير الله كان يخالف صدام حسين في تقييمه لضباط الجيش لكنه يشاطره الرأي بشأن سلطان هاشم.

إبان عمليات تحرير العراق التي توّجت في 9 نيسان 2003 بإسقاط نظام صدام حسين، كان الفريق أول الركن سلطان هاشم الأحمد يشغل منصب وزير الدفاع منذ سبع سنوات، وقد منحته قوات التحالف الدولي الرقم 27 على أوراق اللعب المطلوب القبض عليهم من أركان نظام صدام حسين، لتحديد عمليات الانتقام ولمنع حمامات دم بسبب الأحقاد التي تراكمت في قلوب العراقيين على نظام صدام والبعث (كما جرى تسمية القادة النازيين بعد

اسقاط هتلر ومحاكمة وإعدام 53 منهم في محاكمات نورنبيرغ الشهيرة، رغم أن أحكام اعدام قد صدرت عن نفس المحكمة بحق عشرات غيرهم، لكن لم يجر تنفيذها غالباً تجنباً لسفك المزيد من الدماء).

في 19 أيلول/ سبتمبر 2003، وبعد مفاوضات طويلة استسلم الجنرال هاشم إلى القوات الأمريكية في الموصل، وتحديداً إلى الفريق أول الركن ديفيد بيترايوس قائد الفرقة العاشرة المحمولة جواً الأمريكية والذي منحه تعهداً بإجراء محاكمة عادلة بحقه. وقد تسلمته القوات الأمريكية بمنتهى الاحترام، ووعد بترايوس بإسقاط التهم الموجهة له، ووعده برفع اسمه من أوراق اللعب سيئة الصيت بسبب التأييد الشعبي الذي يحظى به في الجيش وخارجه. لكن الوعود ذهبت أدراج الرياح في ظل تصاعد العمليات الانتقامية وانتشار الطائفية في العراق منذ عام 2005، ما أخّر إطلاق سراحه وأبقاه رهين الحبس حتى ساعة كتابة هذه الكلمات.

***

مع صدام حسين على مائدة الطعام!

جرى ذلك في مطلع صيف عام 1980 قبل اندلاع حرب قادسية صدام ببضعة أشهر، كان يوماً معتاداً في مقر لواء 23 بضاحية مدينة راوندوز، استيقظت صباحاً وخرجت بالسرية للتدريب، بعد نحو ربع ساعة، جاءني انضباط مقر اللواء وهو يبلغني أن أذهب إلى مقدم اللواء، ذهبت إليه فأخبرني بأنّ زائراً هاماً جداً سيفد إلينا، وعلينا أن نهيئ الوحدة للزيارة.

دبت حركة غير اعتيادية في وحدتنا، الجميع ينظفون ويرتبون، وحضيرة انضباط اللواء وقفت مع المبوّق بأبهى صورها، وكل الأجزاء البيضاء في قيافتهم قد جرى تشميعها بالطباشير فباتت شديدة البياض. بعد ساعتين من الاستعدادات، لم يصل الزائر المنتظر، وابلغت أن أوزع مفرزتي رشاشات خفيفة على بيوت قرية كاولوك التي تنصّف الطريق بيننا وبين راوندوز لحماية الزائر المنتظر. كنت في السرية وحدي، آمر السرية المقدم زكريا مجاز، ضابط المخابرة الأقدم في دورة بمدرسة المخابرة، الضابط الإداري في بغداد لاستلام مواد من العينة، آمر الفصيل الكيماوي في فرضية تدريب مع فصيله، وهكذا وقع كل العبء عليّ. ذهبت بالمفرزتين، وازعجت سكان البيتين بطلبي أن أضع رشاشات وجنوداً فوق أسطح بيوتهم !

أغلب من في السرية يتوقع أن يكون الزائر قائد الفيلق، لكن لا أحد بوسعه أن يجزم. بهو الضباط أعد ذبيحة كاملة على شرف الضيف دون أن نعرف مستواه أو متى يصل، لكن كان ذلك إجراء احترازيا، وتطاول الانتظار، حتى قاربت الساعة الثانية ظهراً، ثم دخل رتل سيارات تويوتا لاند كروزر وشاحنات تويوتا هاي لُكس دبل قمارة مدنية، ومعها سيارة لاند كروزر واحدة عسكرية إلى مقر اللواء، وسارعنا نحاول استقبال الضيف، فأنتشر عناصر حماية يقودهم م.أول أرشد ياسين! وهكذا عرفنا أنّ الزائر هو صدام حسين، وقد زارنا وهو يرتدي بدلة نقابية خضراء اللون، وقد تمنطق بصف رصاص جلدي أسود اللون فوقها، وتدلى مسدسه البراوننك المعتاد فوق فخذه الأيمن، وعلى رأسه يضع كوفية حمراء، ومعه مجموعة من أقاربه كلهم بالملابس العربية، وقد تمنطقوا بأحزمة الرصاص، كأنهم أمراء خليجيون خرجوا إلى الصيد في البادية ويحملون بنادق انكليزية. انطباعي الأول أنهم خرجوا إلى الصيد، ثم عنّ لهم أن يزوروا لواءنا لسبب ما، ثم تأيّد صدق حدسي فيما بعد.

آمر لوائنا آنذاك كان المقدم الركن خلف العليان، وكان في إجازته الدورية، وكذلك غاب كل ضباط الركن أما في إجازاتهم أو في مأموريات باستثناء مقدم اللواء رائد ركن حميد، ومن سرية مقر اللواء كنت أنا الموجود فحسب، وقد سبب لنا هذا الوضع، حرجاً فجرى على عجل استدعاء ضباط الفوج الأول المستقر في حامية راوندوز الملاصقة لنا.

وطوّق عناصر الحماية مقر اللواء "بناية قديمة لمخفر انكليزي"، ومنعوا دخول أي شخص له، وتقدمت لهم وقلت لهم أني الضابط الوحيد في سرية مقر اللواء التي يزورها السيد الرئيس، ولابد أن أدخل لأكون في استقباله ولألبّي ما يطلب، لكنهم رفضوا، ثم نادوا ضابطاً من عندهم برتبة ملازم أول، فسألني عن اسمي وصفتي وأخبرته بالحال، فأوسع لي كي أدخل، وكنت مسلحاً بمسدس ولم يطلب مني نزع المسدس أو تجريده من مخزن الإطلاقات على الأقل، وكانت هذه سابقة لا مثيل لها، ولم أجد لها تفسيراً سوى أن صداماً كان في بداية رئاسته ولا يريد أن يعزل نفسه عن أفراد القوات المسلحة، ولا يريد أن يبدي عدم ثقته بهم، أو أنه كان مطلق الثقة بالجيش.

استقر صدام حسين ومن معه في البداية في غرفة آمر اللواء، ولم يكن قائد الفرقة أو قائد الفيلق برفقته، ما يعني أن زيارته مفاجئة للجميع ولم يعلم بها مقر الفرقة أو مقر الفيلق، وذهبت إلى المطبخ لحث الجنود على إعداد الطعام بسرعة، وتقديم الشاي للضيوف، وكان الجميع مرتبكون، ثم نبهني الجنود إلى أنّ مطبخ "السيد الرئيس" قد دخل بطاقمه في غرفة آمر اللواء، وهم يعدون الطعام له هناك، وقد أبلغوهم أن لا يقدموا أي شيء قطعاً إلى "السيد الرئيس" فكل شيء محمول معهم، وجاء مقدم اللواء راكضاً وأمرهم بمد سفرة الطعام في حديقة اللواء، وليس في بهو الضباط، وهكذا كان.

ثم دخل صدام ومن معه إلى البهو، ورافقناه في الدخول نحن ضباط مقر اللواء وعنهم مقدم اللواء وأنا الضابط الوحيد في سرية مقر اللواء، إضافة أمين سر فرقة راوندوز العسكري الحزبية وهو برتبة ملازم أول لم أعد اتذكر اسمه، علاوة على بعض ضباط الفوج الأول. وما إن جلسنا حتى وفد ضابطان من الفوج الأول هما أمراء سرايا فوق جبل هندرين، وقد وصلا تواً إلى مقر اللواء، ودخل الضابطان وكلاهما برتبة ملازم أول وهم يحملان بنادق، فتنكب أولهما البندقية على كتفه، وأدى التحية على السلاح وقدّم نفسه رسمياً، ورد صدام بكلمة أهلا أهلا، فيما دخل الثاني، وقد حمل البندقية بيده اليسرى على امتداد ذراعه الأيسر بوضع كانت فيه الفوهة إلى أسفل، وأدى التحية العادية بكفه وقدّم نفسه رسمياً فرد صدام بنصف رفعة ذراع.

كان الارتباك يخيم على الجميع، لكن الملفت للنظر أن أغلب ضباط اللواء كانوا مسلحين (لابد من الإشارة هنا، إلى أن الزيارة تمت قبل قيام الحرب العراقية الإيرانية في نهاية شهر حزيران/ يونيو 1980 تقريباً، أي في وضع سلام، لكن لواءنا كان منفتحاً في منطقة راوندوز بوضع حركات، وهكذا يتاح للضباط حمل أسلحتهم الشخصية، أو حمل بندقية وهو ما كان يفضله ضباط المشاة في ربايهم). والأكثر غرابة أنّ أياً من أفراد حماية صدام لم يعترض على وجود ضباط مسلحين في حضرة عمهم، وبالمناسبة لم يكن عدد أفراد الحماية يزيد عن قوة فصيل (حوالي 30 جندياً) !!

ثم طلب صدام من الجميع تعريف أنفسهم، ونهض مقدم اللواء لتقديم نفسه وحاول أن يخطو لمنتصف البهو ليفعل ذلك بصفة رسمية، لكن "الريس" قال له: " قدم نفسك وأنت بمجانك (في مكانك)"، ففعل الرجل، وسأله صدام بضع أسئلة عن آمر اللواء وعن باقي ضباط الركن، ثم تواصل تقديم الضباط لأنفسهم، حتى وصلت نوبتي، فنهضت وأديت التحية وقدمت نفسي "ملازم مجند مخابرة ..آمر رعيل المخابرة الثاني سرية مقر ومخابرة لواء المشاة الثالث والعشرون"، وسألني صدام وهو ينظر إليّ في وجهي "أنت مهندس؟"

- لا سيدي، خريج كلية الآداب قسم اللغة الانكليزية.

فهز برأسه مع ابتسامة خفيفة وهو يقول، ياهلا بالخريجين، تفضل!

وجلست في مكاني وقد أخذ مني العرق مأخذا.

وتواصل تقديم الضباط لأنفسهم له، وبدا صدام يتحدث مخاطباً الجميع في عموميات العمل العسكري، والاجازات، ثم سأل عن الرواتب، "هل تكفي العسكر رواتبهم"؟ ثم أعطى الضوء الأخضر بحديث الحاضرين عن احتياجاتهم!

فرد عليه المقدم محمود آمر الفوج الثالث، الذي وفد متأخراً، بشيء لا أتذكره، وكذلك فعل مقدم اللواء، وتكلم البعض عن سلفة زواج، وتحدث آخر عن حاجة الضابط الملحة إلى سيارة، واقترح ضابط لم أعد أذكر اسمه أن تمنح الشركة العامة للسيارات أفضلية للعسكريين بالحصول على سيارة مقابل ثمن. ابتسم صدام ورد بالقول "إن شاء الله"!

كان الملازم الأول أرشد ياسين، يدوّن بالقلم في دفتر صغير، أشياء مما يدور، لكنها غالباً مما يقوله صدام، ثم التفت صدام ناحيته فاقترب أرشد وأحنى رأسه، وما لبث أن خرج من البهو، وانشغل صدام يحادث الموجودين، وبقيت أتأمله، كانت في أسفل رسغه الأيمن نقطة وشم زرقاء (دكة)، وكان يجلس وقد وضع قدميه بثبات على أرض المكان، ولم يضع ساقاً فوق ساق، وكان ينتعل حذاء شبه عسكري عالي الرقبة قد علته الأتربة، ما يدل على أنه كان في البراري، وبقي يتحدث بهدوء غير مسموع لنا إلى من حوله، فيما كان يشمل بنظره الجميع، وعاد أرشد بعد دقائق، وهمس ثانية في أذن صدام، ثم تسمّر واقفاً خلفه.

للحق أقول إن حضوره كان طاغياً مهيباً مخيفاً، وكان الجميع يشعرون بالرهبة أمامه والصغر في حضوره، ربما لهذا علاقة بالروايات المخيفة التي تشيع عنه وحفلاته الدامية، خاصة تلك التي جرت قبل أشهر وصفّى فيها خيرة رفاق حزبه وأقربهم إليه لأسباب بقيت مجهولة لكن الإجماع السائد هو أنها أسباب شخصية تتعلق به وبهم، وليس بالحزب أو البلد أو الصالح العام، لاسيما أن من بينهم أعز اشخاص إلى نفسه ظاهراً، وهم عدنان الحمداني، ومحمد عايش.

كان الصمت يخيم على الجميع في قاعة البهو وقد تجمع نحو 40 ضابطاً وكأنّ على رؤوسهم الطير، ثم تساءل مقدم اللواء بحياء من الرئيس إن كان يرغب في تناول الغذاء الآن، فحرك صدام رأسه لأرشد، وانحنى الأخير مرة أخرى وهمس في أذنه، وكانت قد وصلت له إشارة على جهاز ووكي توكي صغير في يده، نهض صدام، وقال للجميع "يالله"...وكان إيذانا بنهوض الجميع له، ووقوفهم بوضع الاستعداد لا يريم لهم طرف، خرج صدام، ومعه اثنان بالملابس العربية جلسا طيلة الوقت يمينه ويساره، ثم تصدر مائدة الطعام الكبرى، فكانت المفاجأة أنّ رأس المائدة المحجوز له ولضيوفه لم يقدم عليه شيء من طعامنا، وقد وضع له طباخه، وهو مسيحي يتكلم العربية بلكنة، طبق رز فوقه حكاكة (أسفل قدر الرز الدسم)، وطبق باميا، تميل مرقتها إلى الصفرة وليس إلى الحمرة على طريقة وسط العراق، وطيور مشوية في صحن منفصل، وتكرر المشهد مع كل ضيوفه، أما خروفنا والقوازي الشامية وأنواع الرز والمرق والحلوى التي جاد بها بهو الضباط في كرم باذخ، فقد ذهب بعضها إلى عناصر حمايته، وتوزع الباقي علينا.

حرصت أن أقف قريبا منهم، لأرى عن كثب من هو هذا الرجل المخيف الذي يحكم العراق، والذي حاول اغتيال عبد الكريم قاسم. وسمعت جزءاً من حواره مع أقاربه، وبينهم شخص قبيح الشكل، قصير القامة، لا شفة له، وتظهر أسنانه من فكيه كأنها أسنان جمجمة، يغطيها شارب كثيف طلي بلون أسود داكن لإخفاء شعراته البيض، فهمت من الحوار أن اسمه "زبن" وكان قريبا إلى درجة منه، بحيث أنّه يرفع التكليف ويتكلم باسم أبو عداي!!

قال له صدام وكان يأكل بيده دون ملعقة ويقطّع طيراً ويضع بضعاً منه في صحن زبن: وهذي لقمة الزينة نخليها للزلمة الزين.

قال زبن: والنعم من أبو عداي، والسبعت انعام والله... بس عاد هذني من طيورنه، لو من طيور الي ما حشناهن (التي لم ينلها رصاصنا) !؟

صدام: هي عاد كلها انشوت، بعد ما تنعرف أيهو، لكن جن ذني بالماعون مالي هنّ صيدي، ما بيهن دم، وما طارن هواي، بالمجان طكيتهن!

وضحك الجميع مجاملة واكبارا لإنجازه المفترض، وقال زبن في معرض المجاملة مرة أخرى: أبو عداي وصدج لو كالوا، ما يفوته طير الطاير!

وهكذا تأكّدتُ أنهم كانوا في رحلة صيد، وقد اصطادوا غالباً طيور الحجل (القبج) المنتشرة في مناطق الجبال الكردية، وكنّا أقرب وحدة لهم، لذا جاءوا لنا كي يشووا صيدهم ويأكلونه، وهذا يفسر أيضا لماذا لم يرافقهم أي من القادة العسكريين والميدانيين والمحافظين، واقتصر الأمر على رفاق الصيد، وهم المقربون.

شخص آخر كان اسمه فاضل، يرتدي صاية زرقاء اللون داكنة، وقد تكحل طرفها بالأتربة، ويضع زناراً مطرزا بالرصاص، وقد تدلى من جنبه مسدس ربع ويبلي قصير الفوهة، وما برحت بندقيته الانكليزية القصيرة (المعروفة بالبترة) بجانبه، خاطبه صدام بالقول: فاضل ما ياكل طيور، لازم معلّم على الغزلان، هناك بالجزيرة يمهم هواي غزلان.

رد الرجل بصوت خفيض فلم اسمع ما قاله، لكن بعد سنوات، فهمت أن المتكلم هو فاضل صلفيج وكان ابن خالة صدام.

هذا الرجل المغرق في البداوة هو حاكم العراق المطلق، وبهذه العشيرة هو يقود العراق، رفاقه هنا تدور همومهم حول صيد الطيور، وكأنهم ما زالوا يسكنون خيم الصحراء. انتابني هلع هائل، ولم أنم لعدة ليالٍ بعدها، وأنا افكر بسبيل ينقذني من غزو البادية المتوحش.

اعقبت تلك الزيارة في احتفالات تموز 1980، زيادة كبرى في رواتب الضباط، ورواتب الضباط المجندين والاحتياط ورواتب المراتب والجنود المتطوعين والمكلفين والاحتياط بلغت نسبة الزيادة 300 بالمائة، وبين ليلة وضحاها بات راتبي بمستوى راتب مدير عام.

ثم صدر قرار، بحق كل ضابط مطوع في الحصول على قطعة أرض وسيارة وسلفة من المصرف العقاري للبناء. ومع هذه الزيادات الشاسعة، صدرت الأوامر بأن تنفتح القطعات في تمارين مكثفة على الحرب، وتحرك لواؤنا بين اسكي كلك واربيل وديانا و راوندوز خمس مرات خلال شهري تموز وآب. كل ما في الأفق كان ينذر بحرب كبرى، ولكنّ ساعة الصفر بقيت مجهولة، كما بقي العدو المحتمل مجهولاً.

***

المحمّرة - استراتيجية الرعب قادت إلى الهزيمة!

التحقت من إجازة زواج إلى لوائنا وقد تحرك إلى المحمرة. وجدت اللواء بعد ساعات من البحث في مخفر شرطة عتبة بمنطقة الشلامجة. كان النخيل يتساقط كل لحظة بفعل القذائف ولا أحد يعرف ما يجري والشائعات والتنقلات المستمرة انهكت القطعات.

دخلت إلى مقر اللواء وهو قائمقامية عتبة الغافية على جسر بين النخيل ملحق بالمخفر، فوجدت مقدم اللواء وعلى وجهه العملاق آثار الإرهاق وعدم النوم، تلقاني منهكاً، ومد لي يده مهنئاً بالزواج، ثم اعتذر لأنّ المعركة أجبرت اللواء على الحركة ولم يعد بالإمكان تمديد إجازتي اسبوعا آخر لتصبح 3 أسابيع كما كان معمولا به، وهو عرف غير مكتوب لكنّ التشكيلات تعتمده حسب مساعدة الموقف القتالي.

ثم قال لي وهو يخفي ابتسامة بؤس، سنتحرك الليلة لفك الحصار عن المحمرة، ولن نحتاج الشبكة السلكية حتى يستقر الوضع، آمر اللواء (المقدم الركن سلطان إبراهيم العلكاوي كان قد التحق بمنصبه قبل بضعة أشهر) وضابط ركن الحركات وضابط ركن الاستخبارات وضابط الركن الكيماوي، وآمر الرعيل اللاسلكي (م اول خلف وقد التحق بنا حديثا) ومعاون آمر سرية مخابرة اللواء (النقيب عماد وكان قد التحق إلينا قادما من قوات الحدود قبل أشهر) خرجوا استطلاع لتحديد مكان لمقر اللواء الجوال، حين يعودون سيتحدد وقت الحركة. نحن الآن بإمرة فرقة المشاة الحادية عشر.

وذهبت ابحث عن جنودي، فوجدتهم بين النخيل بلا مواضع، وقد بدأوا يحفرون لأنفسهم خنادق شقية، وروى لي معاوني نائب ضابط وادي ور ع عداي عريف الرعيل، تفاصيل محنة التنقل التي مرت بهم منذ 4 أيام، حيث أنهم لم يذوقوا طعم النوم، بسبب تغير الأوامر كل لحظة.

الحقيقة التي لا يقولها أحد، إنّ حجم وعديد القطعات كان أصغر بكثير من حجم انفتاحها على الجبهات، حيث أن عديد الجيش المقاتل بالكامل لا يزيد عن 11 فرقة، وكان برمته لا يكفي للدفاع عن المحمرة فحسب، حدث ولا حرج عن امتداد الجبهات على مدى 1400 كيلومتر مع إيران، لكن الإيرانيين كانوا بلا استخبارات، ولم يكونوا يعرفون فنون القتال، ولم يستطيعوا استثمار فوزهم، وهذا جاء رحمة بالعراقيين.

فقد حاصر الإيرانيون 6 ألوية عراقية في المحمرة، كلها عبارة عن 16 فوج من الجيش الشعبي، ومعها لواء واحد أظن أنّه اللواء التاسع عشر. الخطأ الفضيع من الجانب العراقي كان تكديس القطعات داخل المحمرة، وليس حولها، لذا ذهبت القطعات لقمة سائغة

للإيرانيين فقد غرق 6 آلاف جندي عراقي وهم يحاولون الهرب من جحيم الحصار سباحة عبر شط العرب بعد أن حاصرها 70 ألف مقاتل ايراني وقطع عنها كل الطرق.

سبق ذلك اندحار الفرقة المدرعة التاسعة والفرقة المدرعة الثالثة في قاطع الكارون بعدما عبرت القوات الإيرانية إلى الضفة الغربية من النهر المذكور وأجبرت القوات العراقية على التراجع إلى داخل الحدود العراقية، ما سهل انسياب القطعات الإيرانية إلى شمال المحمرة والبصرة، فباتت البصرة في خطر فادح.

نتيجة هذا استدعى علي حسن المجيد موفد صدام حسين إلى الجبهة، قائد الفيلق الثالث اللواء (مقره البصرة) الركن صلاح القاضي وقائد الفرقة المدرعة الثالثة العميد الركن جواد أسعد شيتنه وآمر اللواء المدرع الثاني عشر العقيد الركن محسن عبد الجليل وأقام المجيد لهم محكمة ميدانية سريعة وأدانهم بالتقصير في تقدير الموقف وإدارة المعركة وفرض عقوبة الإعدام عليهم، ونفذت العقوبة عليهم فوراً. فيما غضّ المجيد ومن خلفه الطرف عن العميد الركن طالع الدوري رغم أن فرقته بدبابتها وجنودها قد سقطت في أسر الايرانيين، ولقربه بعزت الدوري دور حاسم في هذا الموضوع!

أما نحن القوات التي جرى استدعائها على عجل من باقي قواطع العمليات فقد كان دورنا هو محاولة فك الحصار عما تبقى من القطعات في المحمرة، ومحاولة استعادة السيطرة على المدينة المذكورة.

كانت الخرائط تتحدث عن تحرير المحمرة، فيما لم تستطع القطعات حماية دار خوين وقرية البوارين وهي من مناطق البصرة من العتاد الخفيف الإيراني. كان مشهداً سريالياً، وساد الجميع شعور أن تحرير الإيرانيين للمحمرة، سيعيد قطعاتنا إلى الحدود الدولية، وهذا سيؤدي إلى نهاية الحرب، لم يكن أحد يريد الدفاع عن المدينة الدامية، والجميع اتفقوا ضمناً نفسياً دون اتفاق، على أن استعادة الايرانيين للمحمرة ستنهي القتال، لكن الجنرالات لا يقولون ذلك وهم يدافعون عن مصالحهم مع صدام حسين .

تلك الليلة، تحركنا على عجل بلا أوامر وبلا دلالة وبلا حتى خرائط إلى موازاة سدة السويب ولكن باتجاه الجنوب، كنا نسير خلف سدة تسير بموازاة الحدود للوصول إلى قرية البوراين، وكنا نروم الوصول إلى نهر الطويلة، لكن هيهات، فالمنطقة ممتلئة بمفارز الحرس الثوري، والرمي لا ينقطع، نحن في الشاحنات وهم يتلقطونا كأهداف من فوق ومن بين النخيل. تسير القافلة التائهة، والقنابل كالمطر، وكل بضع دقائق، تنهار سيارة في خندق أو نهير، لتخرج عن القافلة. نهاية الليل وصلنا إلى حيث لا يعرف أحد، وعبرنا شبكة نهيرات فسقطت دبابة في نهير، وسدت تقاطع الطرق الرفيع الوحيد المؤدي الى قرية البوارين. بقينا نراوح في هذا المكان، حتى أخبرنا آمر اللواء بالتراجع ونحن راجلين إلى السدة الغربية، حيث تنتشر قطعات مختلقة من الجيش والجيش الشعبي ودبابات تائهة، وكلها

عند مخفر الشلامجة. لكنّ الوصول إلى هذا المكان كان بحاجة إلى معجزة، لا أحد يعرف، ولا حتى آمر اللواء اتجاه مخفر الشلامجة، ولا أحد يعرف ما هو الواجب المطلوب، وكان علينا فك الحصار عن قواتنا في المحمرة، ونحن لم نستطع اجتياز الحدود العراقية.

بقينا في العربات، ونزلنا خلفها، فيما بدأت قطعات مختلطة تعود بعكس اتجاه سيرنا مهزومة، مئات السيارات العسكرية والمدنية الخاصة بوحدات الجيش الشعبي والدبابات والجنود الراجلون، بلا أسلحة ، جرحى، جرحى ملقون على قارعة الطريق، جرحى يتساقطون كل لحظة، كان بقاؤنا أحياء مجرد صدفة.

شاحنة هوندا خضراء، محملة بأكداس الأسلحة، وقد جلس فوقها مقاتل من الجيش الشعبي، قطعت ساقه من اسفل الركبة ويمسك بالساق المقطوعة ويبكي وهو يصرخ "والله مو خائن، قولوا لصدام حسين، والله مو خائن"!! يخاف من الرئيس حتى وهو على فراش الموت، وهو غالباً لن يصل وحدات الطبابة الميدانية، فهو يهذي ونزيفه يطفّر ليغمر كل ما حوله.

على الضفة الأخرى من السدة الترابية المكللة بالنخيل كان الرمي بالرصاص على أشده، بعد نحو ساعتين، صدرت الأوامر، أو هكذا بدا الأمر، بالعودة إلى سدة النخيل التي تقع في الجانب العراقي، ومحاولة منع الإيرانيين من دخول البصرة!! وهذا يعني أنهم قد عبروا الحدود الدولية وباتوا في داخل العراق.

كنا قطعات بلا قيادة، الجنرالات يرسمون صوراً وردية على الخرائط في غرف الحركات الأنيقة المبردة، ويكذبون على صدام حسين، طمعاً في مزيد من الامتيازات ونحن نتقطع ونتساقط مثل جثث مرهقة على السواتر. هكذا سارت القادسية، كثير من الأكاذيب، وقليل من الحقائق، وأظن أن الأمر يجري بنفس الشاكلة في الجانب الإيراني، أذ أنهم مشغولون بحروبهم الداخلية، المعممون، بإزاء الاصلاحيون، بإزاء اليسار الغاضب، ومجاهدو خلق وفدائيو الشعب. بعد عام هرب بني صدر رئيس الجمهورية التوافقي، وقتل مجاهدو خلق اثنين من رؤساء الجمهورية ورئيس الوزراء (غالبا بدعم من المخابرات العراقية)، وتفجير في مجلس الشورى قتل فيه 73 قياديا معمماً، وتفجير طارت فيه عين خميني وشلت يده اليمنى)، وطائرة تسقط قرب قاعدة جوية في طهران فيقتل 93 قياديا في الجيش والحرس الثوري.

كوارثهم لا تنتهي وجنودهم على الجبهة تائهون. من بين مئات الأسرى، لم يسقط بأيدينا سوى بضع ضباط أعوان، ما يعني أن جنرالاتهم لا يصلون الجبهة، أو لا يقاتلون، أو يقاتل عنهم المعممون.

أجلس منتحياً جانب طريق الموت، وافكر لماذا درست شكسبير وتشوسر؟

ولو جاء دي اتش لورانس إلى هذا المكان ماذا سيفعل؟

ولو التقى هؤلاء الجند المهزومون بأوسكار وايلد فماذا سيفعلون به؟

ولماذا درست كل ذلك، ما دام مشهدي سينتهي بهذا الخراب؟

ليل آخر يلف هذا الخراب والعبث والموت قريب جداً، ومسألة أن تبقى حياً هي مجرد مصادفة، قد تكون بقدرة ربانية كما يراها المؤمنون، وقد تكون لدعوة صدرت عن والدتي التي لم أرها منذ سنوات.

استندت على بندقيتي القبيحة، منتظراً الفجر؟

***

جحيم المحمرة - اليوم الثاني

قبيل الفجر انجلى الموقف، فالألوية الخمسة التي زُج بها لفك الحصار عن المحمرة ونحن منها لم تصل أهدافها، ومن وصل منها عاد متراجعاً بانسحاب غير منظّم مبعثر، وعادت القطعات مثخنة بالخسائر، وجاء الأمر مع الفجر أن نتجه إلى ساتر قريب وندافع عنه، مهما كان الثمن!

اتجه لواؤنا، أو ما تبقى منه بسبب تسرب القطعات، راجلاً إلى سدة ناصية، وأمامها سدة أخرى دونها ارتفاعاً، فاندفع مقر اللواء إلى حفرة في خندق شقي متقدم قبل السدة المتقدمة والرصاص الخفيف يتساقط عليه بحيث اضطر آمر اللواء ومن معه إلى الزحف إلى داخل شبه الخندق الشقي المحمي بصفيحة يعلوها كيس رمل، كي لا يصلهما الرصاص الخفيف، لكن القذائف تتساقط كالمطر، فيما انفتحت أفواجنا على الأجنحة بشكل عشوائي متخذة من السواتر مواقع رمي غير محصنة لها. كان المنظر مرعباً، ارتال الجند تسير متقدمة بالرتل الزكوي، فيما يتساقط الجرحى والقتلى بنيران العدو، وتستمر الأرتال تائهة تتقدم إلى لا مثابـــة!

نحن ندافع عن هدف لا نعرف ما هو، ونحارب عدواً لا معلومات عنه، ولا نعرف أين انتشر، لا خرائط لا استخبارات...لا شيء !

قرفصت على مدخل الملجأ الصغير الذي انحشر فيه آمر اللواء وضباط ركنه، وهم عاجزون عن كل شيء ومقطوعون عن كل شيء، كان ضابط ركن الحركات قد استل مسدسه مستعداً للقرار الأخير، أما الاشتباك مع العدو بالرصاص، أو الانتحار، إنه اليأس المطلق! قلت لآمر اللواء: سيدي هل ثمة أوامر؟

قال وهو ينظر إلي بيأس: كيف أصدر الأوامر؟ ثم انتبه إلى نفسه ومركزه، وقال مؤكدا: نعم ملازم ملهم، أرجو أن تؤمّن لنا خطاً سلكياً مع مقر اللواء المتراجع في مخفر الشلامجة، ومنه تؤمن لنا اتصالا مع الفرقة ومع أفواجنا ومع سرية المغاوير.

قلت له: سيدي كيف أصل للأفواج، هل من خارطة مؤشرة عليها مواقعهم؟

ضحك بمرارة، وهو يقول أنظر يميننا ويسارنا هذه هي الأفواج، نحن منفتحون معهم على خط واحد...شمرة عصا!

وكان في هذا الوصف منتهى السخرية المبطنة، لأنّ مقرات التشكيلات لا تكون قط على خط الصد الأول، كما أن الأفواج لا تنفتح قط بالنسق، بل بالنسق المتعرج، لضرورة تلاحك النيران المقراضية.

عدت راكضاً نحو 70 مترا إلى حيث انفتح رعيل المخابرة الثاني أو ما تبقى منه مختبئا في شقوق وهمية! التقيت عريف الفصيل، واخبرته عن طلب آمر اللواء، فقال نخرج في مفرزتين، مفرزة إلى مقر اللواء في مخفر الشلامجة، ومفرزة بين مقر اللواء، وبين الأفواج...وأين هو مخفر الشلامجة سيدي؟

قلت له "أظنه ذلك الساتر المربع العالي الذي تتساقط عليه القذائف وضربات مدفعية دبابات العدو !!"

نظر إلى حيث أشرت، وقال وهو الذي عرفته شجاعاً: حتى اذا وصلنا بخط إلى هذا الساتر، فإن الخط لن يعمل سوى لدقائق، ألا ترى الدبابات صاعدة نازلة والقذائف كالمطر؟

عزيزي عداي، نحن ننفذ الأوامر، واذا لم تعمل الأوامر فهذا ليس ذنبنا! هيء لي 3 مفارز.

وخرجتُ بنفسي مع المفرزة الذاهبة إلى مقر اللواء في مخفر الشلامجة، لأنها أصعب الواجبات، وتردد أشجع شجعان الرعيل عن الخروج، فخرجت أنا وعريف الرعيل عداي الشجاع والعسكري المثالي. وضعنا بكرة أسلاك على قضيب معدني بيننا، وربطنا رأس البكرة في بدالة عشرة خطوط، يجلس عليها أحد المخابرين في الموضع الشقي، وبدأنا نركض إلى الساتر الذي خلفنا، وانتبهت إلى أنّ الرصاص يتساقط من خلفنا على الساتر الذي أمامنا بفاصلة لا تزيد عن 300 متر. كنا نرتعب فنستلقي أرضاً، فتعبرنا رميات رشاشات ثقيلة تأتي من مسافة قريبة، بحيث نرى سقوط الرصاصة في التراب قبل أن نسمع صوتها! وكان علينا أن نركض، وهكذا ركضنا بشكل متعرج، وكنا نستلقي أرضا كلما أشتد الرمي، حتى باغتتنا قذيفة هاون 60 سقطت قريبا جداً منا، فارتمينا أرضاً نحتمي بأصابعنا، وتساقط الحصى والدخان والشظايا فوقنا، والدخان يلفنا عابقاً برائحة البارود اليابسة كالكبريت في الحنجرة، "يمه البارود من اشتمه ريحة هيل" ياله من هيل حقير!.

وركضنا ونحن لا ندري إن كنّا قد نقصنا أصبعا أو أذناً أو عضوا! حتى وصلنا قاع الساتر، وتلقانا جنود أطلوا علينا بالبنادق، وهم يسألون من أي الوحدات نحن، أجبناهم ومضينا نركض بحذاء الساتر ليكون الخط محمياً من عشرات الدبابات المنتشرة خلف الساتر، والتي قد تنفتح في أي لحظة لتبتلع السلك في ثواني، وبقينا نركض والرصاص يئز حولنا، المشهد يشبه فيلم لكنه حقيقة، والعطش حقيقي والخوف حقيقي واليأس حقيقي، والبصرة تُقصف بالهاونات، وقد نموت في أي لحظة فيما يتخطر عدي بفرسه على بنات العاصمة في نادي الصيد، وقد لا نموت فتعدمنا مفارز تنتشر في عتبة والمدن القريبة! وصلنا نهاية الساتر، حيث يعبر طريق مبلط الحدود بين البلدين أسفل مخفر الشلامجة في الجانب العراقي، وبدأت المحنة: كيف نعبر بالسلك طريقا معبّداً بالأسفلت تسير عليه الدبابات والشاحنات ليل نهار؟

نظرنا فيما حول الطريق، حتى اهتدينا إلى خندق يصعد الساتر، ليعبر الشارع، من الجانب الآخر في خندق شبه مدفون تعبر خلاله حزمة أسلاك وكابلات لأغراض الوحدات والتشكيلات. كانت هناك يافطة كتب عليها المقر الجوال للفرقة 11، وهذا يعني أنّ مقر الفرقة كان هنا، ويمكن أن يتخيل المرء مدى بعد التشكيلات عن مقر الفرقة. حسب تقديري أن الوحدات قد تراجعت ما لا يقل عن 10 كيلومترات في هذه المنطقة، بحيث باتت الفاصلة بين مقر الفرقة وبين مقرات الألوية والأفواج 800 متر !؟

ما إن عبرنا الشارع مع الخندق المحفور وسطه، ونحن نمد الخط حتى دوت بقربنا قذيفة دبابة، أصابت ساتر مقر الفرقة المرتفع الذي يجب علينا تسلقه! انبطحنا أرضاً، خوفاً من الشظايا المتراجعة باتجاه الرأس، هذه كانت قذيفة دبابة مباشرة، يعني من بعد يقل عن 1 كم!

كان علينا أن نعود لندفن السلك في الخندق، وهكذا فعلنا، كل حين تعبر دبابة باتجاه العدو، ثم تقفل راجعة مع سيل القذائف. انتهينا من طمر الخط، فبدأنا نبحث عن منفذ الساتر المرتفع لمخفر الشلامجة، واكتشفنا لسوء الحظ أنه في الجزء الخلفي من الساتر مربع الشكل وهذا يعني ما لا يقل عن 400 متر مسافة إضافية، ولم يبق معنا سوى بضع عشرات الأمتار من السلك. وهكذا كلمنا بدالتنا المتقدمة، وطلبنا من عريف بهجت أن يرسل لنا بكرة أسلاك أو أكثر، فوعدنا خيراً، ولم نجد شيئا نفعله سوى أن نربط الخط ببقايا معدنية من قذيفة آر بي جي7، ونزرعها في الأرض، كي نصعد إلى مقر لواءنا في الأعلى فنشرب رشفة ماء، ونرى الموقف كيف أصبح.

الامتار الأربعمائة كانت فاجعة، فرصاص الرشاشات الثقيلة ينهمر على السفوح كالمطر ومثله القذائف، وبعد نحو 100 متر حول المنعطف، صادفتنا 3 جثث لجنود عراقيين متروكين، إصاباتهم في الرأس، ولكن بإطلاقات ثقيلة ذهبت بأغلب جماجمهم! كان منظراً مهولاً، فالجنود، قرب قطعاتنا وفي داخل أراضينا وعلى سفوح مقر الفرقة 11، وهم حتماً من ألويتها، نزفت دماؤهم وجفّت على تراب الساتر، ولا أحد يخليهم، ومشينا والهلع يهزنا هزاً عنيفاً.

الأمتار المائة الأخرى، كانت مفعمة بمشاهد الرعب، بقايا رأس على الساتر، بقايا قدم، بقايا بنادق، بقايا صواريخ، قذائف ارتكست كالرماح في الأرض ولم تنفجر، القذائف قنابر روسية من عيار 60 ملم، قنابر إسرائيلية عيار 83 ملم وهو عتاد يملكه الجانب الإيراني فحسب من بقايا ترسانة الشاه، رمانات يدوية متروكة، حراب متروكة، علب أرزاق، خوذ...المكان يبدو كأنه ساحة معركة، لكننا في مقر الفرقة!؟

جهاز آر 104 روسي للاتصال اللاسلكي القريب

مشينا بضعة أمتار، فزعقت قذيقة قربنا تماما، وانبطحنا ندفن رؤوسنا بتراب الساتر إذ لا ساتر غيره، فمر علينا التراب، ولم تنفجر القنبلة، رفعنا رؤوسنا بخوف، فاذا هي قنبرة هاون إسرائيلي 83 ملم، انغرست في التراب على بعد مترين منا، ولم تنفجر. عبوة هذه القنبلة كافية لتدمير ناقلة أشخاص مدرعة، فياويلنا لو كانت انفجرت، لبتنا قطعّاً تذروها الرياح مثل أشلاء الجنود الممزقة التي مررنا بها. نهضنا متثاقلين والرعب يلفنا، ومشينا مهرولين حتى وصلنا نقطة ينعطف فيها الساتر ليكون بمواجهة العدو، وكانت جبهته مشتعلة. بعد كل هذه الأهوال كيف سيكون حالنا، حين نصبح في مواجهة العدو...أنا لا أعرف اتجاهي لهول ما شاهدت، ولا أعرف حقا أين العدو؟

انبطحنا أرضا وقلت لعداي...ما العمل الآن، هل نستمر بالسير حتى نكون بمواجهتهم، أم نبقى هنا، أم نتسلق الساتر من هنا، مادام العدو لا يرانا؟

قال عداي وعلى وجهه علامة سؤال مشوب بالحيرة: أين هو العدو بالضبط؟ أنا لا أعرف اتجاه العدو بعد كل هذا؟

قلت له: أرى أن نركض إلى أعلى الساتر من هنا، إنها مسافة لا تتجاوز 30 متراً، لنتوكل ونركض؟

قال عداي: كما ترى يا سيدي.

- هيا! وركضنا سريعاً صعوداً باتجاه الأعلى، كان الصعود حاداً والساتر أملساً لا صخور فيه، واضطررنا أن نتسلق بخط مائل كي لا ننزلق إلى أسفل، وما إن أدركنا قمة الساتر، حتى صرخت قنبرة قريبة، فانبطحنا لتنفجر خلف الساتر في داخل مقر الفرقة، وتلتها قنبرة أخرى بيضاء 60 ملم، ارتطمت بالساتر، شاهدتها بعيني وهي تشطح إلى داخل مقر الفرقة، وترتطم بشدة بأرض المقر داخل الساتر، ثم ترتفع مرة أخرى، لتعبر متنططة جدار الساتر من الناحية الأخرى خارجة دون أن تنفجر، كانت تحلق بطيئة إلى درجة أني تمكن من رؤية خط أحمر وخط أزرق على بدنها.

وركضنا إلى داخل الساتر الذي انتشرت على واجهته الجنوبية 3 ملاجئ ازدحمت بالهوائيات، إضافة، إلى وجود دكات رمي للدبابات، استقرت في إحداها، ناقلة جنود BMB1، وفي الأخرى ناقلة جنود أخرى عليها علامة الهلال الأحمر، أي إنّها عجلة إسعاف لإخلاء المصابين. رأيت أحد الملاجئ وقد دخلت من حافته مجموعة أسلاك وكابولات فقدرت أنه ملجأ البدالة، ودخلت إليه، فصدق حدسي، وإذا بمجموعة جنود وضباط صف ونواب ضباط يشتغلون على بدالة 194 روسية 40 خطاً، والى جانبها بدالتان صغيرتان سعة 10 خطوط. سألت أقدم نواب الضباط رتبة، أين اجد مقر لواء 23 الجوال،

فأجابني أنه لا فكرة عنده عما أقول. قلت له إن لواء 23 قد بات بإمرة الفرقة 11 منذ يومين، ويجب علي أن أصل إلى مقره، ويفترض أنّه هنا؟

فأجابني" نحن مقر الفرقة 11 الجوال، وهذه ناقلة السيد القائد، وهذه محطاته، لا توجد مقرات ألوية هنا!؟

وكانت مفاجأة قبيحة، فبعد هذا الزحف المرعب، لا وجود لمقرنا الجوال هنا!؟

اسقط في يدي، وكلمت مرافقي عداي أسأله عن هذه الخيبة فقال هامساً: سيدي تبدو القضية تايهة، حماها ما ينعرف من رجلهه !؟ وسألت نائب الضابط مرة أخرى، هل لديك اتصال بمقر لواء 23 في عتبة ؟

نظر نائب الضابط إلى لوحات البدالات أمامه، ثم عاد يقول لي يائساً: لا لا، لا شيء مع لواء 23 هنا!

بقينا جالسين كالأيتام على باب مأدبة اللئام، لا أحد يدعونا للدخول بسبب حساسية بدالة الفرقة ومنع دخول أي غريب لها كالعادة، فيما لا نعلم إلى متى سنبقى ننتظر، حتى تصلنا بكرات السلك. جلسنا نحو نصف ساعة، ثم قلت لعداي: دعنا نرجع إلى حيث تركنا رأس السلك، ونرن على بدالتنا في المقر الجوال، لنرى الأمر معهم.

وعدنا نهبط على الساتر المرعب، إلى حيث ربطنا رأس السلك، وصلنا بسرعة لسهولة الهبوط، ثم ربطنا هاتفاً على السلك، ورن الهاتف في البدالة، فأجابني ن ع جاسم، سيدي...رائد ركن ستار(ضابط ركن الحركات) يبحث عنك؟ قلت له: ألم تخبره أننا نمد الخط إلى مقر اللواء المتراجع؟

بل قلت له، لكنه أخبرني بضرورة أن تتصل به بسرعة.

وأين أصبح عريف بهجت؟

عريف بهجت خرج مع علي فاضل ومعهم بكرة أسلاك وهم في الطريق لكم، وقد وجدوا هذا الخط مقطوعاً حين فحصوا بالاتجاهين، فأصلحوه واتجهوا نحوكم مع السلك!

قلت له: وصلني برائد ركن ستار!

رن عليه وعاد لي... رائد ركن ستار تفضلوا!

تفضل سيدي ملازم ملهم!

الله يساعدك ملازم ملهم وين صرت؟

سيدي على ساتر مقر الفرقة الجوال، أحاول أن أوصل الخط إلى مقر اللواء الجوال، لكنهم أخبروني بعدم وجود مقر جوال هنا، فأين أذهب بالخط سيدي؟

ارتبك الرائد ركن ستار، وكان جديداً في مقر اللواء، ويبدو عليه الخوف من كل شيء، ثم سألني: وماذا سنفعل الآن؟

-اسأل السيد آمر لواء، هل تغيرت الأوامر؟ وإذا تغيرت فماذا نفعل بالخط؟

سأله، ثم عاد يقول: السيد آمر اللواء يقول: اتجه يمين الطريق، ستجد مقر اللواء الجوال قرب نقطة معبر حدود الشلامجة، هناك موجود مقدم اللواء.

صار سيدي. وقطعت الاتصال. وبقينا ننتظر وصول ع بهجت وجندي مكلف علي. ولاحا في الأفق على الساتر المرعب وهما يركضان. الموقف نفسه يلاحقهما، الرصاص الثقيل والقذائف، ثم وصلا عندنا والعرق يقطر منهما والغبار يغمرهما وهما يلهثان.

الله يساعدهم! عفيه عاشت أيديكم، لكن تبدّل الأمر، ولابد أن نعود بالخط إلى معبر حدود الشلامجة، اعتقد أنها البناية الصفراء الخالية من الأبواب والشبابيك التي نراها من هنا.

بوجهين ساحبين لشدة الإرهاق والرعب وعدم النوم، استندا إلى أرض الساتر كي لا يسقطا لهول الخيبة ونظرا في لا مكان بعيون زائغة وكأنها تواجه الموت.

وهكذا انتظرنا نحو ربع ساعة حتى استردا أنفاسهما، ثم ركضنا نسحب السلك ونعيد لفه على البكرة، حتى وصلنا تقاطع الشارع، كان الوقت يقترب من الغروب، والقصف والرمي الخفيف على معبر الشارع على أشده، لكننا لشدة التعب، لم نشأ أن ننتظر، فقطعنا السلك عند المعبر، والتقطنا نهايته الأخرى من الجهة الثانية بعد أن زحفنا لعبور الشارع الملتهب بالرمي، ثم سحبنا السلك ونحن نركض بيأس نحو المبنى الأصفر، المزينة جدرانه بالآجر الجيري الخردلي الأنيق الذي ميّز مباني سبعينا ت القرن العشرين.

حين وصلناه بلوعة قطعتها عشرات القذائف، كانت تلك عين الجحيم، فحول المبنى تتساقط القذائف بعدد الدقائق، ويتساقط القتلى والجرحى بلا حساب. دلفنا فيه ولا أثر لمقر اللواء الجوال، واقترب الليل، فقال لي عريف بهجت، ونحن واقفين وسط الجحيم ولا أكاد أسمع صوته: سيدي لا فائدة من كل هذا، هل تتخيل أنّ هذا السلك الذي سحبناه إلى هنا سيعمل وسط هذا القصف؟ هذا محال.

دون أن يخبرني ذلك كنت مدركاً له، ولا أدري ماذا أفعل، ولكن برودا كبرود الموتى خيم عليّ مع اقتراب الغروب. أشعر أنّها ليلتي الأخيرة في هذا الجحيم. جلس ع. بهجت وعلي فاضل داخل المبنى واسندا ظهريهما إلى الجدار وأوقدا سجائر كأنها إيذان بالاستسلام،

وفعلت مثلهما والعطش يلوّث النيكوتين في فمي، فلا لذة للدخان مع العطش، وجفاف الفم هو جفاف الحر وجفاف الخوف، ورعب المغرب، المغرب دائماً مخيف.

***

تائهون عند معبر الشلامجة

اجتمعنا في لا مكان! نحن مع مدرعات من اللواء الثامن الآلي، ودبابات لا أدري مصدرها، ومقرات لا أحد يعرفها، وعشرات المقاتلين التائهين من وحدات المهمات الخاصة العشرين المهزومة من المحمرة، لا ملاجئ، لا مقرات، لا خنادق. إن جُرحت وتمكنت أن تخلي نفسك فأنت محظوظ، وإن قُتلت فقد خسرت العالم، وإن بقيت حياً فرحلة العذاب تنتظرك وقد تنتهي بقتل أو بإعدام أو بأسر!

أشرقت علينا شمس البصرة في 28 أيار/ مايو 1982، أنا وملازم أول خلف ونقيب عماد، فجراً في خندق شقي لم نجد غيره، خرجنا مع شروق الشمس، نهيم على وجوهنا لنحرك أرجلنا، فقد مضت علينا ليلة مرعبة لا مثيل لها. لم نجد مقر اللواء، لكننا وجدنا نصف ملجأ مهدم متداعٍ تحت دبابة محترقة، فيه مقدم اللواء، وهو يحاول أن يوهم نفسه بأنه يدير مقر اللواء المتقدم. لا خرائط عنده، ولا اتصالات، ولا أوامر، والرمي على أشده، ولكي يبول، يسير بين القذائف، ليقف أمام الجميع ويسكب بولته في العراء. هذا ما نفعله جميعا، لا مكان تستره الجدران هنا، ولا طعام، والأنكى من ذلك، لقد احترقت شاحنة الماء الحوضية الخاصة بلوائنا، وبتنا دون ماء في الشلامجة!

في السابعة صباحاً غادر النقيب عماد خندقنا الشقي التعس كأنه مومياء، وهو يحمل بندقيته كأنها فردة حذاء، وخرج ملازم أول خلف، وقد آمن أن لا أهمية للبندقية في هذا الجحيم فأعادها قبل يوم لمقر اللواء، وخرجت أجرجر نفسي وبندقيتي الرثة. مشيت نحو 20 خطوة عن الخندق الشقي، حين صرخت قذيفة قريبة، فانبطحت، وتعالى التراب من الخندق الشقي الذي أمضينا فيه الليل، لكن القذيفة لم تنفجرّ، اقتربت من الموضع الشقي، فكانت قنبرة هاون 83 ملم إسرائيلي قد استقرت في جوفه ولم تنفجر. القنابل والقنابر لا تنفجر غالباً بسبب خطأ الرامي الذي لم ينزع فتيل تأمين كبسولة القنبلة أو قنبرة الهاون، لكنها أحياناً لا تسقط على الكبسولة أو تتنطط فلا تصطدم الكبسولة بقوة بالأرض فلا تنفجر. تأملت الخندق الذي بتنا فيه، وتأملت القدر الذي أسقط القنبرة في داخله. في الجيش مبدأ شائع مفاده أن القذائف نادراً ما تسقط على أهدافها بدقة، ولكن المبدأ خاب هنا، فقد سقطت القنبرة على خندق شقي بدقة، لكنه كان فارغاً بقدرة اعجازية، ولم تنفجر بمعجزة أخرى.

ذهبت هائماً على وجهي أبحث عن مرحاض ! وخطر لي أن أسافر مع سيارتي والسائق لأصل إلى أقرب مرحاض على بعد 5 كم. ناديت السائق علي، وقلت له بوضوح فكرتي، فقال وهو متحمس: هناك حمامات الفرقة 11 للجنود، على بعد نحو5- 6 كم من هذا المكان، وفيها دوشات مفتوحة خلف الصفيح المضلع، وفيها مراحيض كثيرة، إنّها استراحة الفرقة المتقدمة، لكن تسقط عليها قذائف معادية أحياناً.

دون كلام آخر، غادرنا المكان الرث الذي نحن فيه، واتجهنا إلى حيث الاستراحة، وكان المكان مرتباً، نظيفا نسبياً، وعدد من الجنود والضباط يستحمون، وعدد آخر يقضون حاجتهم. ذهبت الى المرحاض، وقضيت الحاجة، ثم عدت واشتريت صابونة من الحانوت، وأخذت دوشاً سريعاً حيث لامس الماء جسدي أول مرة منذ التحاقي من إجازة الزواج قبل أسبوع، غسلت شعري ودلكت جسدي بالصابون، فذهب دبق الحر والرمل البصري التعس. ثم قصدت الحانوت، فاشتريت قدح شاي كبير، وكاسة لبلبي بالحامض مع رغيف خبز ساخن، وانتبذت جانبا لا يبعد كثيراً عن الجحيم لألتهم وجبة الصباح المريحة، ولفت نظري أنّ علي السائق يجلس غير بعيد عني وقد استحم هو الآخر، وجلس يأكل.

بعد الفطور، دخنت سيكارتي المريحة الأولى منذ أسبوع، ودبّ خدر التبغ اللذيذ في أطرافي، فشعرت بنشوة مؤقتة تنزع مشاعر الحرب المستمرة. ثم دوى مدفع معادٍ بعيد، وما لبثت ان صفرت قذيفة بالقرب منّا، وعبرت المكان لتنفجر على الضفة الأخرى لجدول يقع خلف الحمامات. نهض الجميع من جلستهم، فقد بدأ القصف على المكان، وغادرنا على عجل الفردوس المفقود!

عدت إلى حيث كنا، وما زال القصف مستمراً بلا انقطاع، بعض الدبابات تصعد إلى دكات رمي، فتطلق رميات مباشرة على العدو، وتتحرك بعيداً لتتوارى في ملاذات أخرى محفورة في الساتر.

قصدت مقدم اللواء في "مقره" الذي غادرته الدبابة فبات بلا حماية فسألني حال أن أديت التحية أين كنت، قلت له بصراحة، ذهبت إلى المرحاض. وسألني بلهفة، أين تكون المرحاض؟ فوصفت له المكان، وتردد بعض الشيء إذ لا يليق برائد ركن أن يستحم مع الجنود ويجالسهم على موائد الطعام، فهذا يخالف العرف العسكري. ثم عاد يكلمني ليتخذ قرار المرحاض فيما بعد وهو وحده: السيد آمر اللواء طلبك لأمر هام، أذهب له فوراً.

سألته أين يكون آمر اللواء في هذه الملحمة، فأجابني إنه في نفس مقر الأمس. وهكذا اعتمرت خوذتي، وحملت بندقيتي، وخرجت أسير في سهل الموت المخيف بعد ساتر الدبابات. ما إن خطوت بضع خطوات، حتى بدأت اسمع أزيز الرصاص حولي، يمر بي ليسقط على ساتر الدبابات خلفي، وكان علي أن أسير بخط متعرج مهرولاً، ومنبطحا مع سقوط كل قذيفة. قطعت المسافة التي تقل عن كيلومتر واحد راكضاً، ووصلت إلى الملجأ الواطئ الحقير الذي فيه آمر اللواء، حوله على امتداد الساتر، مئات ألوف خراطيش الإطلاقات الخفيفة، وبقايا عبوات اطلاق القاذفة آر بي جي 7، ومدافع هاون 60 ملم متناثرة على طول الساتر، وكلها تراكمت معلنة عن رمي الجنود المتواصل طوال الليل لمنع تقدم العدو باتجاههم. في الملجأ كان يجلس على الأرض آمر اللواء، المقدم الركن سلطان إبراهيم العلكاوي، وضابط ركن الحركات الرائد الركن ستار، وضابط ركن الاستخبارات الرائد

الركن ح. الذي التحق تواً بهما قادماً من إجازته الدورية في ناحية العلم بصلاح الدين، علاوة على ضابط الركن الكيماوي النقيب همام (اسم رمزي) الذي كان شبه مضطجع معهم، وشحوب الموتى يخيم وجهه.

أديت التحية وأنا منحنى داخل الملجأ الذي عمته رائحة كريهة، فبادرني آمر اللواء بالقول: ملازم ملهم، في مقر الفوج الثاني يوجد أسير إيراني، اذهب لهم، وخذ الأسير منهم، وعد إلى مقر اللواء في عتبة، ليعمل لك ضابط الركن كتاب إخلاء له، ثم خذه وسلمه إلى مقر الفرقة 11.

سألت ضابط ركن الحركات هامساً عن مكان مقر الفوج الثاني، فوصف لي أن اسير مع الساتر إلى جهة اليمين، وقبل الوصول إلى طريق الشلامجة الدولي المعبد، سأجد مقر الفوج الثاني.

سرت بموجب الوصف، والقذائف والرمي الخفيف المتقطع يجبرني على الانبطاح كل بضع دقائق، وبعد نحو نصف ساعة من السير تراءى لي طريق الشلامجة الدولي، وعليه مدرعة محترقة تتصاعد منها النيران والدخان الأسود. سألت ضابطاً برتبة ملازم، جلس إلى دكة رمي رشاشة متوسطة بي كي سي وهو يدخن عن مقر الفوج الثاني، فأجابني اني الآن أقف في المقر، سألته عن مساعد الفوج فدلني على ملجأه، وذهبت إلى مساعد الفوج وكان صديقي الملازم أول علي حسين وهو من أهالي كربلاء، فوجدته متجهم الوجه شاحباً بسبب عدم النوم، وتلقاني بإنهاك، فسألته عن الأسير المذكور، فرد إنه في ملجأ الاستخبارات، وخرج ونادى بصوته على جندي منهم، وأمره بجلب الأسير، فجاءوا به بعد دقائق، كان من حرس الثورة بسروال أسود كردي، وقميص مرقط من بدلة صحراوية، ويضع لحية سوداء، وهو مصاب في ساقه اليسرى، وقد نال منه الخوف والإنهاك كل مأخذ.

سلموني الأسير مقيد اليدين، وسلموني كتاباً به معنوناً للواء (لنا) وكان عليّ أن آخذه سيراً على الأقدام في هذا الجحيم.

بدأنا مسيرة العودة إلى ساتر الدبابات، مقر اللواء المتقدم، وكانت رحلة صعبة، فهو لا يقوى على السير لأنه جريح ويضلع طيلة الوقت، وكان علينا أن نسير بخط متعرج، وننبطح مع زعيق كل قنبرة وقنبلة قريبة. في منتصف المسافة، بلغ صبري آخر حدوده، فنحن في فم الموت، وعلي أن أوصل هذا الجندي المعادي الأسير إلى مقر الفرقة، فكرت مع نفسي، ماذا لو قتلته الآن، وتركته حيث هو وأعود إلى اللواء فأبلغ عن مقتله برصاصة أو شظية معادية، وينتهي الأمر؟

نظرت في وجهه، فكانت نظرات الذل فيه تتوسل إليّ، وكأنه عرف ما يدور في خاطري، فبدأ يتمتم أدعية. لبثنا ممدين على الأرض، وأنا أفكر مع نفسي في القرار المخيف، هل أقتله

وأعود راكضاً، أم أواصل الرحلة الصعبة معه؟ بقيت أحدق في وجهه، وأفكر مع نفسي ماذا أفعل، ثم عدلت عن قراري، وقررت أن آخذه معي إلى مقر اللواء ثم إلى مقر الفرقة. بعد نحو نصف ساعة عدت به إلى مقر اللواء الجوال، وسلمته إلى مقدم اللواء، فأمر أن اذهب به بسرعة إلى مقدم لطيف، معاون آمر اللواء لشؤون الإدارة والميرة في قرية عتبة، وأسلمه له، على أن يتولى مقدم لطيف إرساله إلى مقر الفرقة، مؤكداً وجوب أن يرافق الأسير ملازم سعد الضابط الإداري. وهكذا اتيح لي أن اغادر أرض المعركة لأذهب إلى عتبة وهي تروي جانباً آخر من مأساة المحمرة المريعة.

***

أنا والأسير بمواجهة علي حسن المجيد!

في مدخل قرية عتبة، بوابة جحيم المحمرة، استوقفتنا مجموعة من الرفاق ببدلات زيتوني دون رتب أو شارات عسكرية، مسلحين بالبنادق والمسدسات، يسألون عن وجهتنا. كانت تلك مفارز تعقيب الهاربين، واجبها إعدام كل عسكري منسحب دون محاكمة، وبدأت محنة أخرى.

فتح الباب من جهة السائق رجل في الأربعين بيده بندقية ويرتدي بدلة زيتوني دون رتب، خاطب السائق بخشونة" أبو خليل منين جاي؟"، أشار السائق إلى الخلف حيث أجلس مع الأسير، وقال "من لواء 23 متقدم".

تجاهل الرجل اشارته وعاد يسأله: وين ورقة العمل، ومن سمح لك بالنزول؟

فقال علي البصري بصوت مسموع: اسأل الضابط الجالس في الخلف؟

تقدم الرجل إلى الخلف، وفتح الباب من جهة الأسير في الخلف، ولم ينتبه له، بل نظر إلي بتحدي، وهو يسألني: من أين أنتم قادمون رفيقي؟

فهمت الإشارة، أنهم الرفاق، فقلت له، من مقر لواء 23 المتقدم في الشلامجة، ومعي أسير ايراني أريد تسليمه إلى الفرقة.

أنتبه لكلماتي ونظر إلى الأسير باحتقار وسأله: ها وين تريد؟ راح نوديك للبصرة...مو جاي تحتل البصرة، خوش راح ترتاح عندنا!

ثم التفت إلي وقال: رفيقي إذا ممكن كتاب الإرسال؟

سلمته كتاب الفوج الثاني المعنون إلى اللواء، وبقيت في مكاني ريثما ذهب إلى مجموعة رفاق واقفين، وكلّمهم ثم سلم أحدهم كتاب الفوج، فنظر أكبرهم باتجاهنا، فعاد الرفيق إلينا وقال لي: رفيقي تفضل عندنا.. الرفيق المسؤول يطلبك.

سألته: من هو المسؤول رجاء، ما هو منصبه؟ وكان قصدي التأكد من عدم حدوث سوء تفاهم، لأنّ المدنيين لا يحق لهم مساءلة العسكريين.

قال: الرفيق من المكتب العسكري.

ترجلت من السيارة، وسرت باتجاه الجوقة المدججة بالسلاح ولا أعرف إن كانوا رجال أمن أم استخبارات، أم مجرمين أم دجالين، فهم لا يحملون رتبة، ولكني قررت مع نفسي أن أؤدي التحية لأكبرهم، ثم أساله لو اتيحت لي الفرصة. وصلت عندهم ، فأديت التحية، فرد

عليّ أكبرهم، وكان بيده اليمنى مسدس، وباليسرى سيكارة، رد باليد اليمنى نصف تحية مع مسدس! ثم بادرني بالسؤال: هذا الكتاب مالكم من الفوج الثاني إلى مقر اللواء 23، وأنت تقول أنك تريد أن تذهب بالأسير إلى مقر الفرقة... وين سلسلة المراجع، شلون تذهب من الفوج إلى الفرقة؟

أجبته وقد جف ريقي: عفواً رفيقي...ممكن أسأل منو جنابكم، من يا جهة، من الفرقة أم من الفيلق؟

نظر إلي منزعجاً، فشعرتُ أن نهايتي قد دنت، وندمتُ لأني سألت، ثم قال بحدة بصوت صدئ لكثرة التدخين: أي حقك، تريد تعرف، أخي نحن المكتب العسكري...هسه شتكول؟

آنذاك لم أكن قد رأيت علي حسن المجيد لا في الحقيقة ولا في صورة ولا في التلفزيون، لكني لحظت أن محدثي يشبه صدام حسين، وقدّرت أنه من اقاربه، ولم أتردد في الإجابة بالقول: في مقر اللواء الجوال ليس عندنا قلم، لذا أنا ذاهب بالأسير إلى مقرنا الخلفي في عتبة، حيث قلم اللواء، ومنهم سآخذ كتاب اللواء، وأذهب بالأسير إلى مقر الفرقة 11، ونحن بأمرتها.

التفت إلى رفيق بقربه، وشوش له شيئاً، واعتقد أنّه أيّد له وجود مقر اللواء في عتبة، فالتفت الرفيق "المسؤول" إليّ، وسلمني الكتاب وهو يقول: خوش، توكل بالله، أذهب في طريقك، وعد بسرعة لإخوانك في خطوط النار...الوطن يحتاجكم.

أخذت الكتاب منه، وأديت التحية، ورجعت إلى السيارة، وركبت وأوعزت إلى السائق بالحركة، ونظرت إلى وجهه فكان شاحباً قد سبح بالعرق، وانتبه إليّ فقال: سيدي هؤلاء جماعة الإعدامات، الله سترنا.

لم أرد عليه، وسارت السيارة بنا بضع مئات من الأمتار بين بيوت القرية والنخيل والقذائف التي تتساقط بلا مناسبة في كل مكان، حتى وصلنا مقر اللواء، فتلقانا في باب المقر المقدم لطيف، وأبدى فرحه بسلامة وصولنا، فأريته الأسير وطلبت منه أرسال الأسير بكتاب إلى الفرقة، وابلغته تأكيد مقدم اللواء بضرورة مرافقة ملازم سعد له.

نظر إلي بحيرة، ثم قال، ليس عندي سيارة ولا ضابط يرافقه، لم لا توصله أنت؟ مقر الفرقة يبعد 5 كيلومتر عن هنا، انزل به لحظة لنراه، ونعمل الكتاب، واستريح واشرب شاياً ثم اذهب به بالسلامة، على الأقل سيقولون: لواء 23 جلب أسيراً.

قلت له: كما تشاء، وأخبرت السائق، أن يجلب الأسير إلى مقر اللواء، وذهبت لأجلس في غرفة المقدم لطيف، التي هي غرفة مدير الناحية أو شيء من هذا القبيل. وعاد المقدم بعد

أن أوصى بشاي لنا. سألته عن مفارز الإعدام الواقفة في مدخل عتبة ورويت له ما جرى معي، فقال وهو الرفيق المخضرم : إنّه الرفيق علي حسن المجيد.

سألته من يكون علي حسن المجيد، ولم أكن قد سمعت باسمه، فأجاب أنه "ابن عم الريس" عضو مكتب عسكري، ومن حسن حظك لم يغضب منك، فهو يعدم بلا سؤال!

شربت الشاي، وأخذت الأسير والكتاب إلى مقر الفرقة، ، حيث طُلب مني إرساله إلى مكتب الاستخبارات، وهناك تلقاه منتسبو المكتب، ونظموا لي كتاب تأييد الاستلام ووقعه ضابط ركن الثاني استخبارات الفرقة.

في طريق العودة إلى اللواء، مررت بالجسر المؤدي إلى عتبة، فهالني منظر مرعب دامٍ، ثلاثة جنود، ربطوا أسفل الجسر إلى جذوع النخيل، وتواً انتهى من قتلهم فريق علي حسن المجيد، كان الدم ما زال ينزف طرياً، وجثثهم قد تهدلت مدلاة من جذوع النخل، مثل اكياس لحم بائت! وحول المكان وقفت نسوة وأطفال وشيوخ من ناحية عتبة، وقد لفهم الرعب، وكانت بعض الفتيات والنسوة يبكين بحرقة، ويصرخن خائفات. وانتبهت إلى جندي من حضيرة انضباط لوائنا، يصعد من عندهم، وهو يعيد صمام أمان بندقيته، ما يدل على انتهائه من الرمي تواً، هو أذا واحد من فصائل الإعدام الحزبية سيئة الصيت! إنه عبد ال... وأهله من بغداد، مشروع الوحدة، وقد هرب قبل فترة، وانعقد مجلس تحقيقي للغياب بحقه، كيف بات جلاد الحزب؟

وعرفت فيما بعد أنه قد التقى أحد أبناء منطقته وهو من ضمن الرفاق العاملين في فريق الإعدام، وترجاه أن يسحبوه معهم، ليخلص من جحيم الجبهة واحتمال نقله إلى وحدات اللواء القتالية بعد أنجاز المجلس التحقيقي الخاص بغيابه، وكان له ما أراد، فبات جلاداً.

بقي في ذاكرتي منظر الجنود القتلى الثلاثة المشدودين إلى جذوع النخل، بسلك مخابرة د 10، وهو شديد القوة، يمنع تساقط جثثهم التي ثقّبها الرصاص. كان منظراً يجعل العراقي يعيد النظر في انتمائه لوطنه، إنهم يُعدمون لأنهم هربوا من حرب القادسية وقراراتها الصبيانية الجائرة، إنهم يعدمون لأنهم لم يدافعوا عن الرئيس وعائلته وعشيرته و...وطنه، فهو بالتأكيد ليس وطنهم، فالوطن لا يمنح بنيه رصاصات تحرمهم من حق الحياة، وتُلحق العار بأسرهم. هم حرموا من حق الحياة، لأن لا أحد يجرؤ أن يقول للإمبراطور بملابسه الجديدة التي تصفق لها الجموع الخائبة...أنت عارٍ يا سيادة الإمبراطور*.

لا أحد يقول للرئيس أن جيشنا لا يكفي لمسك آلاف الكيلومترات من الأراضي التي احتلها، ولا يملك أسلحة تليق بحرب بات عمرها 3 سنوات! لا أحد يقول للرئيس، أنها قادسيتك، فاذهب وقاتل بها مع عشيرتك الأقربين، فهذا ليس شأننا!

---

*اشارة إلى قصة ملابس الامبراطور الجديدة التي انتشرت من التاريخ الصيني عبر العالم، حيث بقيت حشود الشعب، تتأمل الامبراطور العاري، وهو يتخطى بين الناس، فيما يسير خلفه حاجبان، يرفعان ذيل ثوب وهمي لا يرتديه، ليقنعوا الناس أن الامبراطور يرتدي بذلة فاخرة، لكنهم لا يرونها، والجموع تصفق وتهتف لجمال بدلة الامبراطور الجديدة، حتى خرج طفل من بين الجموع، وصرخ بأعلى صوته: "لكن الإمبراطور لا يلبس شيئا، الإمبراطور عارٍ"!

فتعالت همهمات بين الجماهير، ثم تبعها ضحك صاخب من الجموع، وبدأت السخرية من الامبراطور العاري، فيما خجل حتى الحاجبان اللذان كان يرفعان ذيل الثوب الوهمي، وتركا عملها، وانخرطا مع الجموع وهما يضحكان!

***

محطة استراحة إجبارية من جحيم المحمرة!

منذ أسبوع نحن بلا ماء، حوضية نقل الماء الخاصة بمقرنا دمرتها قذيفة، وفرّ سائقها العريف المطوع المشاكس من الخدمة، فبقي الجيش عطشاناً في قيظ حزيران بين البصرة والمحمرة. عطش النهار لا تطفئه ليالي الرعب.

في اليوم الثالث عشر على أبواب المحمرة، تلاشت قوة الوحدات، ووصلت نسبة الغياب والهروب إلى 40 بالمائة. غالباً، كل من ينقل جريحاً إلى المستشفى، لا يعود لوحدته بل يذهب إلى البيت أو يتوارى.

القطعات قادة وآمرين وضباطاً وجنوداً، لا يعرفون واجباتهم، وفرق الإعدام تترصد الناجين من القتل في الحرب أو الأسر، فتعدمهم، ويا للمفارقة، ليس أمامنا سوى أن نموت أو نموت بلا معنى.

نحن نقاتل في حرب لم نعرف لماذا بدأت، ولم نختر أن نكون فيها، وليس لنا أن نشارك في قرار إنهائها، نحن مجرد رصاص وتروس في ماكنة الحرب، ومثلنا الإيرانيون مقابلنا، لكنّ تفوقهم العددي الساحق علينا، يبدو أنه سيحسم الحرب، ويمنحهم نصراً بطعم هزيمة الدم.

كانت خيبتنا الكبرى حين وزعت سيارات فاخرة للضباط، ومنحوا قطع أرض سكنية وقروضا لبنائها، فيما منح الضباط القادة قطع أرض زراعية اضافة للقطع السكنية ليقيموا عليها مشاريع زراعية انتاجية ! وبقينا نحن الاحتياط والمجندون خارج بركات القيادة، وهناك قصة متداولة في الجيش لا أعرف مدى صدقها، لكنّ يقال إنّ أحد الجنرالات، سأل صداماً وهو في مزاج رائق، لماذا لا تشمل مكارم القيادة الضباط الاحتياط والمجندين؟

فضحك "عمود البيت" ضحكة عريضة اهتزت لها أكتافه، ويا للعجب كيف يهتز كتف الرجل وهو يضحك، ثم أنزل سيكاره الكوبي الفاخر من شفتيه وأجابه:

القضية مثل بيت عدهم كونه (معركة)، أهل البيت زلم ونسوان يفازعون ويكاونون (يحاربون)، وياهم يكومون (يقوم) بعض الجيران الطيبين ويفزعولهم (يقاتلون معهم) العسكر هم أهل الكونه، أما المجندون والاحتياط ضباطاً وجنوداً فهم جيران أهل الكونه.

لو صدق هذا الكلام فهو تزوير مطلق للحقيقة، فمن قاتل العدو هم الجنود المكلفون والاحتياط يقودهم الضباط المجندون والاحتياط، من الدورة 26 وصولاً إلى الدورة 38. نسبة الجنود وضباط الصف المتطوعين إلى نسبة المكلفين والاحتياط لا تتجاوز 8% من عديد الجيش.

كنت تحت جسر الشلامجة المشتعل كالجحيم، أتذاكر مع ما تبقى من عقلي بهذه الخواطر، وأمسك نفسي وأنا في الرمق الأخير، أن انفجر وأطلق العنان لغضبي. في كل لحظة أفكر في الخطوة التالية بعد لحظة، هل أنجو من هذا الجحيم، ماذا لو أسرت وذهبت لدولة المعممين الملائية؟ الصلاة والصوم واللطم عندهم فروض اجبارية وخاصة في أوساط المقاتلين!

أكثر سؤال صعب يلح علي: لماذا لا يستثمر الإيرانيون نصرهم الساحق في المحمرة (قتلوا أكثر من 10 آلاف جندي عراقي، وأسروا 20 ألف كما تقول أرقام تتداولها ألسن القوات المسلحة)، وفي كل هجمة على قواتنا يكسبون أرضا، حتى وصلوا إلى حدود البصرة، لم لا يستثمرون النصر ويحتلون البصرة؟

خلال هذه التداعيات، تتساقط القذائف والرصاص على الجسر، وقد تواريت تحته، في أقصى زاوية من انفتاح مقر لوائنا أو ما تبقى منها. جاءني أحد الجنود راكضاً، وأخبرني أن مقدم اللواء يطلبني بشكل عاجل، ذهبت إليه، فسلمني ظرفاً كتب عليه "سري للغاية وشخصي وعلى الفور" وطلب مني أن اذهب به إلى رئيس أركان الفرقة 11 فوراً.

خرجت لا ألوي على شيء، وعلى مدخل عتبه، أوقفتني مفارز علي حسن المجيد، وسألوني عن وجهتي، فأريتهم الكتاب، وظهر بينهم جندينا عبد ال... فهمس في اذن أحدهم، وتركني الآخر أمضي في طريقي.

في مقر الفرقة، ذهبت إلى غرفة الحركات، وسألت عن رئيس الأركان، فأدخلوني الى قاعة مبردة بشدّة كأنها صالة سينما أنيقة في يوم صيفي. شاهدت ضابطاً برتبة عقيد ركن، أبيض الوجه، رقيق الملامح، أنيق المظهر بقيافة زيتوني مكوية بعناية، وقد جلس إلى منضدة الحركات، وهو يقرأ في مجلة أو شيء من هذا القبيل، وحين أديت التحية وقدمت نفسي بصوت عالٍ، نظر إلي باحتقار وقال "ما هذا الوضع، كيف تسمح لنفسك وأنت ضابط أن يكون مظهرك بهذه البهذلة؟"

وكان علي أن أمسك أعصابي، لئلا أشهر مسدسي وأقتل هذا الضابط اللئيم في مكانه، وتماسكت ولجمت غضبي فأجبت بعبارة قوية متحدية" للأسف سيدي ، لم تنشأ لنا حمامات في الشلامجة، لذا لم استحم وأكوي بدلتي لآتيكم بما يليق بكم!"

نظر إلي بتحدٍ، ثم تجاهل ردي وقال بحدة: تفضل ماذا تريد؟

مددت يدي بالمغلف محاولا إيصاله له.، فلم يرفع يده بل قال باحتقار" نعم، نعم، سلمه إلى قلم الحركات"!

قلت لـه وقد بلـغ حنقـي أشـده: إنـه سـري للغايـة وشخصـي وعلـى الفـور، هـل أسـلمه لقلـم الحركات، ومن يعطيني كتاب الاستلام إذا؟

نهض من مقعده واقترب مني، فأخذ الكتاب بيده ثم نظر إليه، وقال مخاطباً نفسه أكثر من توجيهه الحديث إلي" في النهاية لن يفتحه سوى القائد، إنّه شخصي وسري للغاية، والقائد الآن ليس موجوداً!"

سارعت أقول له" طلب مني آمر اللواء إيصاله إلى رئيس الأركان شخصياً!"

نظر في وجهي وقال" أنا رئيس الأركان، وصل الكتاب أخي، شكراً لك!"

قلت" أريد كتاباً يؤيد استلامكم الكتاب، ويعيدني إلى وحدتي، الطريق تسيطر عليه مفارز مقاومة المتسللين!"

قال غاضباً بصوت عالٍ" أخي لا أستطيع أن أفتح الكتاب لأنه شخصي، يعني بريد السيد القائد، ولكي أعطيك كتاب استلام، لابد من الإشارة إلى رقم وتاريخ كتابكم، فماذا نفعل؟؟ " كانت الدماء قد تصاعدت لوجهه بسبب غضبه، فيما اشتعلتُ غيظاً لهذا الروتين الذي يتجاهل حياة الناس، فقلت يائساً:

"متى يمكن أن يراه السيد القائد، سأبقى انتظره هنا في مقر الفرقة، يا سيدي أنا لا أستطيع عبور جسر عتبه دون كتاب، مفارز مقاومة المتسللين لا تسمح لأحد بالعبور، كما أن كتابنا سري وشخصي، لابد من أجابته بكتاب يؤيد الاستلام ".

قال بصوت عالٍ: يا أخي القضية قانونية، لا أستطيع أن افتح مغلف معنون شخصي! انتهى الأمر. تفضل أفعل ما تشاء!

أديت التحية، وخرجت حائراً، ثم قررت أن أنتظر وصول القائد، فذهبت إلى غرفة ضباط الارتباط، وهي ملحقة بقاطع الحركات، ووجدت فيها ضابطين، أحدهما ضابط من دورتي هو الملازم م. من مقر لوائنا (ضباط الارتباط وظيفة يقوم بها ضباط من مقرات التشكيلات، منسّبون الى قيادات الفرق والفيالق خلال المعارك، وتتلخص في نقل الرسائل بالغة السرية والشخصية بين المقرات) . جلست اتحدث لهما وأشرح محنتي الصعبة، فاستماحا له العذر في تلكؤه بسبب الظروف الصعبة التي يمر بها الجميع.

ثم سألتهم من يكون رئيس أركان الفرقة فأجابني ابن دورتي إنه عقيد ركن فوزي حميد العلي.

بقيت عندهما نحو ساعتين، حتى سمعت صوت سيارات تقف أمام غرفة الحركات، ثم صوت تحيات وقرع أحذية شديدة على الأرض وقبضات تضرب أعقاب البنادق بشدة، فاستنتجت أنه موكب القائد، انتظرت نحو ربع ساعة حتى دخل الموكب وهدأت الحركة.

فسألت صاحبي من يكون قائد الفرقة 11، فأجاب إنه "الفريق الركن محمد عبدالقادر، وقد التحق بمنصبه منذ 3 أيام".

بعد نحو 10 دقائق، ذهبت مرة أخرى إلى غرفة الحركات، فمنعني الحرس والانضباط من الدخول لوجود السيد القائد، فأكدت لهم أني جلبت كتاب شخصي من لواء 23، وأريد كتاب استلام وكتاب إعادة لي فقد تأخرت عن اللواء، وأكدت عليهما أني هنا منذ 3 ساعات بانتظار الكتاب!

دخل الانضباط، وعاد بعد دقائق ليقول لي "يقول السيد رئيس الأركان، خذ كتاب الإعادة من قلم الحركات".

ذهبت إلى قلم الحركات، فقال نائب الضابط المسؤول عن القلم إنه لا علم له بما جرى، فرجوته أن يذهب إلى رئيس الأركان، ليأخذ منه صورة الكتاب ويعد ديباجة كتاب عودتي، لأني هنا منذ 3 ساعات.

ذهب الرجل، وعاد خلال دقائق، وهو يخبرني أن الكتاب في بريد القائد، وغير معلوم متى ينظر القائد في بريده!

أسقط في يدي، ولم أعد أعرف كيف أتصرف. فخرجت من قلم الحركات، وذهبت إلى ملجأ ضباط الارتباط، وطلبت من الملازم م أن يؤمن لي اتصالاً هاتفياً مع مقر لواء 23، فأخذني إلى أحد الملاجئ، واتصل ببدالة الفرقة وطلب منها مقر اللواء، وتكلمت مع بدالتنا، وطلبت مقدم اللواء، ورويت له ما جرى، فسألني من هو رئيس أركان الفرقة، فأجبته أنه عقيد ركن فوزي حميد العلي، فطلب أن يكلمه، وقلت لزميلي أن يحولوا مقدم اللواء إلى رئيس أركان الفرقة، وبعد نحو ربع ساعة، اعدت الاتصال بمقدم اللواء، واستبينت منه الموقف فأعلن أنّ علي الانتظار حتى يرى السيد القائد البريد، وهكذا عدنا إلى نفس النقطة. ثم قلت لزميلي ضابط الارتباط أين يمكن أن أستريح، لاسيما أنه من أهل البصرة، وعرضت عليه أن ننزل الى البصرة كي استحم، وآكل شيئا مادام من غير المعلوم، وضع البريد في الفرقة.

رحب الرجل بمقترحي، ورافقني بسيارتي إلى البصرة، حيث استضافني في بيته قرب ساحة أم البروم. وأرسلت سائقي علي، وهو بصري أيضاً، في استراحة عند أهله في حي الجمهورية، واسترحنا في بيت صديقي وابن دورتي وابن لوائي حتى الساعة السادسة مساء. كانت القذائف تتساقط على البصرة، والوجوم والخوف يخيم على الناس. تناولنا طعام الغداء، وأخذت دوشاً، وأسمعني أشرطة كاسيت لأغان فؤاد سالم، وأغان خليجية، في جو بصري مفعم بالود، فخرجنا لأربع ساعات من جو الحرب، ولا يتخيل الإنسان، أنّ حربا طاحنة تدور على بعد 10 كيلومترات من هذا المكان.

في السادسة عدنا معاً إلى مقر الفرقة، وذهبت إلى قلم الحركات، فوجدت كتاب الاستلام وكتاب عودتي جاهزين، أخذتهما وذهبت إلى مقر اللواء، كان الوقت يقترب من الغروب حين وصلت جسر عتبه المخيف، ومرة أخرى صدمني منظر الإعدام الرهيب، فعلى نخلتين تهدلت جثتا جنديين ترك الرصاص فيهما عشرات الثقوب الدامية. قرب الجسر كانت صبية في الرابعة أو الخامسة عشر من العمر، تلطم على رأسها، وتهيل من الأرض تراباً وتحاول أن تلقي بنفسها تحت عجلات السيارات والدبابات المارة من وإلى الشلامجة، فيما التأمت حولها مجموعة نسوة، يندبن وهن يمنعنها من الانتحار اليائس. يبدو أن أحد القتيلين من أسرتها. يمر الجيش المهزوم بهذا المشهد ليل نهار، والرعب يفاقم الهزيمة. سياسة الدولة إرعاب الجيش لإجباره على القتال، وسياسة الجيش الفقير الاستسلام للعدو.

وصلت مقر اللواء، فأعادني المشهد المخيف إلى ما نحن فيه، لكن الغريب، أن شدة الرمي والقصف قد خفت إلى حد كبير.

تلك الليلة، خيم على آلاف القطعات المهزومة المنهكة المرتمية خلف السدة الحدودية صمت لا يقطعه سوى رشقات رصاص أو قذيفة هاون تسقط هنا وهناك. هدوء الليل أجبر الجيش المتعب المهزوم أن ينام، الجبهة بأكملها كانت نائمة. ويخرج بين حين وآخر مقدم اللواء، وهو يصرخ" "يول أين الحراسات، يول هسه يهجمون علينا ويذبحونا، يول العدو قريب، قريب جدا".

ولكن الرائد الركن ستار، كان بين النائمين والنقيب همام، بل كل القطعات أمامنا التي تمثل حجابات القطعات كانت تغط في نوم مشوب بالرعب. في نحو السابعة صباحاً ظهر آمر اللواء بيننا، وتكلم بهدوء مرتبك مع مقدم اللواء، ثم غادنا بسيارته، وبقينا نحصي ما تبقى لنا من لحظات الحياة في يوم كئيب غامض آخر.

***

جهاز لاسلكة آر 105 روسي للاتصال القريب

ليلة النشوة والعودة إلى الوادي الخصيب!

دون سابق إنذار، فُتحت في الأفق بابٌ للأمل، إذ صدر الأمر بانسحاب لوائنا إلى منطقة النشوة للتجمع وإعادة التنظيم. وبدأنا نتحرك وتتحرك وحداتنا والجميع يتسابقون للوصول إلى الفردوس المزعوم!

سياسياً، ساد الجميع شعور بأنّ الأمور بدأت تصل نهايتها، البصرة التي كانت تبدو على وشك أن تذهب للإيرانيين، باتت في أمان، أو هكذا تخيل كثيرون، أما أنا ففي اعماقي كان يدب إحساس قوي أنّ أمامنا أيام سوداء لا نهاية لها.

بدأنا نتجمع في بساتين النشوة، تحت النخيل تدخل سيارات العسكر الكبيرة والصغيرة، وتخرّب الحقول المملوكة لعراقيين من أبناء البصرة. تلك الليلة لم نستطيع النوم، بسبب الحر والحشرات اللاسعة، النوم محال في البساتين صيفاً، وهكذا مرت علينا ليلة أخرى من عدم النوم والقلق.

ضحى اليوم التالي، وصلنا أمر جديد بالتحرك إلى مواقعنا السابقة في حوض سربل زهاب. قراءتي كانت، أن الإيرانيين على وشك أن يشنوا هجوماً جديداً في القاطع الأوسط، لإجبار القوات العراقية قليلة العدد على الانسحاب بسرعة لحماية خاصرة بغداد (في بعض امناطق القاطع الأوسط تبعد العاصمة 90 كم جواً عن الحدود الإيرانية). وخلال هذا الوقت سيشنون هجوماً على البصرة ويبتلعونها دون قتال. في ضوء وضع الانهيار الذي شاهدته، يكفي لواء مدرع واحد معزز بفرقتي مشاة لاحتلال البصرة وحتى آبارها النفطية وصولاً إلى القرنة شمالاً.

بدأت أرتال الجيش تنسحب شمالاً بسرعة، ولم يتح لقيادة اللواء الوقت لترتيب محطات التنقل، إلا أن أمراً صدر للضباط الإداريين بإعداد وجبة طعام ساخنة في الساعة 11 ليلاً تستقبلنا في مدينة الكوت.

حين تحرك مقر اللواء، كان أغلى أحلامي، أن آكل وجبة ساخنة، واستحم بهدوء، وأنام ملء جفوني بلا حشرات، لكنّ هذا الحلم أمامه طريق طويل حتى الوصول إلى مواقعنا في سربل زهاب!

وصلنا ليلاً مدخل مدينة الكوت، وتناولنا وجبة الطعام الساخنة، لكن حلم النوم ما زال بعيداً جداً. وسرعان ما تحركنا متجهين إلى الشمال. عند مفرق الدبوني وصلنا أمر بأن نبيت في المقر الدائم للواء 32 قوات خاصة (في منطقة تبعد نحو 50 كم شمال الكوت باتجاه بغداد)

لأنّ دخول قطعات مسلحة إلى العاصمة ممنوع ليلاً، ولابد من الإشارة هنا إلى أن اختيار هذا المقر للمبيت قد تم بناء على أن آمر لوائنا الحالي قد جاءنا من هذا اللواء.

لكن الدخول إلى مقر لواء دائم، بجيش محمول عائد من المعركة قد يخلف مشاكل كبرى، وهكذا اكتفى آمر اللواء وبعض هيئة ركنه بالمبيت في مقر اللواء، وترك الجيش لينام في العراء الجميل البارد الخالي من لسع الحشرات. فتصرف مقدم اللواء بالموقف، وأمر أن نعسكر ونبيت الليلة عند مشروع معمل الشتايكر على مفرق الدبوني الصغير أو شيء من هذا القبيل.

مهدت فراشي (اسمه بلغة الجيش يطاغ، وهي كلمة تركية) على كدس شتايكر، ونزعت حذاءي وجوربي، وتمددت تحت بدر يغمر المنظر الذي وجدته حولي، كل ما أراه هو أضواء مدينة بعيدة، وبرج التلفزيون أو الاتصالات القريب، والبدر الفضي، ولم أعرف كيف نمت، لكنها كانت أجمل نومة في حياتي.

بعد بضع ساعات أيقظتني جلبة الحركة، الجند يحملون يطاغاتهم والجميع يستعدون للحركة. ومشى الرتل في نحو الثامنة والنصف صباحاً، تنقل الأرتال بطيء عادة، وعليه أن يتوقف في مثابات معينة، في نحو الواحدة ظهرا دخلنا بغداد، كان بي شوق كبير لرؤية أهلي وأحبتي، لكنّ الشوق أطفأته حركة الرتل الصاعد باستمرار.

في السابعة مساء وصلنا المنطقة الإدارية للفرقة الثامنة في سهل خانقين الغربي. كانت الأوامر غير واضحة، هل نترجل هناك، أم ماذا نفعل؟

الحقيقة أن البلد برمته كان حائراً، فالحرب بدأت تهدد مدن العراق، والجيش، كما هو واضح، لا قدرة له على المطاولة، ماذا ينتظرنا إذا؟

وانقضت أيام ونحن بين حال التنقل إلى الجبهة لإبدال قطعات المهلهلة التي احتلت مواقع لوائنا في حوض سربل زهاب وبين توقعات الجميع بصدور أمر حركة نحو الجنوب مرة أخرى بسبب وخامة الوضع هناك. ثم أعلن بيان الانسحاب للحدود الدولية، والذي تقرر أن يتم العمل به في 30 حزيران 1982. وكنّا في العشرين من حزيران حين صدر البيان، وهذا يعطي للقطعات 10 ايام لإتمام عملية الانسحاب، لكنه من الناحية العسكرية يعطي لإيران امكانات القيام بهجمات مباغتة على القطعات المنهكة غير المستقرة المشغولة بفكرة واحدة لا غير: "ننسحب إلى الحدود الدولية وتنتهي الحرب"! ولو هجمت القوات الإيرانية في تلك المرحلة، لحققت انتصارات كبرى وأسرت أعداد لا حصر لها من الجنود، لكن الإيرانيين كانوا ضعفاء ومرتبكين وبلا قيادة ولا استخبارات، لذا لم يستثمروا هذا الخطأ الاستراتيجي الفاحش.

الانسحاب إلى الحدود الدولية في نظر الجميع خلاص قريب من لعنة الحرب، لكنه لن يجري غالباً إلا بثمن باهظ.

صدرت الأوامر بإقامة مواقع بديلة للقطعات على الحدود الدولية، وبدأت رحلتنا مرة أخرى مع المعدات الهندسية (شفلات، ترنبولات، كريدرات، حادلات وما الى ذلك) حيث أن كل الجهد الهندسي كان متوجهاً إلى قواطع العمليات الأكثر سخونة، واعتبر قاطع سربل زهاب هادئاً، فلا يحتاج العمل في تحكيماته وخنادقه جهداً كبيراً. وفجأة وسط جهد الهندسة وبناء المواضع، صدر أمر فوري بانسحاب اللواء إلى منطقة الدبس بكركوك لأغراض إعادة التنظيم وتعويض الخسائر.

وهكذا انسحبنا من قاطع سربل زهاب، قبل أن تنسحب القطعات إلى الحدود الدولية، وذهبنا إلى الدبس لتبدأ مناهج التدريب العقيمة، وتعويض الخسائر الشكلي، حيث أن مخازن الجيش كانت لا تملك تعويض النقص الحاصل في كل شيء.

وقبل أن ننغمس في التدريب، صدر أمر إحالة آمر اللواء المقدم الركن قوات خاصة سلطان إبراهيم العلكاوي إلى التحقيق، وجرى إيقافه عن العمل، فغادر اللواء على عجل. ليصبح آمر اللواء رقم 3 الذي يغادرنا معاقباً بالتعاقب خلال عامين ونصف. ولولا أنّه كان من "العمام" - بمعنى تكريتي- ومن أهل بيجي المتصلة بتكريت، لأدين بتهمة التخاذل في الواجب العسكري أثناء هزيمة المحمرة، وسيق إلى منصة الإعدام أو على الأقل إلى السجن، لكن القيادة اكتفت بنقله ثم توقيفه عن العمل، ثم أعيد إلى صنف القوات الخاصة بلا عقوبة .

آخر كتاب وقعه آمر اللواء سلطان إبراهيم العلكاوي قبل تركه لوائنا هو بقية إجازة الزواج التي وعدني بها، فأخذتها وفارقت اللواء، لأعود إليه بعد الإجازة في قصة أخرى.

***

إلى شرق البصرة ببركة رياح الخماسين الرملية

منتصف تموز 1982 ينقضّ الغبار والقيظ على الإنسان حال اقترابه من مدينة العمارة، ويتكاثف مختلطاً بالرمال وروائح دخان النفط وروائح أخرى جلّها من مزابل تمتد على خواصر المدن حيثما يممت جنوباً. شن الإيرانيون هجوماً كبيراً لاحتلال البصرة، الانسحاب إلى الحدود الدولية لم ينه الحرب، بل فتح صفحة جديدة فيها.

بقينا في الجباسي تحت النخيل، خلفنا شط العرب، وعبر شط العرب تشمخ مداخن محطة الطاقة الحرارية الخمس، ويميننا إلى أمام معمل الورق الكبير، وتلوح نيران مصافي الشعيبة جنوبنا الغربي، وحولنا بساتين النخيل. بساتين خاصة يملكها عراقيون، زرعوها، وينتظرون جنى الزرع، فقامت الحرب ولم تنته. عجلات وشاحنات ودبابات العسكر في كل مكان، وأهل البساتين في حيرة، كيف وماذا يفعلون؟ هل يعاتبون الجيش ويطردونه من أرضهم وهو الذي جاء ليحمي الأرض والعرض من غزو ايراني محتمل (وهكذا كانوا يلمسون فعلاً، فالإيرانيون يقصفونهم بالمدفعية الثقيلة منذ سنتين، وباتوا اليوم يهددون أراضيهم، واحتلوا مناطق من العراق جنوبا)؟

هل يتركون بساتينهم وبيوتهم وأراضيهم ليرحلوا؟ أين يذهبون وهذا هو كل يملكون؟

وهكذا بقوا في بيوتهم وبساتينهم مُكرَهين لا أبطالاً!

كل صباح يخرجون لمعاينة النخيل، وجنى الرطب الذي نضج ونصف الناضج منه، يتسلق كل أفراد العائلة كباراً وصغاراً، رجالاً ونساء النخيل، وينشغلون بجني حاصله، فيما يتطلع لهم العسكر باندهاش وفضول مقرون بالاستغراب، ماذا يفعلون، والعقلاء يتساءلون مع أنفسهم: ماذا نفعل نحن في أملاك هؤلاء المساكين؟

كل يوم نذهب في استطلاع لمواقع الجيش والمعارك في شرق البصرة، كان اللواء المدرع العاشر منشغلاً بطرد المتسللين شمال بحيرة الأسماك ومنطقة الكثبان الرميلة وسدة السويف، والحقيقة أن العلميات تقدمت نحو 10 كيلومترات شرق سدة السويف، لكن المنطقة خالية من كل شيء، لا قرى ولا بساتين ولا أنهار ولا عوارض، هذا على الأقل ما شاهدته شمال شرق بحيرة الأسماك فيما عرف بعمليات الاستطلاع. الغبار يغطي كل شيء ليل نهار وعلينا أن نضع نظارات واقية خاصة لنستطيع أن نفتح أعيننا في هذا التيه الرملي الصاخب.

كل دقيقة تظهر دبابة ضلت طريقها، وتصطف أمامنا كأنها تريد الدخول في سيارتنا، وكل دقيقة تصادفنا سيارة إسعاف أو شاحنة تقل جنودا أو ما شابه.

وقيل لنا أننا سنأخذ مواقع كتيبة دبابات الحسين الوحدة التابعة للواء المدرع العاشر. لكن القتال كان قائماً، وصولات لهم وجولات لنا، فاين سنجد الكتيبة المذكورة لنأخذ مكانها؟

دامت عمليات الاستطلاع نحو أسبوعين، كان آمر لواءنا الجديد العقيد غانم صالح العزاوي، يخرج منذ الصباح حتى الليل، ونحن نتبعه طيلة اليوم، ولا جديد، فمعارك الدروع لم تهدأ، ودخول لواء مشاة تائهاً في هذا السعير لن يضيف شيئاً. في هذا الوقت، تكامل انتقال الفرقة الثامنة بكل ألويتها (لواء 22، لواء 23، لواء 418 الذي حل محل اللواء 3 المنحل) من القاطع الأوسط إلى القاطع الجنوبي، واستقر مقر الفرقة وتشكيلاتها ووحداتها في بساتين نخيل الجباسي على طول الضفة الشرقية لشط العرب، وسط أملاك الناس!

بعد اسبوعين، صدر أمر الحركة لعموم الفرقة، بعد أن هدأت العمليات، وكُسر الخرق الإيراني في ذلك القاطع. كان قاطع لوائنا عرضه 4 كيلومتر، وقد توزعت عليه أفواجنا، وكان مقر اللواء بعمق يصل إلى 2 كيلومتر في بعض المناطق عن مقرات الأفواج.

استلمنا القاطع وليس فيه أكثر من خنادق شقية، وخنادق أعرض قليلا مغطاة بالصفيح المضلع، مبعثرة في شبه مربع غير محدود الزوايا. وانشغل الجميع خلال اليومين الأولين في بناء مقر لواء هو في الحقيقة ساتر مربع الشكل، تحتل واجهته الشرقية المواجهة للعدو سرية مغاوير اللواء، فيما تتوزع على باقي السواتر الثلاثة سريتا الهندسة والمقر والمخابرة.

في أركان الساتر المربع توزعت مدافع مقاومة طائرات من عيار 157، روسية الصنع، كانت بطرية كاملة يقودها م أول فيصل تستقر في المكان لمقاومة الدبابات خوفاً من حدوث خرق، لأنّ أسلحة مقاتلة الدروع لم تكن كافية، والأرض سهلة العبور بالنسبة للدبابات.

بين مدفع ومدفع وزعت رشاشات 14.5 ملم ديمتروف مقاومة طائرات الروسية. كان الخرق متوقعا في أي لحظة، وبذلت كل الأسلحة لتأمين كل شيء.

في الليلة الثانية، بلغنا باحتمال حصول تسلل للعدو، لأنّ مفارز الهندسة لم تنجز حقول الألغام والأسلاك الشائكة لحماية القطعات الساترة ولتعويق تقدم القطعات المهاجمة، وهكذا قضينا ليالٍ طوال ندور على نقاط الحراسة، ونمد الأسلاك لتأمين المواصلات، وتحولنا نحن ضباط المخابرة، نقيب عماد، م أول خلف، وأنا إلى ضباط مشاة نؤمن لمقر اللواء دوريات وتفتيش ليلي، علاوة على واجبات المخابرة!

ذات ليلة عاصفة مترية، كنت أفتش النقاط، وأطوف على نقاط الحراسة في السواتر، فلفت انتباهي ضوء ينبعث من ملجأ في قلب مقر اللواء، اتجهت من مكاني قرب الساتر في الظلام الحالك الذي تشرخه عواصف رملية ساحقة إلى مصدر الضوء، ماراً بكثبان تراكمت عليها الرمال، فتعثرتُ بشيء في الأرض، وخفت أن يكون قذيفة لم تنفجر، أنرت

مصباحي الصغير (تورج قلم شاع استخدامه بين العسكر آنذاك) فإذا هي ساق إنسان، كشفت عنها رياح الخماسين الرميلة، نظرت جيداً، فاذا بها ساق جندي إيراني (بدلته يميل لونها إلى الخاكي المخضر الفاقع)، وبجانبها التف شيء في جسده الممزق، أمعنت النظر في التراكم اللحمي الحديدي الذي يرقد أمامي في مهب رياح صحارى البصرة، فإذا هي بقية قذيفة دبابة من رمية مباشرة، أصابت جسده في مكان ما وقطعت رجله، وطارت بها لتصطدم وتستقر مع الرجل في كدس عتاد نصف مدفون!

المنظر مخيف ومقزز، فالعتاد الذي كشفت عنه الرياح قد ينفجر بأي عجلة أو شخص يرتطم به. وكان علي في ذلك الليل البهيم، أن أجلب جنوداً بمجارفهم، يصنعوا حول كدس العتاد ساتراً مرتفعاً، ويرفعوا عليه خرقة حمراء تمنع الآخرين من الاقتراب، حتى يحين الصبح وتتولى سرية الهندسة التعامل مع الموضوع.

حين انتهى واجب الدورية في الساعة الرابعة صباحاً، كانت حفرة الرمل التي يسقفها الصفيح المضلع (جينكو) هي ملجأي الوحيد، إذ لا وقت عندنا لنبني ملاجئنا، فالعدو قد يستأنف هجومه في أي لحظة، وحين نمت، بقيت مؤرقا والرمال ترسف على وجهي وفي فمي من كل جانب، وصورة الساق المقطوعة لا تفارقني.

***

مع النمل والرمل حتى بانت الحقيقة!

ثلاثة أشهر في كتيبان مقابل مخفر زيد، واسمها على الخرائط العسكرية منطقة الكثبان الرملية، شمال شرق البصرة، كان مقر لوائنا في نقطة تهب عليها رياح الصحراء الرملية الحصباء ليل نهار كل أشهر الصيف، وأضيفت إليها العواصف التي تسببها سرف الدبابات والناقلات وهي تزحف على الرمال، فكان جحيماً رملياً لا يطاق.

مع الرمال والمعارك، تعذر عليّ أن ابني لنفسي ملجأ، فبقيت في الخندق الشقي المغلف بالصفيح المضلع 100 يوم في درجات حرارة تصل إلى 60 نهاراً، وتتدنى إلى 20 ليلاً، لكن هبوب الحصباء لا يفارق هذه المنطقة الملعونة، وربما كان هذا السبب في أنها بقيت عصيّة على الإيرانيين فلم يتمكنوا من اختراقنا.

قبل بضعة أشهر، وبعد هزيمة المحمرة، انسحب عدد من المقاتلين الأحوازيين العرب وعائلاتهم من المحمرة وعبادان حيث كانوا قد شكلوا جبهة تحرير الاحواز متعاونين مع الاستخبارات العراقية "المنظومة الجنوبية" التي كان لها مقر مخصص لشؤون الأحواز، واضطروا أن يتعاملوا مع الملف الاحوازي، حتى جرى تشكيل مكتب مختص في المخابرات العامة العراقية، وفتح له مكتباً في البصرة يتولى تنسيق العمل مع عناصر الجبهة ومقاتليها، فاستقل الملف الأحوازي عن الجيش.

خلال أيام المحمرة حيث ضربت الفوضى كل شيء، التقيت ذات ظهيرة، في قرية عتبه المشؤومة، عنصراً من جبهة تحرير الأحواز، أو ما سمي حينها المقاومة العربية في الأحواز، وكان يقود سيارة بويك أمريكية بلون أخضر مغبر تعود لنهاية سبعينات القرن الماضي (يعني حديثة وغالية الثمن آنذاك)، السيارة تحمل لوحة كتب عليها " أ.ح / عراق". التقيت الرجل قرب مقر لوائنا في قرية عتبه، كان يبحث عن بنزين لسيارته، وسأل الحرس في باب مقر اللواء عن بعض البنزين، فجاءني الحرس، وكنت في زيارة للمقر أعود بعدها إلى الجبهة، فخرجت له لأسأله كيف وصلنا، وكشف لي أنهم جبهة تحرير الأحواز ويعملون مع الاستخبارات، وقد فرغ خزان سيارته ويريد بنزينا يوصله إلى مركز الاستخبارات في مكان ما من الجباسي، قلت له إني انتظر عودة سيارتي التي أرسلتها لأمر ما، وسأطلب من سائقها أن يعطيه بعض الوقود، ولكن ليس بشكل رسمي، فقط بما يكفي لإيصاله إلى مقر الاستخبارات.

وبانتظار السائق صار الأحوازي واسمه، أبو خلدون، يحدثني عن جو هذه المنطقة، لغته قريبة جدا من لهجة جنوب العراق، إلا أن بعض مفرداته ليست موجودة في لغتنا، فيقول لي أن هواء المنطقة حار في نهار الصيف جدا، ولكنه يبرد في ليل الصيف. وحدثني عن

هبوب العواصف الرملية، وكيف أنها تهب على بعض المناطق لأشهر كاملة ليل نهار، بسبب اختلافات الأجواء، حسب وصفه، وقد وصف الغبار والعواصف الترابية بأنها "عياي" بلهجة الأحوازيين (عجاج بلغة العراق).

وبعد أشهر من هذا اللقاء، ونحن نكد ونقاتل في كثبان كتيبان الرملية، تذكرت حكايا أبي خلدون، ووجهه الذي لوحته الشمس وحصباء العواصف، وتعجبت كيف يعيش الناس في هذه الأنحاء.

ملجأي التحفة، عبارة عن حفرة غير عميقة في الأرض، أبعادها متران في مترين، وسقفها بضع ألواح خشب، وصفيح مضلع، ولكي يرفعوا السقف فوق عمد ذات إرم، وضعوا صفين من أكياس الرمل تحت ألواح السقف بمحيط الحفرة، وأهالوا عليها تراباً ومن رمل الصحراء، حيث لا صخور تقويها وتفلق القنابل المتساقطة كما هي العادة في المناطق الجبلية، وهكذا أنام في هذا الجحر مرة أخرى تحت رحمة القدر. ولأتقي الرمل المتساقط من أكياس الرمل، والعفونة المتساقطة من الطبقات السفلى الملامسة لأكياس الرمل ولتجميل المكان، وضعت على الجدران، بضعة أمتارٌ من النايلون الملون، بنفسجي فاقع مورد بأبيض، حمامات وزهور !

ومع بدء شهر تشرين الأول/ اكتوبر داهمنا مطر أعقبته سيول، ففاضت الصحراء بأهلها المقاتلين، وخرجنا من خنادقنا الشقية البغيضة مثل جرذان حاصرتها المياه.

ومع الأمطار، تقطعت الخطوط السلكية، وبات علينا أن نخرج لإصلاح الشبكة، وخرجنا ولم أعد حتى الغروب، كان ملجأي غارقاً تماماً بالمياه، ورائحته مثيرة للغثيان، فنمت في غرفة صغيرة ملحقة بغرفة حركات اللواء، وهو ملجأ العلامة 3 هندسة، أعد بطريقة تناسب سكن ضابط الخفر البديل أيام المعارك، ولم يستعمله أحد، فبقي ملجأ للضيوف من الضباط.

في اليوم التالي، أشرقت شمس دبقة الحرارة، فعمت المكان البراغيث والبعوض والبرغش وأنواع من الجراد والذباب لم أر مثلها. وقرب مطعم الضباط دبت أفعى الأصلة القاتلة، هاربة من المياه وهجوم الحشرات، كما خرجت العقارب من جحورها، وباتت الجرابيع تتراكض هنا وهناك. بكل هذه الفوضى وقبل عصر ذلك اليوم، جفت المياه، وامتصت الرمال كل البرك، وتحول المشهد إلى منظر غريب. رمال الصحراء لوحة طينية مضحكة، ما إن تحفر فيها لعمق شبرين حتى يظهر الرمل جافاً صحراوياً كما هو!

المفاجأة الأكبر مع جفاف المياه هي انهيار موضعي الذي أنام فيه، فقد خسفت الأمطار بركن معبدي الرملي الوسخ، فانهار السقف على لوازمي الحبيسة في الملجأ الذي كان قبل ليلة قد غرقت أرضيته بالمياه.

وقام الجند يرفعون السقف المتداعي على الموضع، لإخراج فراشي وسرير الألمنيوم السفري الجيكي الشهير، وحقيبتي وجهاز راديو ترانزستور كان يسلي ليالي السلام في أرض المعارك، وإبريق بلاستيكي، وبضعة أقداح لتناول الشاي، وحذاء إضافي، ونعل وصندوق عتاد قديم يسير معي حيثما ذهبت، وأضع فيه لوازمي، من ملابس داخلية وشراشف، وجوارب وكتب ومجلات. وما إن بان داخل الموضع، حتى نتأت من الركن الذي انهدم، جمجة كشرت عن أسنانها! كانت مفاجأة لكنها ليست صاعقة، فنحن في ميدان حرب والجثث متوقعة ومنظر يومي، لكن أن تظهر جثة في ملجأ ينام فيه المسكين ملازم ملهم، فتلك مصيبتي التي لم يسمع بها أحد.

جلست على ربوة من طين أتأمل جثة الجندي الإيراني التي بدأت تظهر والجنود يحفرون حوله، لم تكن جثة متهتكة، بل ما زالت جثة حديثة، حتى أن أوراقه الشخصية والصور في جيب بدلته الأعلى لم تتلف بعد، كما لم يسقط كل شعره، ولم يتآكل الجلد. وأكمل الجنود الحفر، فلم يظهر أسفل الجثة! لابد أن قذيفة مباشرة قد أصابته فغيبت أو مزقت نصفه الأسفل، وألقت بنصفه الأعلى بعيدا، فدفنته الرمال التي تهب ليل نهار على هذا الموضع التعس. وأكمل الجنود الحفر، فظهرت يد الجندي، قابضة على جسم معدني، قبضة سلاح أو أنبوب أو بقايا مقود سيارة، لا أدري، لكنه جسم معدني يشبه انبوباً رصاصي اللون.

وهكذا قضيت الوقت حتى الغروب، وأنا أدقق في وثائق ومتعلقات الجثة، وأدونها وأرفعها في كتاب إلى اللواء، لكي يجري دفن القتيل أو نقله إلى خارج مقر اللواء، وهذا ما جرى قبل حلول الظلام في تلك الليلة، أما أنا فبقيت أتأمل في شريك ملجأي الوسخ للأشهر الثلاث الأخيرة...كنتُ أنام مع نصف جثة، وهذا يفسر لي العقارب والنمل والحشرات الغريبة التي كانت تدب على رأسي وجسدي كلما تمددت في هذا القبر الصيفي الحقير.

تلك الليلة أخذت يطاغي (فراشي) وذهبت لأنام عند ضابط الركن الكيماوي للواء النقيب همام (أسم رمزي) حتى يجري بناء ملجأ لي، وتلك قصة أخرى.

***

لقاءات على محاور الرازيت والشالتر!

صباح مشمس في بداية شباط 1983، ما إن استيقظنا بعد غفوة الإنذار الصباحي في قاطع كتيبان مخفر زيد، حتى فاجأتنا سرية دبابات عراقية كاملة، بالانفتاح على يسار موضع لوائنا، وممارسة تمارين الهجوم السيار على العدو، رغم أنها كانت ضمن حدود قطعاتنا!

في كل وقت، تمثل الدبابات عدواً مؤذياً للمخابرة السلكية، وانفتاحها هذا الصباح وضعنا بمفاجأة ومأزق كالعادة، فركضت متعجلاً إلى غرفة الحركات عسى أن أجد عندهم جواباً لهذا الانفتاح الغريب غير المتوقع، فوجدت مقدم اللواء المقدم الركن عبد الصاحب سلمان، ذاهلاً يتساءل مني عن تلك الدبابات، وحين أراد الاتصال بالفرقة، وجدنا خطها عاطلاً، وهذا يعني أن الدروع قطعت خطوطنا مع الفرقة، ومنها الخط المدني على بدالة الدفاع. مسؤولية إصلاح خط الفرقة تقع على عاتق كتيبة مخابرة الفرقة، مد وإدامة الخطوط السلكية يجري دائما من أعلى إلى أدنى، الفيلق يمد ويديم إلى الفرق، والفرقة تمد وتصلح إلى الألوية، واللواء يمد ويديم الخطوط إلى الأفواج، الفوج يمد ويصلح إلى السرايا، والسرايا تمد وتصلح إلى الفصائل، والفصائل تمد وتصلح إلى الحضائر. قد يبدو للقارئ هذا الأمر بسيطاً، لكنّ صعوباته تظهر أثناء المعارك، وتصبح مسؤوليات المد والتصليح معضلة قد توصل القادة وآمري الوحدات إلى الإعدام!

استقرت الدبابات، وبدأ طواقمها يترجلون كأنهم في ساحة تدريب آمنة، واخذوا ينفتحون حول الدبابات كأنهم في تمرين، وكان جميع من في اللواء مذهولين يراقبون ما تفعله هذه السرية المغامرة. بعد نحو نصف ساعة من المناورات التدريبية والترجل والركوب والتجمع والانفتاح، انهالت قذائف العدو، من بطارية راجمات أو أكثر على الدبابات، وكانت الصواريخ تسقط مباشرة بين الدبابات، حتى أن الطواقم أقفلوا أبواب دباباتهم العلوية.

الصواريخ تتساقط على بعد 500 متر من مقر لوائنا، ودخلنا جميعا مواضعنا، خشية أن يتمدد القصف ليشملنا. واشتعلت النيران في سرفة إحدى الدبابات بعد إصابة مباشرة، وترجل طاقمها وجاؤوا راكضين إلى خندق يسترهم باتجاهنا، فيما نزل آمر سريتهم وجندي آخر وانشغلوا بإطفاء النار المشتعلة بسرفة الدبابة (سرفة الدبابة سلسة من حديد، لكنها مكسوة بالكاوتشوك لتسهيل انزلاق الدبابة على الطرق المعبدة، وهي المادة التي اشتعلت هذه المرة).

وسرعان ما عاد طاقم الدبابة وساهم في إطفاء النار، وسارعت السرية تنسحب على السرف بسرعة، لتسير على الطريق العسكري التعاوني بين القطعات متجهة نحو قيادة قوات الحسين (الفرقة 30) المستقرة في مجنون.

مع انسحاب الدبابات توقف القصف، ولم يفهم أحد لماذا جاءت الدبابات ولم عادت.

بعد يومين، وصلت إلى نفس مكان الدبابات مفرزة من سيارة واز وسيارة لاندروفر، واستقرت حيث انفتحت الدبابات بالضبط، وبدأت تنصب هوائي مرتفع جداً، وصل طوله إلى نحو 60 متراً، وفي أعلاه شبكة وصحن صغير.

في اليوم التالي، ومع انبلاج الفجر الذي انهى انذارنا الصباحي اليومي القاسي، انهالت القذائف على المفرزة ذات الهوائي التلسكوبي الكبير، وبقي مدفع منفرد يشاغل هذه المنطقة طيلة اليوم. في اليوم الذي يليه، استيقظنا لنجد مفرزة المعدات الفنية، قد نقلت مكانها إلى نحو 500 متر إلى الخلف بنفس الاتجاه، ونصبت خلال الليل الهوائي التلسكوبي المرتفع. مر اليوم بسلام، ولكن حين ساعة الغروب، ونحن في الانذار المسائي، تساقطت على موقع المفرزة رشقة صواريخ معادية، تبعها قصف مدفع منفرد بقي يشاغلها حتى حلول الظلام.

صبيحة اليوم التالي، ظهرت المفرزة خلف مقر لواء 22 المجاور لنا، ما يعني أنها قد غادرت منطقة لوائنا خلال الليل. ومر اليوم والليلة ولم تنطلق باتجاههم أي قذائف، ما يعني أن العدو لا يراهم رغم نزولهم على نفس الخط الذي كانوا فيه قبل يومين، وهكذا باتوا إلى يمين مقر لوائنا تماما باتجاه العدو. من الواضح أنّها مفرزة رازيت أو معدات فنية.

بعد أيام، جاءني نداء هاتفي مفاجئ من صديق قديم، ملازم أول و. وهو ضابط يعمل في المعدات الفنية (وحدات التنصت) ، وعرفت أنّه آمر مفرزة المعدات الفنية الحائرة التي استقرت يميننا، وهكذا رتبت ايصال خط سلكي لهم (ضمن شبكة خطوط التعاون مع الوحدات المجاورة، وهي شبكة ليست ملزمة، لكن يحبذ مدها عند توفر الامكانات لضمان تأمين وسائل اتصال متعددة بديلة تنفع في حالات الطوارئ). وذهبت مع مفرزة المد الخاصة بنا والتقيت بصديقي.

جلست معه في الملجأ المبني تحت سيارة لاندروفر الخاصة به، وبادر أحد جنوده بتقديم الشاي. وحدات المعدات الفنية تضم مترجمين ومهندسين عادة، ولا يوجد فيها جنود قليلو التحصيل الدراسي. وجلسنا نتحادث ونتذاكر أيام صداقتنا القديمة التي تمتد إلى أكثر من 10 سنوات، وهو أيضا خريج كلية الآداب قسم اللغة الانكليزية لكنه من خريجي الدورة 27 ضباط احتياط . وأثناء حديثنا دخل جندي حاسر الرأس، ولم يؤد التحية، بل تكلم بلهجة جنوبية وسأل آمره عن شيء ما، ثم انتبه إلى وجودي، فأطال النظر في وجهي، ثم سألني فجأة: ألا تتذكرني سيدي؟

فاجأني سؤاله، فنظرت في وجهه ملياً لكني لم أتذكره، فقلت له بعفوية: لابد أننا التقينا في هذا الجيش الجرار، الجيش كبير وصغير، ويلتقي العسكر غالباً دون مناسبة ببعضهم.

ابتسم بهدوء وقال: بل التقينا في أحلك الظروف في سقوط المحمرة، وأنت انقذتني بمساعدة لن أنساها! أنا يا سيدي، الأحوازي الذي طلب منك بنزين لسيارته قبل أشهر خلال سقوط المحمرة! أنت نسيتني وأنا لن أنساك، فأنت صاحب فضل كبير علي.

تذكرته، وسارعت أسأله ماذا يفعل هنا، فأجابني أنّه يعمل مترجماً لدى مفارز المعدات الفنية، وهو يفتخر أنّه يحارب جيش الملالي مع القوات العراقية.

وهكذا عرفت من قصة المترجم الأحوازي "أبو خلدون" دور مقاتلي جبهة تحرير الأحواز في الحرب العراقية الإيرانية، وللقصة تفاصيل قد أرويها في يوم آخر.

***

طيور النقيب عادل

كل شيء في النقيب عادل مختلف عن سياقاته، فهو نقيب مشاة لكنه دائم التفاؤل والابتسام، وضباط المشاة والدروع في الحرب هم الأشد كآبة بسبب خطورة وضعهم، وهو موصلي ولكنه منفتح لروح النكتة بعيدا عن جدية الموصليين وتحفظهم، وبقي الاختلاف عنوانه حتى النهاية.

حين زرت موقع سرية النقيب عادل بمنطقة الكثبان الرملية بقاطع كتيبان / مخفر زيد شرق البصرة، فاجأتني دجاجات وديكة تدرج في نفق المشاة العابر إلى موضع سريته، وكان عليّ أن اتفادى دعسها بحذائي العسكري الغليظ وهي تتقافز أمامي مثيرة ضجة عارمة، وما لبث أن خرج النقيب عادل من موضعه على وجهه ابتسامة عريضة كعادته. وسامته وابتسامته تزين جماله الباهر، فهو نسخة عراقية من نجم السينما المصرية عمر الشريف ولكن بعينين خضراوين، ومد ذراعه بود وهو يقول أهلا بقيادتنا الحكيمة، ضباط مقر اللواء الأبطال، أهلا بك في ربوع السرية الثالثة.

ضحكت وحاولت أن أؤدي له التحية فهو نقيب وأنا ملازم رغم ذلك الوضع المضحك بين سرب الدجاج، إلا أنه سحبني من ذراعي وهو يضحك قائلاً: دعك من العسكريات يا رجل وتذكر أيامنا في الإعدادية! وجذبني من ذراعي ليقبلني على وجنتي مرحباً.

قلت وأنا متردد: أهلا بك يا سيدي العزيز، جئناكم زائرين وفاجأني حقاً كل هذا الدجاج، هل أنا في خط الجبهة المتقدم، أم في منزل ريفي؟

أجاب باسماً: كل شيء بالتساهيل، وإذا صفت النية فكل شيء ممكن! لدينا هنا أكثر من الدجاج. قادني إلى داخل ملجئه المتواضع، المدفون تحت الأرض، على فاصلة قدرها كيلو متر واحد عن خط المواجهة!! ثم أجلسني على كرسي معدني ميداني مقابل سريره، ونادى على مراسله ليأتينا بشيء نشربه وهو يقول: هلا وكثير الهلا بضباط مقر اللواء في ربوع السرية الثالثة، شرفتنا يا عزيزي يا صديق أيام الطفولة!

كنت قد تعرفت أول مرة على النقيب عادل في عام 1971، حيث التحق إلى صفنا الرابع اعدادي قادماً من الموصل إلى بغداد، وصادف أننا نسكن في نفس المنطقة فبتنا نذهب إلى المدرسة ونعود منها غالباً في نفس حافلة نقل الركاب، ما ولّد بيننا صداقة حميمة تجاوزت حدود الزمالة المدرسية العابرة. وبعد الإعدادية فارقته، ولم ألتق به حتى عام 1980 في منطقة راوندوز، شمال اربيل، حيث رأيته وكان ضمن ضباط وحدات لوائنا وهو يشارك في تمرين تعبوي جرى حول مقرنا في حزيران ضمن الاستعدادات غير المعلنة التي كانت

تجري كمقدمة لقادسية صدام. وكانت مفاجأة، فهو ملازم أول وانا ملازم مجند، وقال حينها: أنظر إلى الإيام تجمعنا على غير ميعاد، العسكرية فيها أغرب المفاجآت!

وبقينا معا في نفس اللواء، حتى نال ترقيته لرتبة نقيب، وكان ما يلفت النظر، وجود اجماع لدى قيادات اللواء وأمراء الوحدات، أنه لا يصلح لقيادة فوج، لذا ورغم قدمه العسكري، لم يكن يتولى قيادة الفوج وكالة لدى ذهاب آمر الفوج في إجازة، والسبب غالباً اتهامه بعدم الجدية وهوما لا يؤهله لمنصب آمر وحدة، وهذه تهمة خطيرة ستؤثر على حياته المهنية حتى النهاية.

وما لبث أن عاد مراسله الرشيق الأشقر بزجاجتي كولا، وصحن معجنات وضعها أمامي وهو يبتسم! ولفت نظري أنّ شعره الأشقر طويل ومسترسل فوق ياقة بدلته العسكرية خلافاً للقانون، ما يشي بأنّ عمه قد أسرف في تدليله (وصف عمه هو تعبير دارج في الجيش يصف العلاقة بين الضابط ومراسله، فالمراسل لا يصف الضابط الذي فوقه بكلمة آمري بل يقول عنه عمي).

بعد أن تجرعت الكولا والمعجنات، قال عادل مبدياً كرمه الباذخ: هذه معجنات الموصل، تأتي خصيصا لموقعنا هذا على خط النار، تخيل معجنات الحمدانية على خط الحرب مع العدو الفارسي! كل شيء ممكن، لكن على الإنسان أن يصفّي نيته، (عبارة يصفّي نيته تصدر عنه بشكل مستمر لوصف أي شيء في أي مناسبة)!

بعد المجاملات، دخلت مع النقيب عادل في نطاق العمل، فحدثته عن ضرورة أن يشرف بنفسه على أمن الاتصالات ضمن سريته، لاسيما في ساعات المعارك. ضحك عادل الشريف (وهو لقب كنا الصقناه به أيام الاعدادية نظرا للشبه الكبير بينه وبين عمر الشريف) وقال: الحقيقة أنه لا يوجد عندنا مخابرون، نعم يوجد في السرية ملاك لعريف و نائب عريف مخابرة، لكن الملاك شاغر منذ دخلت الجيش، وماذا نعمل مقابل ذلك، نؤهل جنود المشاة لتولي شؤون المخابرة، وكما تعلم، لدينا اتصالات لاسلكية بأجهزة بي آر سي مع فصائلنا الثلاثة (تضم كل سرية مشاة 3 فصائل)، كما نحافظ على اتصالاتنا السلكية معهم، وأقول لك هنا، ينقصنا بطاريات كبيرة لأجهزة الاتصالات، واسلاك مخابرة د 10 تبقى هنا عندي في مقر السرية. وأملي كبير فيك لتأمين هذه النواقص.

سارعت لإجابة طلبه، طالباً منه أن يرسل معي أثناء عودتي إلى مقر اللواء مأموراً يجلب له مع سيارات الأرزاق بكرتي سلك من مقر اللواء (كل بكرة بطول 500 متر)، و100 نضيدة كبيرة للأجهزة اللاسلكية، كما صرفت له شخصيا هاتف ميدان جديد من نوع تاي 87 المحسن الجديد.

اتسعت ابتسامته هو يقول: رداً على هذا الكرم، ستبقى لتناول طعام الغداء معنا، لن يطول الأمر، اذا صفيت النية، سيصل طعام الغداء خلال ساعتين!

ضحكت لوصفه، وأعلنت اعتذاري عن دعوته، نظرا لضرورة أن أزور باقي السرايا المتقدمة المنفتحة على الجبهة للنظر في وضع واحتياجات المخابرة عندهم.

وما لبثت أن اطلقت رشاشة متوسطة قريبة رشقة رصاص، فساد صمت بسيط، وسألته : من أين مصدر الرمي، من قطعاتنا أم من قطعات العدو؟

ضحك وكأنّ الأمر نكتة وهو يردد: هذا رضا علي زاده، كلما ضاقت به الدنيا، ولجت في صدره اللوعة، يفتح نيران رشاشته علينا، ونحن في العادة لا نهتم له إلا إذا ألح في الرمي، فنجيبه بقذيفة هاون أو برشقة رصاص من الرباعية (رشاشة كورية شمالية ثقيلة من عيار 14.5 ملم رباعية الفوهات هي سلاح مقاومة طائرات ومشاغلة أهداف أرضية، يوجد منها في كل فوج 2 إلى 4 رشاشات ضمن أسلحة سرية الاسناد).

رضا علي زاده، جندي إيراني؟ وكيف عرفت اسمه؟

ضحك ماجد بصوت مجلجل وهو يقول: هذه أسماؤهم في العادة يا عزيزي، تقي زاده، علي زاده، رضا علي، ونحن نسمعهم في ساعات الفجر يتحاورون ويتنادون بهذه الأسماء ! ثم نادى مراسله قائلا: انتبه إلى الطيور البيض المحجلات، اخشى أنّها طارت فرآها هذا التيس وبدأ يطلق النار!

أطل المراسل الوسيم الرشيق برأسه علينا وهو يجيب مبتسماً: لا سيدي، الطيور موجودة في البرج، ولم أخرجها لتطير بعد، عند الظهر سأدعها تطير.

مفاجأة أخرى من النقيب عادل الشريف! طيور في خط المواجهة، وسارعت أسأله: هل تربي حقا طيور حمام هنا في الساتر الأول؟ إنها معجزة، كيف تطيرونها وأنتم بهذا القرب من العدو؟

ضحك بود ظاهر وهو يقول: كل شيء بالتساهيل، في ساعات الظهر، يتصاعد الغبار، فيحجب الرؤية بيننا وبينهم، وعندها تحين ساعات الحرية للطيور، إنها طيور أصيلة ذوات أصول ونيتها صافية، لذا يعطيها الله بقدر نيتها ! ثم نهض من سريره ووقف منحنياً بسبب سقف الملجأ الواطي، ودعاني لأن أتعرف على طيوره الثمينة، كاشفاً عن برجين كبيرين قائمين عند مدخلي النفق المؤدي إلى ملجئه، وبادر يشرح: " لدي طويرنيات، وهنداويات يقلبن أثناء الطيران، ولدينا بضعة ازواج من الزرجاويات، وعمانيات، ولدينا طير اسمه الفارسي أبو كركوشه، وعندي زوج واحد منه فحسب، وهو جميل جداً لكنه أقلها نشاطاً، وينحصر نشاطه في ساعات المغرب، وهنا لا نستطيع أن نطلقهن في ساعات المغرب، لأنّ الشمس تكون وراءنا بالضبط وبوسع العدو أن يكتشف موقعنا من خط طيران الحمام، وهكذا فهن في مشكلة حقيقة، اعتقد أن الفارسيات عندنا نياتها ليست صافية!

وماذا ستفعل بشأنها اذا؟ هل تبقى حبيسة البرج؟

لا، أفكر في إرسالها إلى المقر الخلفي للفوج، وأتركها هناك في خلفيات السرية، لكن هذا الحل غير عملي، لأن المتروكين عندنا كلهم من المعاقين، ولا أعرف فيهم واحد نيته صافية ويعشق الحمام ويعتني به...ورطة !؟

انهيت زيارتي لمقر النقيب عادل، وواصلت جولتي على السرايا المتقدمة، لتلبية مطالبها بشؤون المخابرة، وعدت عند الغروب إلى مقر اللواء.

بعد نحو 3 سنوات من هذه الزيارة، قرأت بالصدفة يافطة استشهاد النقيب عادل على جدار بيت أهله قرب بيتي، وحزنت وبكت زوجتي التي كانت معي في ذلك الحين، فالنقيب عادل، كان بسياراته الشيفروليه ماليبو أحد من شاركوا في موكب زفافنا قبل سنتين! يا ترى ما مصير الحمام والدجاج، وما مصير مراسله الأشقر الجميل، وما مصير النوايا الصافية؟ هكذا هي الحرب، تنزع عنا أجمل ذكرياتنا بقسوة دونما اعتذار!

***

سرايا المغاوير- وحدات تائهة!

سرية المغاوير كانت دائما ضحية الواجبات الصعبة، فهي سرية إغارة وهجمات، لكنها وبسبب قربها من مقر اللواء تبقى مجمّدة غالباً كسرية حماية لمقر اللواء. يتعلق هذا بالتنظيم العسكري لتشكيلات الجيش في المناطق الجبلية قبل الحرب، لكن عواصف القادسية غيرت كل شيء.

في شرق البصرة، بات مقر سرية المغاوير المتصلة بالساتر المربع الذي يضم مقر لوائنا مكاني المفضّل للقاء الأماسي مع ضباطهم وبرفقة تلفزيونهم الصغير تحت سماء الصيف الصحراوي الندي. وتطورت صداقاتنا، فانضم إلينا ضباط سرية هندسة اللواء التي كانت قد تشكلت حديثاً.

وتمتد علاقتي بسرية المغاوير إلى تاريخ التحاقي المبكر بمقر اللواء، وكان سكننا غالباً ملاصقاً لسكنهم أثناء استقرارهم مع مقر اللواء. ولكن مع بداية الحرب، تنقّلت سرية المغاوير كثيراً لتفارق أحياناً مقر اللواء لأسابيع طويلة، بسبب نقص القوات في قواطع العمليات، وأثّر هذا طبعاً على أدائها. وفي بداية الحرب عام 1980، جرح ضباط السرية الثلاثة، بل فقد أحدهم عينه اليسرى التي ذهبت بها شظية قنبرة على تلة المهد (في حوض سربول زهاب) وهي أرض القتل الأكثر سوءاً في قاطع عمليات لوائنا آنذاك.

لكن استقرار الفرقة الثامنة وتشكيلاتها (لواء 22، لواء 23 ولواء 418 الذي حل محل اللواء 3 الذي أُلغي بعد هزيمته في معارك سومار) في قاطع عمليات شرق البصرة الصحراوي جعل منها فرقة مشاة سهول، وهي أصلاً فرقة مشاة جبلية متخصصة في العمل بمناطق المرتفعات. تطلّب هذا الوضع تغيير التشكيلات، ورسمياً كان يجب أن يفك ارتباط سرية المغاوير بمقر اللواء لأنها من ملاك التشكيلات الجبلية، وفي تشكيلات مشاة السهول لا يوجد ملاك لسرية المغاوير.

قبل قادسية صدام كانت سرايا المغاوير تعد قوات النخبة في الألوية، وتحظى بعناية خاصة باختيار عناصرها، وتدريبهم وتجهيزهم. لكن التغيرات التي فرضتها الحرب أخرجت قوات المغاوير عموماً من وصف تشكيلات النخبة، لاسيما مع توسع وتعاظم قوات الحرس الجمهوري، وتحولها إلى قوات نخبة بمعنى الكلمة.

في شرق البصرة، كان مقر اللواء قريباً جداً من أفواجه الثلاثة المنفتحة على جبهة بعرض 4 كيلومترا فحسب. بل إن مقر اللواء كان لا يبعد سوى 900 متر عن مقر فوج العمق، (مع استعادة القوات الإيرانية سلطتها على عبادان والمحمرة والحميدية وسد الدز والشوش وديزفول وتلول الله أكبر في جنوب إيران، توصلت القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية

إلى أن اتخاذ مواضع الدفاع التقليدي التي شاعت في الحرب العالمية الأولى وهي فوجين في الجبهة، يسندهما فوج ينفتح خلفهما في العمق، هي خير وسيلة لضمان عدم حصول خرق سريع في الجبهة، فأفواج العمق تعمل غالباً كقوة تعويق تصد وتمتص زخم الهجوم المعادي ريثما تصل قوات تعزز الموضع الدفاعي أو تعيد مسك الأرض). وباتت كل مقرات الألوية بهذا الشكل قريبة من مقرات أفواج العمق، وهكذا أجبرت تشكيلات الفرقة الثامنة، على تسخير سرايا المغاوير الموجودة بأمرتها، وسرايا الهندسة التي شكلت حديثاً فيها إضافة إلى سرايا المقر والمخابرة فيها كوحدات حماية قد تشاغل العدو وتدافع عن مقرات الألوية في حال تحقيق العدو خروقاً في المواضع الدفاعية العراقية.

هذا الوضع، جعل سرية مغاوير اللواء أشبه بسرية مشاة عادية، ولكنه سرية مقاتلة تفتقر لأسلحة الاسناد التي تتمتع بها سرايا المشاة الأصلية. وقلل هذا إلى حد كبير من تحركات سرية مغاوير اللواء في قواطع العمليات، لأنها باتت جزءاً من الموضع الدفاعي الثابت للواء، وكل ذلك أشاع نوعاً من الاستقرار لدى ضباط ومنتسبي السرية، بل أنّ منتسبي السرية ضباطاً ومراتب وجنوداً فقدوا لياقتهم البدنية التي كانوا يتمتعون بها بسبب انعدام التدريب، وبات حصولهم على مخصصات صنف المغاوير(وهي مخصصات مالية تصرف لقوات النخبة ولا تحصل عليها قوات المشاة) بلا معنى.

في أوساط الضباط، باتت سرايا المغاوير توصف بأنها الوحدات التائهة، لاسيما أنها لم تعد ترتبط بآمريات المغاوير في مقرات الفرق، وهو تشكيل قيادي زال مع تطاول الحرب، وباتت ملاكات آمريات المغاوير خالية من المنتسبين، وشكلية حتى أنها حلت تماما في منتصف عام 1983، وباتت سرايا مغاوير الألوية جزءاً من وحدات تلك الألوية، فيما احتفظت بعض الفرق الجبلية بسرايا مغاوير مستقلة تناور بها كقوة ضاربة عند الحاجة. المضحك المبكي في قوات النخبة المنقرضة هذه، أن أغلب منتسبيها باتوا من المصابين في المعارك، ولا يملكون قدرة بدنية تؤهلهم ليكونوا قوة الضربة.

مع استقرار سرايا مغاوير الفرق الجبلية بمعية مقرات تشكيلاتها، باتت تعتبر محطة استراحة لضباط المشاة الجدد أو المصابين الذين ينسبون اليها، وصار الضباط الأحداث، ويا للعجب، يتوسطون على المستويات الصغرى لأن ينسّبوا إليها باعتبارها مستقرة لحماية مقرات الألوية وليست في خطوط المواجهة القريبة من العدو، وخارج مرمى أسلحة العدو الخفيفة، وهذا ترف يتحسر عليه ضباط المشاة العاملين في الوحدات المنفتحة على الجبهات.

هذا الوضع الجديد، جعل ضباط مقر لوائنا يقتربون من سرية المغاوير(معاون آمر السية نقيب مخابرة، أمر الرعيل اللاسلكي ملازم أول مخابرة، آمر الرعيل السلكي ملازم مخابرة، أم فصيل الدفاع والواجبات ملازم أول مشاة، الضابط الإداري نقيب اداري، يضاف إليهم بالنشر فقط آمر الفصيل الكيماوي وهو ملازم أول كيماوي)، هؤلاء الضباط

طوروا صداقاتهم مع ضباط مغاوير اللواء، ونشأت بيننا روابط متينة، وبات كثير منهم يترددون على ملاجئنا، لكنهم بقوا لا يشاركونا الطعام في مطعم الضباط، لأنّ ملاكهم ينص على انفصال معاشاتهم وأرزاقهم وعتادهم وأسلحتهم عن مهام وإداريات اللواء. هذا الوضع تغيّر منذ بداية عام 1984، إذ بات ضباط سرية مغاوير اللواء معرضون لتنقلات سريعة إلى تشكيلات الفيلق الثالث الذي كنا نرتبط به، لتعويض التشكيلات التي خسرت ضباطها بسبب هجمات العدو.

وبدأت القوات الإيرانية منذ مطلع هذا العام بشن هجمات على قاطع مجنون شرق العمارة وفيه حقول نفطية كبرى ومناطق الأهوار المرتبطة بها، وأدت الهجمات إلى تخلخل المواضع الدفاعية العراقية، وفقدان أجزاء كبرى من الأراضي العراقية. والحقيقة أن كل هجمات القوات الإيرانية منذ منتصف عام 1982 باتت تحقق خروقاً، ونتج عنها احتلال مناطق شاسعة من الأراضي العراقية شمال العراق وجنوبه، لكن أدبيات القيادة السياسية كانت تزوق وتجمّل الأوضاع ولا تتطرق لا من قريب ولا من بعيد إلى تلك الخسائر المرعبة.

المناطق الوحيدة التي عجزت القوات الإيرانية نسبياً عن تحقيق خروق فيها كانت مناطق القاطع الأوسط، وهذا أمر غريب. هذا القاطع وضمنه قاطع مندلي كان لا يبعد عن العاصمة العراقية بغداد سوى 90 كيلومترا في بعض المناطق، ومع ذلك فإنّ مخططي الاستراتيجية الإيرانية لم يضعوه في حسبانهم، وكنا على مستويات الضباط القادة والأعوان* نتساءل وفي قلوبنا رعب حقيقي، لماذا لا يهجم الإيرانيون بحشودهم المليونية على قواتنا في قاطع العمليات الأوسط؟

المؤلم بالنسب لي، أن أكثر من باتوا أصدقائي من ضباط سرية المغاوير، ما لبثوا أن نقلوا كتعويضات، وقد قتل أو أصيب أغلبهم حال نقله.

المشهد الأكثر حزناً، كان لقائي بالملازم الأول م. الشمري في مستشفى الرشيد العسكري وهو يتسند إلى كتف أبيه قصير القامة. الضابط الأسمر العملاق مفتول العضلات الأريحي المرح القادم من مضايف قبيلة شمر على حدود جزيرة الموصل، لم يتعرف عليّ حين حييته، وتكلم نيابة عنه، أبوه وهو يعتذر مبدياً ألمه بقوله إن ابنه قد فقد الذاكرة بعد أن اخترقت رأسه شظية صغيرة، خرجت من قفا رأسه لكنها لم تقتله، بل تركته منحل الأعصاب فاقد الذاكرة يتصرف كطفل رضيع يرتدي بدلة ملازم أول!

- يصنّف الضباط حسب رتبهم إلى التالي:

الضابط وابتداء من رتبة ملازم إلى رتبة رائد يوصف بأنه من الضباط الأعوان.
الضابط من رتبة مقدم إلى رتبة عقيد، يوصف بأنه من الضباط القادة.
الضابط من رتبة لواء إلى رتبة مهيب (وهي نفسها رتبة مشير الملغاة) يوصف بأنه

من الضباط الأمراء، ويتمتع بحق رفع علم على سيارته ويعزف له نشيد الأمراء لدى زيارته التشكيلات والوحدات. وأهملت العسكرية العراقية عموماً هذه التقاليد.

***

الرفاق الحائرون في شرق البصرة!

كان غريباً أن المقدم الركن مأمون، ويسميه كثيرون الحاج مأمون لشدة تقواه، يردد بأعلى صوته أغنية فائزة أحمد الشهيرة "الرفاق حائرون، يفكرون يتساءلون" وهو يشير بوضوح إلى ما يسمى بفرقة الأطراف من حزب البعث التي استقرت في مقر لوائنا فكانت كارثة على الجميع!

فجأة وفي ربيع عام 1983 ظهر بيننا م. أول ن الجبوري، وعمره خمسون عاما، وهو عضو شعبة مسؤول فرقة الأطراف التي استقرت في لوائنا، وكان واضحاً أنّ هذا جرى بعد أن ذهب أمرو اللواء الثلاثة المتعاقبون إلى السجن، وبعد أن التحق أمر لوائنا الجديد العقيد غانم صالح العزاوي بالمنصب رغم أنه لم يكن ضمن مزاج الحزب، فهو مثقف، متعلم في ساند هرست (الكلية العسكرية الملكية في بريطانيا)، وهو عسكري محترف، تتقدم الأخلاق وقيم العسكرية عنده على أي قيم أخرى، كما أنه قريب جداً من شيوخ قبيلة العزة، وهي قبيلة عربية مهيوبة الجانب في منطقة ديالى.

وكان على سرية مقر اللواء أن تؤمّن للرفيق ن سائقاً لسيارته تويوتا لاند كروزر البيضاء الحديثة، ومراسلاً، وكاتباً ومسؤول أضابير في شعبة الأطراف العسكرية الجديدة التي لم ير أحد مثيلا لها إلا في لواء مشاة 23 !! وبما أن سرية مقر اللواء تفتقر إلى جنود بدرجة رفيق حزبي، وتفتقر إلى جنود مقربين من ثقة الحزب، لأنهم في العادة لا يصلون إلى مستويات مقرات ألوية المشاة المشغولة بمعارك قادسية صدام منذ 3 سنوات، بل يحتفظ بهم الحزب في الوحدات الآمنة والمرفهة في الجيش ليقوموا بأعمال المراقبة واعداد التقارير والأضابير عن ضباط ومراتب وجنود الجيش لتحديد مدى ولائهم للحزب والرئيس القائد، فقد كان على الرفيق نهر أن ينقل إلى فرقة الأطراف 3 جنود غير مشكوك بولائهم، ليتولوا عن كثب أعمال الفرقة الحزبية العسكرية الجديدة، وهكذا ما لبث أن التحق بالوحدة جنديان بدرجة رفيق للعمل في الفرقة، وجندي جبوري حائز على الثقة سيكون سائقا للرفيق ن.

ثم أتضح أن الرفيق م. أول ن يحتاج إلى من ينوب عنه حين يذهب في مأمورية (ومأمورياته كثيرة)، أو حين يذهب في إجازة، وهكذا التحق بمقر لوائنا الرفيق م أول ح الحديثي، ليتولى منصب ضابط التوجيه السياسي في اللواء، دون أن يشمل كتاب نقله إشارة إلى أنه سيتولى هذا المنصب الذي ينص ملاكه على ضابط رتبته "رائد توجيه سياسي"، فيما الرفيق المنقول عمره 44 عاما، ويحمل شهادة متوسطة، لكن نضاله الحزبي أكرمه برتبة ملازم أول، وبقيت رتبته حتى النهاية بلا منصب، وبقي عنوانه غير الرسمي، "نائب الرفيق ن" كما يتولى مهام الأمن والمراقبة دون أن يحمل صفة رسمية تخوّله ذلك!

هذا الكيان "الرفاقي" الغريب الذي ظهر في لوائنا، أثار شكوك ومخاوف الضباط والجنود خاصة، لكن نواب الضباط، وهم الطبقة الأكثر ولاءً للحزب، كانوا في طليعة المرحبين بالكيان الجديد، لاسيما أنّ الرفيق ن والرفيق ح كانوا حتى عام 1981 نواب ضباط، وترفعوا رتبتين خلال سنتين لضرورة العمل الحزبي في الوحدات المقاتلة.

المشكلة التي تواجه الرفيق ن والرفيق ح أنهما ضابطان، لكنهما يجهلان كل شيء عن عالم الضباط وأصول تعاملهم، وتبادل الاحترام و رد التحية والجلوس في بهو ومطعم الضباط، وتسلسلات القدم، وجداول الترفيعات وما إلى ذلك، كما أنهما يجهلان تماما سياقات عمل الضباط في ظروف السلم والحرب.

الرفيق م. أول ح الحديثي التحق بمقر اللواء وهو يرتدي بدلة زيتونية وحذاء قيافة خفيف أسود ! وهو ما يخالف قيافة الضباط في شيئين، الأول أن الضابط ملزم بارتداء حذاء خدمة "بسطال" في الجبهة، والحذاء الخفيف ممنوع بشدة، والثاني أن الحذاء الخفيف الجلدي للضباط يجب أن يكون جلديا أحمر اللون وليس أسود قط. وكانت المشكلة التي واجهت الجميع، هي فيمن سيوضح له هذه المخالفة! وأخيرا توصل الجميع إلى أن الرائد الركن عبد الصاحب ضابط الركن الثالث حركات اللواء يمكنه أن يحدث الرفيق م أول ن، ليبين للملازم أول ح الحديثي ضرورات القيافة العسكرية في جبهات القتال، وهذا ما كان! وبعد يومين بدأ الرفيق م أول ح يبحث عن الضابط الإداري ليطلب منه حذاء خدمة "بسطال".

ولابد من الإشارة هنا، إلى أن حذاء خدمة الضابط يجب أن يكون أحمر اللون، وكان الضباط قبل الحرب يبتاعون من حوانيت الجيش بساطيلهم الحمر التركية خفيفة الوزن، لكن ظروف المعركة التي باتت تسحق أحذية الضباط بسرعة، وعدم توفر ما يكفي من الأحذية الحمراء في حوانيت الجيش أجبرت الضباط على استعمال بساطيل الجنود السوداء، بطلبها من الضباط الإداريين، لاسيما أن مواصفاتها قوتها تتفوق كثيراً على الأحذية الحمراء التركية، وما لبث أن أصبح حذاء خدمة الضباط بحلول عام 1981 أسود اللون باعتبار واقع الحال، وليس بقوة القانون.

وفي عام 1983، جاء تعميم شديد اللهجة، يؤكد على ضرورة ارتداء الضباط أحذية الخدمة الحمراء، وابتياعها من الحوانيت، لكن الضباط احتالوا على تنفيذ الأمر بإرسال أحذية خدمتهم الرومانية السوداء إلى اسكافي مدني يقوم بطلائها باللون الأحمر.

وبالعودة الى سيرة الضباط الرفاق، ففي الحقيقة كان أغلبهم لا يميل إلى ارتداء أحذية الخدمة، لاعتيادهم في سنوات خدمتهم الطويلة حين كانوا نواب ضباط على العمل في مكاتب ومقرات لا تتطلب ارتداء حذاء الخدمة الثقيل، لكن تشدد القادة وآمري التشكيلات في الأمور العسكرية خلال سنوات قادسية صدام المتطاولة أجبرهم على التعود على ارتداء حذاء الخدمة الثقيل إسوة بالمقاتلين!

محطة جهاز القفز العشوائي لاتصالات القيادة المشفرة من نوع جاكوار بريطاني

كل هذه الأمور، قد تبدو للمدنيين قضايا عابرة، لكنها في داخل المجتمع العسكري تعني الكثير.

شخصياً بدأت مشاكلي مع فرقة الأطراف، حين وصلت أوامر من قائد الفرقة شخصياً، على ضرورة خروج الجميع إلى العرض والتدريب الصباحي، بعد انتهائهم من الإنذار الصباحي اليومي، وهذا يعني أن على الجميع الاستيقاظ من الساعة 4 صباحا، وارتداء الملابس العسكرية والحذاء والأسلحة والتجهيزات، والجلوس في خنادق الرمي حتى طلوع الضياء الأول، ثم العودة إلى مواضعهم وتناول طعام الفطور في الساعة السابعة، وبعدها في السابعة والنصف يخرج الجميع إلى التدريب الصباحي!؟ كل هذا ونحن على بعد 3 كيلومتر من الحافة الأمامية، وبوسع أيّ مرصد معادٍ يرتفع 10 أمتار عن سطح الأرض أن يرانا بوضوح ويميز حتى ألوان أحذيتنا !؟

أخطر وأسوأ ما في هذا الأمر، أنه يتجاهل طبيعة عمل جنود المخابرة في الجبهة، فنحن لسنا مقاتلين مشاة، بل جنود وضباط مخابرة مطلوب منا إدامة الاتصال مع الوحدات خلال الحرب، وكل أيامنا هنا حرب، لكن من يصدر الأوامر العسكرية يتعمد تغافل الحقائق، قاصداً غالبا المزايدة لدى الما فوق من القيادات بأنه يحافظ على مستوى تدريب وكفاءة القطعات حتى غير المقاتلة منها !

بعد أيام من صدور هذا الأمر، وشروعنا في تطبيقه، حضر آمر اللواء شخصيا لمتابعة التدريب، في ساحة التدريب الافتراضية الواقعة على بعد 40 مترا خلف مقر اللواء، وهي مفتوحة في العراء أمام أسلحة العدو المحتملة المتوسطة والهاونات ومدفعيته بشكل خاص. كان آمر سرية مقر اللواء آنذاك الرائد حسين ن. وهو من الدورة الخاصة الأولى، وكان من عناصر الحرس القومي سيئة الصيت عام 1963 قبل منحه رتبة تكريمية في العام نفسه قبيل انقلاب عبد السلام عارف على البعثيين.

بدأ آمر اللواء يسأل آمر السرية عن الموجود من الجنود، وبدأ يتابع بالاسم من خرج منهم للتدريب، لاسيما الكتبة والسواق والمخابرين والمراسلين. وبات آمر السرية يتلعثم في الرد، وانتهى المشهد بذهاب آمر اللواء غاضباً.

في نفس اليوم، أرسل آمر السرية في طلبي وطلب م أول خلف آمر الرعيل اللاسلكي و طلب الملازم جمال آمر فصيل الدفاع والواجبات في سرية المقر، ووجه لنا تحذيراً شديد اللهجة بضرورة عدم استثناء أي أحد مهما كانت صفته من التدريب، لاسيما العرض الصباحي وساعة التدريب الأولى، وبدورنا أبلغنا رعائلنا وفصائلنا بالموقف، وشددنا على خروج الجميع للتدريب.

بعد أسبوع، وصل عدد الحاضرين في العرض والتدريب الصباحي للساعة الأولى إلى 160 شخصا من عموم السرية، وكان هذا رقماً كبيراً مخيفاً حقا بالنظر لظروف انفتاح اللواء في جبهة الحرب، وكان سقوط أي قنبلة معادية وسط هذا الجمع المنفتح على أرض صحراء كتيبان المنبسطة يعني التضحية بأكثر من نصفهم بين قتيل وجريح!

ومضى الأمر على هذا المنوال، حتى خرجتُ للتدريب ذات يوم، لأجد نفسي الضابط الوحيد الموجود من سرية المقر للأشراف على التدريب، وكان عليّ أن استلم موجود السرية وأدقق جميع الفصائل.

ضمن الفصيل الإداري وفيه الكتبة والسعاة، كان أحد الجنود قد خرج للتدريب بحذاء خفيف. وبدون أن أعرف من هو الجندي الذي لم أره سابقا، أدركت أنه أحد الرفاق، فهم يعشقون الحذاء الخفيف. أخرجته من فصيله، وأمرته أن يعود إلى الثكنة ويرتدي حذاء خدمة ويعود للتدريب. فغادر ساحة التدريب ولم يعد، وكتبت به كشفاً إلى آمر السرية، وسرعان ما رُفع الكشف في نفس اليوم إلى مقر اللواء.

تلك الليلة في غرفة الحركات، أكد مقدم اللواء، المقدم الركن مأمون أنّ على الجميع تنفيذ أوامر قائد الفرقة بشأن العرض والتدريب الصباحي، وبلّغ الملازم أول ن، الذي كان ممتعضاً جداً بسبب كشفي حول جنديه الرفيق رعد الحديثي، بعدم وجود استثناءات في التدريب، كما أبلغه أن عدم تنفيذ الجندي أمر الضابط المشرف على التدريب قد يسبب بتشكيل مجلس تحقيقي بحقه، لأنّ الأمر جرى في ساحة الحرب، وهذا يعني عصيان الجندي لأوامر قيادته.

بعد ثلاثة أيام، ذهبت في إجازتي الدورية، وتركت الموضوع معلقاً لاسيما أني لم اخرج للتدريب بسبب الواجبات الليلة في غرفة الحركات، وفي خفارات السرية.

وحين عدت من إجازتي، وجدت أن الجندي المشار إليه قد صدر أمر نقله إلى شعبة الأطراف العسكرية الحزبية الثامنة (المسؤولة حزبياً عن الفرقة الثامنة ومقرها في الجباسي)، وهذا يعني أن الجندي المذكور وبأمر سلطة الحزب معفو من ارتداء حذاء الخدمة، ومعفو من التدريب الصباحي مهما كان مستوى القيادة الذي ينص على هذه الأوامر. جنود الحزب يتخطون حتى سلطة صدام حسين شخصياً في الخفاء، وهذا كان من أسباب الانهيارات العسكرية في كل مكان، فهم حاضرون لإعدام جنود الوطن حين يشتد أوار الحرب، لكنهم غير حاضرين للتصرف كمقاتلين حين يراد منهم ذلك.

***

36 ساعة بلا نوم!

عدت من إجازة مرضية التي استمرت شهرين إثر اصابتي بانزلاق فقرات نتيجة سقوط ملجأي فوقي، ليذهب كل ضباط السرية في إجازات ومأموريات ودورات، وبات علي أن أتولى العرض والتدريب الصباحي وخفارات السرية وغرفة الحركات، وبريد السرية والواجبات كافة، ولم يكف كل هذا فألقوا على عاتقي مسؤولية جديدة.

في اليوم الثاني لالتحاقي، توليت خفارة غرفة الحركات الليلية، ونحو الساعة الواحدة ليلاً، اتصل آمر الفوج الأول ليبلغ عن نشاطٍ هندسي معادٍ أمام حجابات الفوج، وكان علي أن أتصل بمراصد الاستخبارات والمدفعية ومفارز الرازيت المتقدمة وغيرها وأسألهم عما سجلوه، وتبين أنهم لم يرصدوا شيئا، فبقيت انتظر تطورات الموقف، لأضع هيئة ركن اللواء في الصورة، وإلا فلا داعي لإيقاظ الجميع إن كان الأمر يتعلق بشفل يعمل ضمن قطعات العدو.

وعاود آمر الفوج الاتصال بعد ساعة، وقال إنّ هناك شفلين يحفران أو يدفنان أو يطمران شيئا على بعد 500 من فصيل حجابنا المتقدم، وهو بحاجة إلى موقف اللواء من هذا الأمر. عند هذا التبليغ، كانت الساعة قد بلغت الثالثة والربع بعد منتصف الليل، وكان عليّ أن اتصرف مادام آمر الفوج يطالب بموقف، فقمت بإيقاظ مقدم اللواء، المقدم الركن مأمون وأبلغته هاتفياً بما جرى، فارتدى ملابسه وجاء إلى غرفة الحركات، وبعد أخذ ورد مع آمر الفوج الأول، ومع المراصد، قام بإيقاظ آمر اللواء العقيد غانم العزاوي، فجاء بكامل لباسه إلى غرفة الحركات، وتباحث مع آمر الفوج الأول، ثم اتصل برئيس أركان الفرقة، وأطلعه على الموقف، واستقر قرار الفرقة واللواء على توجيه ضربة مدفعية إلى الشفلين. ولكن قبل تنفيذ الضربة، اتصل مرصد الرازيت، وأبلغ عن انسحاب آليتين معاديتين إلى خارج الأرض الحرام. ولم تطلق المدفعية قذيفة واحدة.

عاد الجميع إلى نومهم، وبقيت في غرفة الحركات خافراً، ومع الفجر اتصل بي مرصد استخبارات اللواء، وأبلغ عن وجود تل صغير أمام فصيل حجاب الفوج الأول الأيمن. فأضفت الموضوع إلى الموقف، وابلغت قلم حركات اللواء بتوقيعه من مقدم اللواء وتنبيهه إلى الإضافة.

بعد دقائق، هاتفني مقدم اللواء، وسألني عن مزيد من التفاصيل، فأكدت له أن المعلومة جاءت من مرصد الاستخبارات المتقدم. بعد ربع ساعة، عاد مقدم اللواء إلى غرفة الحركات، وكانت الشمس قد بدأت تشرق، وما إن دخل حتى أوعز لي بالذهاب للاستراحة،

لعدم وجود بديل لي، فكان عليه أن يتولى الخفارة الصباحية (من السابعة حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً وقد تمتد حتى الثانية عشرة ليلاً في حل عدم وجود بديل يحل محله).

ذهبت استريح، وبعد أن غفوت نحو ساعة، رنّ هاتفي، فجاءني صوت المخابر على بدالتنا بأنّ آمر كتيبة مخابرة الفرقة يطلبني، نظرت إلى الساعة فوجدتها الثامنة والنصف صباحاً، كلمته بأعياء، فاعتذر لأنه يطلبني في هذا الوقت المبكر، ثم أخبرني أنه قد جرى تبديل شبكة اتصالات الفرقة وأنه قد أرسل نسخا من الشبكات الجديدة مع الملازم مثنى، وطلب مني تغيير شبكة اتصالاتنا اللاسلكية بالوحدات، تحسباً من تطور في الموقف. أكدت له أني سأقوم بذلك، فعاد يصر على أجراء التغيير اليوم، وإرسال نسخ من الشبكات الجديدة هذا اليوم، والأفضل بيد مأمورهم الملازم مثنى.

اسقط في يدي، وعدته بتنفيذ الأمر مدركاً أنّ عليّ نسيان فكرة النوم، والمباشرة بالعمل فوراً، لأني ضابط المخابرة الوحيد في اللواء الآن. تغيير شبكات الاتصال اللاسلكية يتطلب جهداً يستغرق ما لا يقل عن 3 ساعات بلا انقطاع، وهكذا نهضت متعجلاً، وحلقت لحيتي، وارتديت ملابسي كاملة، ثم كلمت عريف الرعيل اللاسلكي ، وطلبت منه إعداد شبكة اتصالات بديلة جديدة على أن لا يضع فيها ترددات جديدة، ريثما اتناول طعام الافطار، وأعود له لنعد معاً الشبكة كاملة.

تناولت افطاري متعجلا، ولحظت أن غرفة الحركات الملاصقة لبهو الضباط، فيها حركة غير عادية، وخمنت أن قضية الجهد الهندسي المعادي تتفاعل.

انجزت شبكة اتصالات لاسلكية جديدة للواء، وهذه وظيفة آمر الرعيل اللاسلكي الذي ذهب في دورة تطويرية بمدرسة المخابرة في بغداد. وفي حال عدم وجود آمر الرعيل اللاسلكي، يقوم بهذا الواجب عادة معاون آمر السرية وهو نقيب مخابرة، وتصادف أن معاون آمر السرية منتدب لمهمة "حزبية" في قاطع عمليات الأهوار المجاور لقاطع الفرقة الثامنة من جهة الشمال حول حقول نفط مجنون ومناطق الأهوار المنتشرة حولها.

في العادة، يجب أن ترسل الشبكات إلى الوحدات المعنية بيد ضابط، لكن وبما أني الوحيد الموجود، فقد أنتدبت نائب ضابط خلف عداي وهو أقدم نائب ضابط في الرعيل اللاسلكي، وسلمته الشبكات مرفقة بكتاب معنون إلى الوحدات المرتبطة بنا على شبكة اتصال عالية التردد جداً VHF ، وينص الكتاب على أنّ العمل على الشبكة الجديدة يبدأ في الساعة 10 صباح يوم غد، وأخرجت له سيارة الرعيل السلكي التي تحمل ورقة عمل دائمة تتيح لها التنقل دون انتظار أوامر مقر اللواء.

وحالما ذهب مأمورنا لإيصال الشبكات، وصل الملازم مثنى، مأمور كتيبة مخابرة الفرقة وهو يحمل شبكات الاتصال اللاسلكي للفرقة (على أجهزة HF عالية التردد بعيدة المدى).

استلمت نسختنا منه، وأمضيت له كتاب استلام يعيده إلى وحدته، ثم ذهب إلى محطتهم عندنا، ليوجز عمال المحطة بتفاصيل الشبكة الجديدة وليغير ترددات الأجهزة.

استقر وضعي قليلا، فعدت إلى ملجأي، ونزعت حذاء الخدمة، واندسست في فراشي الفقير عليّ أنام هنيهة، وفعلا غرقت في نوم سريع بسبب الانهاك والسهر. رن هاتفي بقوة، فتناولت جهازه اليدوي وأنا نصف نائم، فأبلغني عامل البدالة أن مقدم اللواء يطلبني على عجل في غرفة الحركات، نهضت من فراشي، وكانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر، ما يعني أني قد نمت نحو ساعة ونصف، ومدني هذا ببعض القوة لمواصلة السهر. في الجبهة لا يعتبر النوم والحاجة إليه سبباً للتخلف عن الواجب!؟

في غرفة الحركات، كان مقدم اللواء غارقاً في خرائط اللواء وفي الرد على الهواتف التي ترن باستمرار (يوجد في غرفة الحركات، هاتفان على بدالة اللواء، وهاتف مباشر على بدالة الفرقة يتحول إليه خط بدالة الدفاع بعد الساعة 12 ليلاً، وهاتف مع مرصد الاستخبارات المتقدم، وهاتف مع كتيبة المدفعية التي تسند اللواء، وهاتف مع آمر كتيبة الاسناد، وهاتفان مباشران مع حجابي الفوجين المتقدمين، اضافة إلى هاتف مباشر مع آمر فوج العمق، وهاتف مباشر مع مقر اللواء الجوال. علاوة على الهواتف، توجد أجهزة اتصال بعيد مربوطة على شبكة لاسلكي الفرقة، وشبكة لاسلكي اللواء وشبكة لاسلكي المدفعية). في أوقات العمليات تعمل كل هذه الأجهزة والهواتف بشكل مستمر ما يربك الضباط القائمين بخفارة الحركات بشكل كبير.

استقبلني المقدم مأمون بابتسامة ذابلة بسبب الإرهاق، فهو الآخر لم ينم ليلاً، وقال : كنت أريدك أن تأخذ مكاني في غرفة الحركات ريثما أذهب لآخذ غفوة قصيرة، لكنّ كتيبة مخابرة الفرقة اتصلوا بي وطلبوا أن تذهب لهم فوراً مع نسختين موقعتين من مستند التسلم والاستلام الرقم 102 الشهير...ضحك مداعباً هو يقول : ربما يريدون أن يرسلوا لنا هدية ثمينة، لذا طلبوا ضابطا للاستلام...بالمناسبة أين رفاق العقيدة؟ ما عدنا نراهم...طبيعي... فإنّ واجباتهم أهم من واجباتنا المتعِبة، الله يعينهم، إنهم حقا حائرون، هاهاهاه.

ضحكت مجاملاً له، وترخصت منه أن يمنحني 10 دقائق اتناول فيها طعام الغذاء. بعد وجبة الغذاء عدت مسرعاً إلى ملجأي، واخرجت نسختين موقعتين من مستند 102، احتفظ بها للطوارئ، وطلبت سيارة الخطوط الجديدة (وكنا قد استلمنا شاحنة مرسيدس 2 طن صغيرة لواجبات مد الخطوط) وخرجت بها إلى الكتيبة التي تقع على بعد 8 كيلومترات خلفنا على ضفاف شط العرب.

اتضح أنّ المصروف لنا هو 8 أجهزة تسجيل كاسيت صغيرة، معدة للربط على هواتف المعركة وأجهزة اتصالاتنا مع وحداتنا، مع صندوق يحتوي 30 كاسيت سعة ساعة كاملة،

إضافة إلى 40 بطارية حجم قلم لتشغيل الأجهزة. واجب هذه الأجهزة تسجيل مكالمات المعارك، لتوثيق ما يجري صوتياً، كي لا يمكن للمعنين التراجع عن أوامر أصدروها أو الإدعاء بغير ما يجري. ونصّ كتاب كتيبة المخابرة، على أن واجب تشغيل تلك الاجهزة وادامتها يقع على عاتق ضباط مخابرة اللواء، ويشمل ذلك الأجهزة المربوطة على شبكة اتصالات الفرقة بالألوية.

وعدت إلى مقر اللواء، محمّلاً بالمسؤولية الجديدة بالغة الصعوبة، وكان عليّ أن أربط أجهزة الاتصال فوراً على الشبكات والهواتف المعنية، وأجري عليها تجربة لأفحص صلاحيتها.

دخلت بالأجهزة إلى غرفة الحركات، فوجدت لحسن حظي أن ضابط الركن الكيماوي النقيب همام (اسم رمزي) قد عاد من اجازته، ما سوف يخفف من واجبات الحركات النهارية عن مقدم اللواء الذي لن يحتاجني لأحل محله، كما أن آمر سرية هندسة اللواء قد عاد هو الآخر من اجازته الدورية ما سوف يخفف عني الخفارات الليلية في غرفة الحركات.

ابتسم مقدم ركن مأمون وهو يراني محملا بالعلب والصناديق، وقال: يالله، يالله، هدية دسمة من مقر الفرقة، خير رب أجعله خير!

ضحكت وابلغته بنوع " الهدية" ووظيفتها، ابتسم بهدوء وهو يقول، اعتقد أن الرفاق يجب أن يقوموا بهذه الوظيفة، ضباط المخابرة واجباتهم كثيرة...لكن عليك ان تبدأ بتهيئة المعدات الآن، هل تريدنا أن نخرج من غرفة الحركات؟

ضحكت للنكتة وقلت له إن الربط لا يستغرق سوى دقائق لكن الفحص هو الذي قد يتأخر، ولكن بوسعكم البقاء في أماكنكم وسأقوم بإبلاغ المعنيين هاتفياً بهذا الأمر.

قال مقدم اللواء باسماً ولكنه يتكلم بجد: أليس من الأفضل أن نشعر الوحدات بهذا الأمر بكتاب رسمي؟

قلت له: يا سيدي أنت تقدّر ذلك، اعتقد أن وجود كتاب رسمي مهم في هذه الحالة، وإن كانت كتيبة المخابرة قد اعطتني الأجهزة دون كتاب!!

أجاب متسائلاً: فعلا، وهذا غريب حقاً، على كل حال المسؤولية في رقبتك! أنت الذي جلبت الأجهزة والكاسيتات!

وقضيت ساعات طويلة أربط الأجهزة على الهواتف وأجربها، وعلى أجهزة الاتصال البعيدة المثبتة على الأجهزة اللاسلكية أيضاً، وكان هذا هو الجزء الأصعب، لأنّ الشبكات اللاسلكية في وضع مراقبة، والحديث عليها محظور، لذا كان عليّ أن أتصل بالمحطات

هاتفياً أولاً لأشرح لهم الأمر، ثم أعود لأربط الأجهزة وأجري التجربة معهم. عند منتصف الليل تماما انتهت المحطة الأخيرة. وانتهى يومي الصعب بالضربة القاضية. عدت لملجأي- بيتي التعيس، وتدثرت بفراشي مسرعا لأنام قبل أن يتغير مزاج الميدان.

***

ساتر العدو الجديد في الأرض الحرام

ما برح العدو، والليلة الثالثة على التوالي، منهمكاً في إقامة ساتر ترابي عمودي على حجاباتنا في منطقة الأرض الحرام بقاطع كتيبان شرق البصرة. ورغم القصف المدفعي ورشقات الرشاشات الثقيلة من الفوجين الأول والثاني، لم تتوقف آلياته عن العمل، تحدٍ جديد لنا!

وتطور الموقف، إلى اجتماع قائد الفرقة بآمر اللواء وآمر الفوج الأول الذي اقيم أمامه الساتر، وتوصل المجتمعون إلى أنّ الساتر مقدمة لتعرض معادي، وهو سوف يؤمن للمهاجمين أرضاً مستورة تتيح لهم التقرب من الهدف دون وقوع إصابات في صفوفهم، وتقرر شن عملية مضادة تزيل هذا الساتر. وأمر قائد الفرقة أن ينفذ اللواء بموارده، عملية إزالة الساتر. وهكذا انشغلنا خلال يومين، بأعداد ترتيبات العملية المرتقبة، استطلاعات لأمر اللواء وسرية هندسة اللواء وآمر سرية مغاوير اللواء، وأمر الفوج الأول، وكان نصيبي من الاستعدادات، تنظيم شبكة اتصالات لاسلكية خاصة بالعملية، ومعها كلمات مشفرة (تسمى في الجيش كلمات جفرية) لتأمين حد أدنى من السرية حين التخاطب على شبكات اللاسلكية التي يسهل للعدو التنصت عليها، كما توجب عليّ إعداد محطة ترافق الملازم كريم ضابط الهندسة المكلف بتنفيذ الواجب. وكان التحدي الأكبر الذي يواجهنا هو تقنية تسجيل المكالمات السلكية واللاسلكية التي سوف نطبقها أول مرة خلال هذه العملية. كل هذا يجري، وما زلت وحدي في السرية، فباقي ضباط المخابرة لم يعودوا بعد، كما أن آمر السرية ما زال مجازاً. وكنت أقضي يومي في الركض هنا وهناك، حتى حانت ليلة تنفيذ العملية.

لمدة ليلة كاملة، عملت سرية هندسة اللواء، على فتح ثغرة في حقول الألغام الدفاعية، لتمر من خلالها آليات التنفيذ. واليوم، ومنذ الساعة 9 من هذه الليلة، شرع بالتقدم خلال الأرض الحرام منطلقاً من حجاب الفوج الأول، ضابط الهندسة من سرية هندسة لوائنا، الملازم كريم، وهو يجلس الى جانب سائق شفل، ويرافقهما شفل آخر وسائقه ويجلس إلى جانبه جندي مخابر مع جهاز 105 روسي على شبكة اللواء. انطلق الرتل باتجاه الساتر، وبدأ الشفلان بإزالة الساتر وهما يعملان في نقطتين متناظرتين. ثم بدأت هاونات الفوج الأول والفوج الثاني بمشاغلة حجابات العدو، لمنعهما من الانتباه إلى ما يقوم به الشفلان، بقينا على اتصال بالملازم كريم، كلما استطعنا أن نطلبه، بسبب انشغاله، وآخر مرة تحدث إلينا، طلب من آمر اللواء أن نقطع الاتصال به، ليتاح له التفرغ للعمل، فكان له ما أراد.

جرت إدارة العملية انطلاقاً من مقر الفوج الثالث، فوج العمق، وكان آمر الفوج المقدم مروان حاضرا، وشاركت هاونات فوجه، في توفير غطاء ناري يمنع العدو من استهداف

الشفلات. حتى الساعة الثالثة ليلاً، استمر الملازم كريم بالعمل، واستطاع مع الشفل الثاني اتمام العملية بنجاح تام، وازالة الساتر العمودي المعادي. وعاد الضابط مع الآليات وجنود الواجب إلى اللواء بسلام. وابتهج قائد الفرقة الذي كان يتابع العملية من مقره الجوال، وزف التهنئة إلى آمر اللواء.

وعدنا متعبين إلى مقر اللواء، وآويت إلى فراشي الساعة 5 صباحاً، وانتهى اليوم بسلام، واستطعت أن أنام حتى الساعة 12 ظهراً.

وما إن دبّ ظلام تلك الليلة، حتى اتصلت مراصد الحجابات ومفرزة الرازيت، وأبلغت عن وجود ثلاث شفلات معادية في حجابات العدو، ويبدو أنها تستعد لتعيد إقامة الساتر العمودي الذي ازلناه ليلة أمس.

وجرى تعبير الواقعة إلى مقر الفرقة، وصدر الأمر برمي الشفلات الثلاث بكل الأسلحة المتيسرة. بعد دقائق انفتحت فوهات الجحيم على الشفلات الثلاثة، وأصيب أحدها واشتعلت النيران فيه، فيما انسحب الشفلان الآخران نظراً لكثافة النيران.

وتكررت محاولات العدو على مدى الأيام الثلاثة التالية، وفي كل مرة، كانت الحزمة النارية الكثيفة سبباً لتراجع الشفلات المغيرة، حتى استقر الموقف ولم يكرر العدو المحاولة، وصدر الأمر بإعادة اغلاق الفتحة التي أحدثت في حقل الألغام الدفاعي، وهكذا كان على سرية هندسة اللواء، أن تتقرب مرة أخرى من المنطقة المشتعلة، وتعيد زرع الفتحة التي احدثتها في الحقل.

بعد أسبوعين، صدر قرار رئاسي بمنح الملازم كريم نوط الشجاعة لبطولته، وجرى ابلاغه بموعد الذهاب إلى القصر الجمهوري ليقلده صدام حسين شخصيا نوط الشجاعة.

***

عن الحمام والاستحمام في زمن الحرب!

الاستحمام في جبهات القتال أمنية صعبة المنال، ويتطلب تحقيقها إعداداً وترتيباً، وتكون أحيانا محفوفة بالمخاطر. والمسألة كانت أصعب في قادسية صدام بسنواتها الثمان، لتطاول عمر الحرب لدرجة باتت وحدات الجبهة مساكن دائمة للمقاتلين.

في البداية، كان يُسمح للمقاتلين بشكل فردي بالنزول بعدم تعرض إلى المدن القريبة للاستحمام، وكان هذا يجري بشكل غير رسمي، فهو من ضمن العرف والمسكوت عنه، لكنّ هذا لم يكن حلاً دائماً، ومن ثم صارت الفرق تنظم في مناطقها الإدارية مراكز استراحة فيها حمامات، وكانت الوحدات تنظّم وجبات نزول إلى مناطق الفرق الإدارية ليقوم الجنود بالاستحمام بشكل منتظم، مرة واحدة في الأسبوع على الأقل. لكن ترتيب هذا الموضوع بشكل منساب لم يكن متاحاً، لذا بادرت ألوية الفرقة إلى تنظيم حمامات من قبل الفصائل الكيماوية في الألوية لما تيسّر من مراتب وضباط التشكيلات.

فصيل كيماوي اللواء، فيه عجلة هي عبارة عن بويلر كبير لتسخين الماء محولة على عجلة كاز شحن، اسمها ده ده أي، وخزان ماء حوضي في عجلة كراز روسية اسمه آرس، ومع هذه التجهيزات توجد خيمة سرادق، مجهزة بهيكل من الدوشات الميدانية، يتيح تحميم المصابين كيماويا وتطهيرهم من آثار الغاز الذي قد يصيبهم نتيجة هجوم كيماوي للعدو.

وسجلّت الجبهات بعض الهجمات الكيماوية المتقابلة بغازي الخردل والسارين، لكن لم نسمع عن وحدات التطهير الكيماوي وكيف مارست عملها.

وهكذا كان بإمكان التشكيلات الاستفادة من عجلات الاستحمام الكيماوية لتحميم ضباط ومراتب الألوية، حسب قدرة الفصائل على العمل. وباتت الفصائل الكيماوية تنظّم جدول استحمام رسمي يعمم على الوحدات ويجري العمل به بالتنسيق مع الفرق، لكي لا يصبح الزخم كبيراً على الفصيل الكيماوي.

عموماً، يكتسب عمل الفصيل الكيماوي باعتباره وحدة لتأمين استحمام الجنود في منطقة كتيبان، الكثبان الرملية بقاطع شرق البصرة أهمية خاصة في فصل الشتاء، حيث لا يتيح البرد للمقاتلين الاستحمام بالماء البارد، في ضمن أي نصف ملجأ مستور عن أعين المارة، وهو ما يفعله الجميع ضباطاً ومراتب في فصول الربيع والصيف وحتى منتصف الخريف.

في الحمام الكيماوي غالباً ما أعاني من شدة حرارة الماء، أو من شدة برودته، وفي الحالتين يكون الاستحمام صعباً.

وحين نتحدث عن حمام بالمعنى العام، يغيب طبعاً ترف الحمامات المعروف، فلا رائحة الصوابين الزكية، ولا البخار الذي يحجب الرؤية بضباب الوهم، ولا رائحة الأجساد النظيفة التي تشي بها الحمامات الكبيرة العامة، بل يقتصر الأمر على سكب الماء على الجسد باختصار من خلال عشرين دوشاً، ودلك البدن سريعا بقطعة صابون أو بليفة لإزالة العالق من الدهون والعرق والغبار المخلوط بهما والمتيبس على المسام. بعد هذا يسارع المستحم إلى الخروج إلى فسحة تغيير الملابس التي هي عبارة عن سقيفة يغطيها الصفيح المضلع، ويجبره البرد فيها على الإسراع في ارتداء ملابسه. كل ذلك بحساب أنّ الآخرين ينتظرون نوبة استحمامهم بالدور.

وحين أمر بهذه العجالة على حمامات جبهات الحرب في شرق البصرة، فلا يسعني إلا أن استذكر بغصة نوستالجيا الزمن حمام "التميمي" بالمنطقة المحصورة بين حافظ القاضي في شارع الرشيد وبين ساحة الوثبة في شارع الجمهورية ببغداد . لم يكن في عصوره الذهبية حين دخلته أول مرة عام 1976 برفقة ابن صاحب الحمام صديقي وزميلي في كلية الآداب بجامعة بغداد محمد الدعمي، بل كان قد أضحى حماماً متواضعاً يقضي حاجات سكان هذه المنطقة وأغلبهم من الكادحين. وهو لذلك لم يكن غالي الثمن، بل كانت الدخولية إليه مع صابونة 130 فلساً آنذاك.

مدخل القسم الرجالي فيه فسيح، وبابه تتوسط زاوية بين الزقاق والشارع، وحالما يدلف المرء من بوابته، يجد نفسه في صالة تغيير الملابس والاستراحة، وهي عبارة عن إيوان كبير مربع الأبعاد، تمنطقه دكة جلوس أو نوم واستراحة، وفوقها تعلق الملابس. وتُسلم الأمانات في المدخل، حيث يدفع المرء أجرة الاستحمام ويُعطى مفتاحا لصندوق أماناته يشده بلاستيك على معصمه. تعمّ المكان رائحة هي مزيج من الدارسين "القرفة"، وصابون الغار وعيدان البخور وبخار الماء المتصاعد من جوف الحمام. ينضو المرء عنه لباسه، ويشد حوله خرقة الحمام واسمها "وزرة" لستر وسطه، ثم يجتاز الإيوان حتى نهايته الشمالية الشرقية، حيث يوجد باب يقود إلى ممر قصير، ثم إلى صالة الحمام. تبدأ الصالة بدكة مربعة الشكل، هي دكة التعرق حيث يجلس المستحمون ويتركون الحرارة المتصاعدة من جوف الموقد تدب في أجسادهم، ويقضي بعضهم الوقت مستلقيا على الدكة،، ولا يغادرونها حتى يأخذ العرق منهم كل مأخذ. ثم يدلف المستحم إلى حيث تنتشر أنصاف الجدران التي تحد مواقع شبه منفصلة للاستحمام منفردة عن الحمام العام الذي تنتشر فيه الأحواض الاسمنتية التي تسكب فيها الحنفيات مياه ساخنة وباردة حسب الطلب في ما يشبه الدائرة، ويجلس المستحمون وظهورهم إلى بعض وهم يدلكون أجسادهم. الوزرة التي تشد إلى وسط المستحمين، تنزع غالبا في الحمامات المنفصلة، لكن كثيراً من المستحمين في قاعة الأحواض الاسمنتية أيضاً، ينزعون عنهم وزراتهم، ليستفيدوا من حرارة المكان

والماء الساخن والصابون في تنظيف الأجزاء الأكثر اتساخا في جسم الانسان، وأعني منطقة التناسل وطرح الفضلات.

بعد أن يستحم الزائر، يخرج متمنطقاً بوزرته إلى الإيوان مرة أخرى، لينشف جسده، ويجلس إلى الدكة بانتظار شراب الدارسين الساخن حاد المذاق الذي لابد منه بعد الاستحمام لحفظ الحرارة في جسم الإنسان. وحين ينتهي من شرب الدارسين، بوسع المستحم، أن يرتدي ملابسه، ويذهب إلى المدخل لاسترداد اماناته قبل المغادرة.

وقد يطلب المستحم خدمة مساج وتدليك اضافية مقابل أجر قد يفوق سعر الدخول، نظرا لصعوبة المهمة، ويمكن أن يقوم بها ، مدلكجي واحد أو أكثر حسب الطلب، ويفضّل بعض البدناء أن يتولى تدليك اجسامهم مدلكان قويان، لينزعا عنهم أيّ تعب أو تشنجات عضلية.

وإذا عدنا لحمامات الفصائل الكيماوية للوحدات في شرق البصرة فقد أدت خدمات جمة للمقاتلين، لم يدر في خلد العاملين في المصانع العسكرية الروسية التي انتجتها قط أنها قد تؤدي إليها.

***

إجازات العسكر- محطات الحياة في مقابر الحرب

وبتنا نذرع أعمارنا بالإجازات الدورية، والمرء محظوظ لو ذهب مجازاً، وخاضت وحدته بغيابه معركة طاحنة، ففي ذلك فرصة كبرى لنجاته. أخلاقيا ما هكذا تقاس الأشياء، لكن حين ترتبط الأعمار بأربعة وثمانين يوما في السنة، وهي غالباً ما تنقص ولا تزيد، فكل المقاييس الأخلاقية تصبح بلا معنى.

حين حلت إجازتي الدورية الأولى في منتصف كانون الثاني/ يناير عام 1984، كانت جبهات الحرب تتآكل لصالح إيران، ففي كل هجوم يقضمون قطعة أرض، وفي كل معركة نخسر آلاف الأسرى خاصة، وهذا كان يثير أسئلة في اجتماعات القيادة العسكرية والسياسية والاستخبارات: لماذا يتزايد عدد الأسرى من جنودنا في المعارك؟ ولم يكن أحد يجرؤ أن يبيّن لصدام حسين وهو القائد العالم للقوات المسلحة، أنّ من مضى عليهم أربع سنوات في خنادق القتال، لم يعد أمامهم أمل بأن تنتهي الحرب، إلا بأن يخوضوا مغامرة الأسر، أملا في حل باتجاهٍ آخر. إنهم ليسوا أصحاب قضية سياسية، بل رجال ضاقت نفوسهم بالخنادق والإجازات الدورية، ويريدون حلاً.

هكذا كنت أحاور نفسي مهموماً في الطريق إلى استراحة مقر الفرقة الواقعة في المنطقة الإدارية للفرقة الثامنة في الجباسي، مقابل معمل ورق البصرة. وصلت بي سيارة الخطوط السلكية شاحنة المرسيدس الجديدة إلى مكان وقوف حافلات نقل المجازين التابعة لآمرية تموين ونقل الفرقة، فرأيت حافلة مرسيدس اتومارسان مطلية باللون الخاكي، واقفة وبابها مشرع، لنقل المجازين. كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ليلاً، وقد وصلت مبكراً، إذ أن الأوامر الرسمية تنص على السماح للمجازين بالنزول بعد الثانية عشرة ليلاً وبعد أن يستقر الموقف في الجبهات، ليتاح تقليل الفرق في الوقت بين نزول المجازين وعودة الملتحقين من إجازاتهم الذين يصلون مع الفجر عادة، تحسباً للطواريْ.

ترجلت أحمل حقيبتي، وودعت السائق متجهاً إلى الحافلة. وقفت قرب بابها لأسأل السائق عن اتجاهه، ففاجأني سائقها نائب ضابط عبد الواحد بالسلام مبتسماً بدفء وهو يتكلم بصوته الجهور: "هله وميت هله بالعزيز الغالي، تفضل، رايحين لبغداد، مكانك يمي هنا محجوز". صعدت اعانقه، وأشكره، وانتبهت إلى أن السيارة ما زالت شبه فارغة. فسألته متى يؤمل أن تمتليْ الحافلة لنتحرك؟ أجابني أن المجازين سيصلون تباعاً خلال نصف ساعة، وفتح لي المقعد المنفرد قرب السائق، ودعاني للجلوس، وقدم لي شاياً من قارورة (ترمس) خبأها في باب الحافلة، ومعه سيكارة سومر تصدير(أسود مذهّب العلبة).

وللتوضيح هنا، فعلاقتي بنائب ضابط عبد الواحد تمتد حتى عام 1962، حيث كان آنذاك عاملاً عمره 16 عاماً في أسواق السادة القريبة من بيتنا، واعتاد أن يأتي بالمشتريات

الخاصة بنا، وخاصة صندوق الحليب، بسلّة دراجة المحل السوداء الخاصة الانكليزية المتينة بالمتاجر، متنقلاً بها برشاقة وسرعة وخفة نادرة، مع غناء وصفير لا ينقطع. كنت في السابعة من عمري حينها، وكان في بعض الأحيان، يأخذني من أبي، ويضعني في سلة الدراجة، وينقلني إلى البيت بمناوراته الخطرة، حتى رأته والدتي ذات يوم وهو يقود دراجته الهوائية برعونة، فطلبت من أبي أن لا يسمح لي بالصعود معه في "السلة" لخطورة قيادته.

انتقلنا من ذلك البيت، ففقدت أثره، ولم ألتق به، حتى دخلت الجيش، حيث كان سائق حافلة نقل ركاب عسكرية برتبة نائب ضابط تموين ونقل بباب كلية الاحتياط ذات يوم من عام 1979 لينقلنا ونحن مجازين، وتعرفت أنا عليه ونحن ننتظر وصول باقي التلاميذ من الفصائل كافة، وكلمته وذكّرته، فقام من مقود السياقة وعانقني وكلمني على عجل بشوق. وبعدها تكررت لقاءتنا بهذا الشكل، عبر مصادفات عجيبة من هذا النوع، وكلها في سياق الجيش والتنقل من وإلى الوحدات والتشكيلات. وعرفت منه أنه قد انهى دراسته المتوسطة، وعمل سنوات في البريد، ثم تطوع عام 1977إلى الجيش بصفة نائب ضابط آلي على صنف التموين والنقل، وهو مستمر في عمله منذ 7 سنوات.

في هذه الأثناء، بدأت طلائع الجنود تصل فعلاً إلى الحافلة، فترجلت من مقعدي، وطويته لأوسع للقادمين مجال الصعود. قبل الثانية عشرة والنصف، وصلت عدة شاحنات تنقل مجازي الوحدات، وتزاحم الجنود على باب الحافلة، بحيث امتلأت وبقي كثيرون خارجها. نادى عبد الواحد الركاب، طالباً ترجل الواقفين وهو يقول، أخوان الوقوف ممنوع، عزيزي أبو خليل افسح المجال لغيرك، أنزل وأركب بالسيارات الأخرى، الخط مفتوح حتى الصباح. وبدأ الواقفون بالترجل، ثم أغلق السائق الباب، وجلست إلى مقعد الصدر بجانب السائق وتحركت الحافلة، وسارت بنا بعيداً عن جحيم الحرب إلى فسحة الحياة. خلال الطريق، طلب الجنود من السائق أن يضع لهم كاسيتاتهم المفضلة في جهاز تسجيل السيارة ليستمع اليها الركاب، وأغلبها لسعدي الحلي او عبادي او هاني الكرناوي، ولحسن الحظ أن عبد الواحد سارع يجيبهم بمكبر الصوت: الإخوان الأعزاء، بث الكاسيتات ممنوع لطفاً، نحن نبث راديو، هذه سيارة حكومية، يرجى الكف عن طلبات بث الأغاني.

الليل يلف الشارع الدولي العريض، والسيارات الصغيرة تجتازنا بسرعة كبيرة، وأغلبها تضم عساكر يذهبون إلى أهلهم، أو قادمين من أهلهم الى جبهات الجحيم. إنّها طريق الأحلام بفسحة أمل أمدها 7 أيام، أو طريق الخيبات لعائدين بالهمّ بعد إنقضاء إجازاتهم. وبين هذين الوهمين، تسارع العجلات تجتازنا وهي تحمل رفاة الشهداء، لتصل بهم إلى أهلهم، لتحسم هموم الانتظار الدائم المرير، فبطلهم قد سقط قتيلاً، وعليهم أن يرضوا بالمكافآت والسيارة والراتب التقاعدي.

شرق الطريق الدولي الرابط بين البصرة وبغداد ينير وميض فوهات المدافع والراجمات من بعيد بشكل متقطع حدود "البوابة الشرقية" على تعبير اعلام الدولة، مع كل وميض ينطفئ في الأرواح بصيص أمل بأنّ هذا الجحيم سينتهي في يوم قريب. أما غرب الطريق الدولي، فيخيم ظلام شاسع، تنيره بعض مصابيح ونيونات المحلات على الطريق، وبعض القرى والمدن المتناثرة على امتداد نهر دجلة الذي يتعامد غرب الطريق.

فاصلات الطريق هي نقاط السيطرة، حيث تتوقف الحافلة ويصعد أفراد الانضباط العسكري إليها ويطلبون من الجميع جنوداً وضباط أذون النزول، وغالبا يمر الموقف دون مشاكل، لكن في بعض الحالات تحدث مشاكل، حيث يشك عنصر الانضباط بأنّ نموذج الإجازة غير صحيح، أو أن العسكري متأخر عن موعد التحاقه إلى وحدته، فيجري إنزاله من الحافلة واحتجازه في السيطرة. في أحيان نادرة وخاصة في سيطرة القادسية، الفيلق الرابع، يفتش عناصر الانضباط أمتعة العسكر بحثاً عن أسلحة أو أعتدة مهربة من الجبهة، وهذا يثير مشكلات غالباً.

بينما يفتش الانضباط أمتعة الجنود والضباط التي أنزلوها من جوف الحافلة، أترقب بوجل وكلي أمل أن لا يجدوا مخالفة، فنتأخر في الطريق حتى ينجلي الموقف، لكن خاب أملي هذه المرة وبشكل فظيع، حيث عثر أحد عناصر الانضباط على علبة مغلقة فيها 200 إطلاقة روسية من عيار 7.62 ملم الخاصة بالبندقية كلاشنكوف، وبدأ الجدل مع صاحب الحقيبة، وحين اقتربت لأعرف التفاصيل، فوجئت بأن السارق هو الجندي المكلف ياسر الشمري، أحد جنود وحدتنا من فصيل الدفاع والواجبات، وهو بدوي من أهل السماوة، وكانت هذه مشكلة أخرى، ففي اجازته الدورية مكتوب أنه يقصد السماوة، ولكنه متجه الآن إلى بغداد، وعليه أن يجيب عن السؤال الصعب: "إلى أين أنت ذاهب ومعك هذه الاطلاقات"؟

ظل ياسر ينفي أن في نيته سرقة الاطلاقات، مؤكدا أن أي سارق لا يجازف بأخذ صندوق اطلاقات مغلق بالكامل، فهذا فيه إدانة واضحة له، لكنه يتعلل بأنه قد نسي الصندوق في حقيبته. وفي لحظة وسط الجدل، أعلن ياسر لمن يحققون معه، أنه جندي مطيع لا مخالفات لديه، وطلب شهادتي بالاسم باعتباري ضابط من وحدته. وتوجهت الأنظار إليّ، فتقدم مني رع انضباط يحقق في الموضوع، وسألني بأدب "ما رأيك سيدي فيما يقوله الجندي؟"

أجبت بجفاف: "أنا أعرفه جندياً في الوحدة، منضبطاً، بلا مشكلات، لكن خارج الوحدة لا أعرف عنه شيئاً".

شكرني رئيس العرفاء، والتفت إلى ياسر قائلاً" تبقى معنا يا أبو خليل لنحقق في الموضوع، سرقة عتاد من الجيش عليه عقوبة كبيرة. الأخوة العسكريين رجاء، خذوا امتعتكم وواصلوا طريقكم بالسلامة".

وأعدنا الأمتعة إلى جوف الحافلة، ثم واصلنا طريقنا بعد أن مضى على وقوفنا أكثر من ساعة، وهذا يعني أن كل واحد من الأربعين عسكرياً المسافرين في الحافلة قد فقد من حلمه بالحياة ساعة كاملة بسبب خطأ ياسر!

الساعة تقترب من الرابعة صباحا، ونحن ندخل العمارة، قال عبد الواحد يخاطبني بصوت هامس: أريد أن أدعوك إلى فطور لذيذ لم تذق مثله طيلة عمرك، قيمر في شايخانة سميرة، ما رأيك!؟

أجبته شاكراً: إذا كان وقوفك لأجلي، فأرجو أن لا تتوقف، بوسعي أن انتظر الافطار حتى وصولي إلى بغداد.

قال مبتسماً: بل أريد التوقف لأجل الجميع، فالحافلة العسكرية لا تسير بسرعة مثل الحافلات المدنية، سرعتنا محددة ب 85 كم بالساعة، وهذا يعني أننا سنصل بغداد بحدود العاشرة صباحاً، دعنا نأكل قيمر العمارة عند سميرة، ولن تندم!

بعد دقائق، أوقف عبد الواحد الحافلة في شارع داخل مدينة العمارة، عند ناصية تقاطع ينتبذه مقهى باهر النور بعشرات النيونات واللوكسات في خارجه. وقال مخاطباً الجمع: أخوان نتوقف نصف ساعة استراحة.

وترجلنا، ليقودني إلى مائدة خلف ستار في زاوية المقهى، وقال لي: هنا نجلس، ضع بيريتك وتعال معي لأعرفك على سميرة. وخرجنا من باب جانبي، إلى عربة منارة بثلاث لوكسات، عليها صواني من القيمر الشهي، وتقف عندها صبية خارقة الجمال. الحقيقة أن جمالها ورقة بشرتها أوقفتني مبهوراً بالمفاجأة، إذ لا تتسق البشرة الناعمة خاصة مع المعيديات اللاتي يربين الجاموس ويستخلصن القيمر من حليبه، فهذه مهنة شاقة، تفسد جمال المرأة، لكنّ سميرة هنا كسرت هذا النمط بطريقة صارخة.

صبّح عليها عبد الواحد، وقال لها إن صديق طفولته يريد أن يفطر عندها، فعليها أن تعتني به (في اشارة لي). قالت سميرة وقد علقت ابتسامة مشرقة على وجهها: "أهلا بالصديق، صديقك صديقنا، ونحن نبذل له خير ما عندنا"، وكشفت عن صينية قيمر في داخل العربة، ناصعة البياض، وليس فيها حاشيته النشوية الغليظة التي تفسد القيمر لكنها تفيد باعته بتكثير الكمية. واقتطعت سميرة بسكين نظيفة، قطعتين كبيرتين جداً من القيمر، وضعتها في صحنين وناولتهما لنا باليد، وقالت: "بالعافية، ميت عافية، هله بيك بالعمارة، وبخدمتك العمارة وأهلها".

هالتني كمية القيمر التي وضعتها، فقلت لها: هذا كثير، هل سنأكل كل هذا؟

ضحكت وقالت: خذ المتبقي منه للعائلة، تفرّحهم بي، هذا ليس مثل قيمر الفضيلية عندكم في بغداد، هذا قمير خالص للعزاز فقط !

شكرتها، وعدنا ندلف إلى زاويتنا في المقهى، فوجدنا، على الطاولة، قارورة شاي زجاجية، ومعها أقداح واستكانات نظيفة، وكوم كبير من الخبز العراقي (صمون كاع) خارج تواً من الفرن. جلسنا إلى الطاولة، وبدأنا نأكل، وأكاد أجزم أنني لم أذق قيمراً مثل ذاك طيلة عمري. شبعت حقا، وما زالت بي رغبة في الأكل، لكن لم يعد في معدتي متسع، وانتهينا من الطعام، فنادى عبد الواحد على صبي المقهى، وطلب منه أن يرزم ما تبقى من القيمر والصمون، في رزمتين سفري نأخذها معنا، وجلسنا ندخن متلذذين بالنعمة الرائقة.

بعد نحو ربع ساعة، غادرنا المكان، وانتبهت إلى أن عبد الواحد لم يدفع فلساً واحداً فبادرت أريد أن أدفع، لكنه منعني بيده، وهو يقول: أنا ضيف دائم هنا وهم لا يأخذون مني أجراً، وفّر نقودك يا صديقي.

فهمت ما يرمي إليه، حيث أن هناك اتفاقات غير معلنة بين أصحاب المقاهي والمطاعم وبين سواق الحافلات بحيث أنّ أيّ سائق معفى من دفع الأجور، نظراً لأنه يجلب للمكان مسافرين يشترون منه. وانتهزت فرصة كون عبد الواحد، قريباً من أصحاب المحل، فقلت له: أريد أن اتحدث كلمتين إلى سميرة، ممكن!

ضحك عبد الواحد وهو ينظر إليّ بمكر، وقال لا مانع، هيا بنا إليها!

وقفت عند عربتها وتأملت وجهها المليح، قائلاً: "عندي لك سؤال صغير، ممكن؟"

أجابت: هله يا عيني، كلّ الهله باليسأل!

قلت لها: أنا أعرف أن مهنة صناعة القيمر، تتطلب تعاملاً مستمراً مع الجاموس ومع النار ومياه الأهوار المالحة، وكثير من العمل والوقفة في الشمس والنهوض المبكر، وهذا يجعل المعيدية، متعبة ومبهذلة، لكني أراك مشرقة نظيفة، وفوق هذا اسمك سميرة، كيف جرى ذلك؟؟

ضحكت وهي تجيبني بغنج ودلال بعد أن لحظت إعجابي بها: "ما تقوله صحيح، لكني لا أشتغل على الجاموس ولا على غلي الحليب والنار، ولا أطلع صباحاً من الجوال (البراري) وآتي إلى المدينة، لأني ساكنة هنا في المدينة وأقوم بالبيع فقط، القيمر تأتي به المعيديات من أطراف الولاية، ثم ضحكت وهي تقول، أما عن اسمي، فليش متعجب يعني، المعدان ما يسمون سميرة؟

ضحكت، وقلت لها: لم اسمع بأنّ بين المعدان سميرة، وسميرة بهذا الجمال والنظافة والكرم، شكراً لجوابك، وإن شاء الله مرزوقين دائماً.

ودَعتنا بابتسامة عريضة، وهي تداري فوطتها الملونة على وجهها، تعبيراً عن حيائها من إطرائي وإعجابي بها.

وعدنا نواصل رحلة إجازة الحياة الشهرية، موعودين أبداً بنهاية غامضة لحرب لا نعرف كيف دخلناها لا ونعلم كيف سنخرج منها، والمذياع شرع يبث أغنيات فيروز، وبات حلمنا ببيوتنا وأهلنا مطرزاً بالفيروز والخريف ورائحة الشواطئ، وهي مفارقة.

***

قائد جديد وآمر لواء جديد وغاب الرفاق!

عدت من إجازتي، وكان ينع الربيع قد بدأ يظهر في رمل الصحراء، فاخضرّت أجمات الشوك والعاقول، وبدأت الجرابيع والعقارب والأفاعي تخرج من جحورها بحثا عن الدفء. وتغير حال قيادة لوائنا مرة أخرى، إنها مواسم جديدة في الحرب التي لا تنتهي.

صدر أمر نقل آمر لوائنا العقيد غانم العزاوي كتلميذ إلى كلية الأركان، وكان هذا يعني فيما يعني أنه يؤهل لتولي مناصب قيادية عليا، لأنّ الدخول إلى كلية الأركان يبدأ من رتبة نقيب، ومن النادر أن يُقبل فيها عقيد. الجانب الإيجابي في هذا التغيير، أن آمر اللواء المنقول لم يغادر التشكيل معاقباً كما جرى مع الآمرين الثلاثة الذين سبقوه. وقبل أن يغادرنا إلى موقعه الجديد، التحق المقدم الركن خالد بكر خضر ليتولى منصبه، وهو يحمل 4 أنواط شجاعة، وهذا يعني أنّ له حظوة لدى الرئاسة السياسية، فهو من أصدقاء الرئيس (كل من يحمل 3 أنواط شجاعة فأكثر يكتسب لقب صديق صدام حسين، وهو لقب فخري لكنه يؤهل حامله لكثير من التسهيلات لاسيما في قدرته على الوصول إلى مواقع القيادة ومخاطبتها دون وجل).

وتفاءل الضباط والجنود الباحثون عن تكريم بتولي هذا الرجل منصب قيادة اللواء، إذ يرى كثيرون أنّ المقرب إلى رئاسة الجمهورية هو من يفتح الباب لتكريم اللواء ومنتسبيه في أي معركة، معتبرين أن سبب حرمان لوائنا من التكريم هو تعاقب المشكلات مع آمريه الذين كانوا ضمن هرم اهتمام الرئاسة وبعضهم قريب منها تماماً. العسكر كانوا يعتبرون وصول المقدم الركن خالد بكر خضر بادرة خير وسعد تزيل النحس الذي لازم اللواء.

مع هذا التغيير، تولى قيادة الفرقة العميد الركن صلاح عبود، وهو ما عزز الآمال بأنّ الفرقة الثامنة ستحقق انتصارات في أي معركة، لاسيما أنّ المعارك سجال لا ينتهي.

على مستوى جبهات الجنوب، فشلت علميات فجر 5 وفجر 6 التي شنتها القوات الإيرانية استكمالًا لهجمات سبقتها بنفس الاسم في توخيها احتلال مناطق البصرة وما حولها، لكن إيران استعادت كل أراضيها، وباتت تحاول الدخول إلى العمق العراقي، ونجحت في قضم أجزاء حدودية كبيرة من جبهتها مع العراق، لكنّ الحفاظ على هذه الأجزاء كان مكلفاً بسبب استمرار العراق في عملياته ومحاولاته لاستعادتها، ما حرمها من أن تصبح مناطق آمنة خالية من العمليات العسكرية.

وهكذا استمرت الحرب المنسية، وتواصل نزيف الطرفين. إيران التي اعتمدت سياسة الحشود المهاجمة، كانت تبذل خسائر أسطورية، أما العراق فاعتمد على تفوقه التقني إلى

حد ما لوقف الزحف الإيراني، فتقلصت خسائره، لكن، وفي المقابل، فقد تعاظم عدد الجنود المستسلمين للجانب الإيراني هربا من حرب لا تلوح لها في الأفق نهاية.

في صباح يوم ربيعي مطير في منتصف شهر شباط من عام 1984 بدأت إيران عملياتها على هور الحويزة، متوخية حقول نفط مجنون، وقطع الطريق الدولي الرابط بين بغداد والبصرة، لكنهم تمكنوا من تحقيق الهدف الأول بصعوبة، فيما تعذر تحقيق هدفهم الثاني. بعد 3 ليالٍ من المعارك، صرنا نشاهد ليلاً، هجمات القوات الإيرانية وهي تقع خلفنا في العمق العراقي. كان المنظر مريعاً ومخيفا، راجمات ومدفعية العدو، تبدو خلفنا من جهة الشمال وهي تقصف قطعاتنا في العمق العراقي. وجرى هذا بعد نجاحهم في احتلال مناطق السودة والبيضة وهور الحويزة، وحقول نفط مجنون، وصولاً إلى مقر شركة النفط التي كانت تتولى التنقيب والانتاج هناك. وبما أن مواقع الفرقة الثامنة تقع على القائم الحدودي المقابل لسدة السويب، ونهر كتيبان وشمال بحيرة الأسماك، فإنّ توغل العدو واحتلاله للضفاف الغربية لهور الحويزة، جعل مواقعه عملياً خلفنا بنحو 10 كيلومترات. لكن هذا لن يعني أنه بات يحادد جناح قطعاتنا الشمالي، لأنّ المانع المائي الكبير لا يوفر له أرض معركة مفتوحة مع قواتنا. وكان على الفرقة الثامنة الإسراع لكسر جناح ألويتها بما يناسب تطورات ساحة المعركة، كي لا تنكشف جبهتها الشمالية أمام كشك البصري، وهذا ما جرى. ثم صدر أمر بحركة اللواء 28 المجاور لنا من جهة الشمال ليشارك في عمليات عرفت بلسان عجيردة وتأمين المعابر التي احتلها الإيرانيون، وهذا ما فعله، ما جعلنا في وضع قلق جدا.

فجأة قرر آمر لوائنا الجديد، أن يقيم برجاً ترابياً عالياً يتوّجه مرصد ميداني في داخل محوطة مقر اللواء المربعة، وهذا يعني أنّ مقر اللواء سيصبح هدفاً مستمراً لقصف الإيرانيين حتى دون معارك، ما يعيق شبكة القيادة بشكل كبير.

وأقيم البرج في أقل من يومين، وأتم بناء مرصده في يوم آخر، ومدت الخطوط له، ثم وجه آمر اللواء، بنصب محطة لاسلكية فيه تتصل على شبكة اللواء VHF لبضعة أيام في أوقات متباينة، وتكتفي بالفحص مع باقي المحطات، والجميع يتساءل، ماذا يعني هذا البرج، ولماذا يصرّ آمر اللواء على تعريض مقره لمخاطر القصف الإيراني؟

المفاجأة أن أي قصف لم يحدث، وبقي البرج قائماً لمدة شهرين، ثم صدر أمر مفاجئ بإلغاء المرصد وتسوية البرج بالأرض، وإقامة مقر لواء متقدم يبعد نحو كيلومترين إلى الشمال من مقرنا، في ظهر فوج العمق التابع لنا.

بعد نحو شهرين، حدثني ضابط ركن استخبارات اللواء سراً ذات ليلة ونحن نتفرج على شريط فيديو مثير في غرفة الحركات، عما فعله آمر اللواء، مبيناً أنها خطة مخادعة من

قيادة الفيلق، وكان القصد منها تشتيت جهد العدو في قاطع الأهوار والتخفيف من زخم قواته هناك، لكنّ رد فعل العدو جاء سلبياً تماماً، وهذا غريب حقا.

قلت له بعفوية إنّ الخطة فيها ثغرة كبيرة، إذ أنها قامت على تأسيس محطة في مربع مقر اللواء، تدخل على شبكة اللواء نفسها، وبالنسبة للرصد الإلكتروني للعدو، فإنّ هذا لن يؤشر دخول محطة معادية في شبكة جديدة، فنحن نفحص شبكتنا يومياً مرتين على نفس التردد لنفس الشبكة، وهي مسجلة لدى العدو حتماً في هذا التربيع، وبهذا لن يلحظ العدو دخول محطة جديدة على التربيع. أما بالنسبة للبرج فقد أقيم داخل مقر لوائنا، وهي منطقة مسجلة في القصف المعادي والصديق منذ عمليات شرق البصرة، حيث اشتبكت فيها قطعاتنا مع قطعات العدو.

سارع يرد عليّ وهو يرسم على شفتيه ابتسامة ذات مغزى قائلاً: القيادة تعرف ما تفعل طبعاً، وترى الصورة أحسن مما نراها.

كانت تحركات القطعات الإيرانية كبيرة جداً كما تشير تقارير استخبارية دولية كنت أطلع على بعضها بالإنكليزية عبر مجلات كانت تصل جمعية المترجمين العراقيين بشكل محدود، فيما كان هامش مناورة قطعاتنا محدوداً، رغم تطمينات القيادات الميدانية.

ورغم أن العمليات البرية المتصلة التي حشد له العدو 250 ألف جندي قد نجحت في تحقيق خرق، إذ عبر كثير منهم إلى هور الحويزة وحقول مجنون، لكنّ الأرض هناك ليست أرض معركة قط، لأنها عبارة عن ألسن ترابية ضيقة أو أكداس من القصب "جبايش" منتشرة هنا وهناك، وانتشار القوات عليها يجعل منها أهدافاً سهلة لطائرات الهليكوبتر وعمليات الضفادع البشرية، لكن العراق آنذاك لم يكن يملك سوى سرية واحدة من قوات الضفادع البشرية، تابعة للقوة البحرية، وفصيل واحد تابع للواء 31 قوات خاصة، وبالتالي تأخرت عمليات تطهير الجيوب التي احتلها الإيرانيون، حتى بلغ عدد قواتهم العابرة أكثر من 200 ألف جندي، وهذا رقم مخيف خاصة إذا تمكن العدو من نشرهم في العمق العراقي، ليقطعوا الطريق الدولي الرابط بين بغداد والبصرة، ما سيعيق إلى حد كبير من تحرك القطعات، لاسيما أن أهوار الجبايش في الناصرية على الجانب الآخر من نهر دجلة باتت مأوى للهاربين من الخدمة ولعناصر من المعارضة الإسلامية الشيعية العراقية المسلحة، ما يعني أن خطوط إمداد وتنقّل القطعات وحتى ساحات العمليات ستصبح مهددة .

تكثيف العمليات الإيرانية، خفف إلى حد كبير من وجود حزب البعث ضمن لوائنا (وهو ما يسمى في أدبيات البعث بالتواجد الحزبي، وهو مصطلح مصدره صدام حسين شخصياً ونتج عنه خطأ شاع حتى في وسائل الإعلام العربية، فالتواجد اشتقاق من مصدر الوجد، وهو الحب والشوق، وليس الحضور والوجود كما أريد له). وهكذا فقد جرى – ولحسن حظ أفراد لوائنا ضباطا ومراتب - سحب كل الرفاق الموجودين في اللواء إلى قواطع العمليات

الأخرى، ليكونوا "مراقبين" على مستوى اخلاص القطعات، ومستوى أدائها في قاطع مجنون! وربما سيشارك بعضهم، في ما يعرف ب "قوات مكافحة المتسربين" سيئة الصيت، وهي عبارة عن فصائل إعدام ميدانية، كانت تعدم الناجين الفارين من جبهات القتال، خصوصاً إبان اشتداد الهجمات الإيرانية، باعتبار أن هروب المقاتل في هذه الظروف خيانة لا تحتاج توصيفاً أو تعريفاً أو محاكمة. وهكذا كان من يُلقى القبض عليهم، يُسألون عن وحداتهم، ويجري التأكد من أقوالهم، بالاتصال الهاتفي بالفرق الحزبية في الوحدات التي يدعون انتسابهم لها، ليجري بعد ذلك اعدامهم بسرعة وبأعداد مهولة، وبوتيرة قيل إنها وصلت إلى نحو 300 جندي يومياً في الأيام الثلاثة الأولى للهجوم الإيراني على حقول مجنون، وعمليات شرق دجلة في قاطع العزير التي رافقته.

ومع سحب الرفاق، رحل من لوائنا لفترة غير محددة، النقيب مخابرة ع. معاون أمر سرية مقر ومخابرة اللواء لأنه كان رفيقا حزبياً، فبقيت أنا ضابط المخابرة الأقدم فيه، نظراً لأن آمر الرعيل اللاسلكي الجديد، هو الملازم نجم وضابط حدث من الدورة 68 كلية عسكرية والتي تخرجت في 6 كانون الثاني 1984، ولهذا لم يكن له خبرة في الخدمة بالجبهات، وجرى تنصيبه آمراً للرعيل الأول بأمر من إدارة الضباط بعد نقل آمر الرعيل م. أول خلف الجبوري إلى قوات الحرس الجمهوري.

غياب الرفاق الحائرون ورقابتهم الوسخة كان ربيعاً حقيقياً للجميع، وساهم إلى حد كبير في بث روح المرح والثقة بين أفراد اللواء.

***

أمام محكمة الثورة!

ها أنا أنتظر مع المنتظرين في باحة محكمة الثورة سيئة الصيت، والهلع والأسئلة تجتاحني حول كيفية وصول قضية عسكرية بسيطة متكررة ويومية إلى هذا المستوى المرعب من القضاء. يخفف من هلعي وجود ضابطين آخرين من وحدتي معي في هذا الموقف.

في قاعة انتظار محكمة الثورة في أبو غريب، نحو 60 إلى 80 عراقياً، مدنيون وعسكريون، وهناك عدد من عناصر الانضباط العسكري وعناصر انضباط الشرطة والشرطة والأمن، يقومون بتنظيم العمل والدخول إلى المحكمة. قاعة الانتظار تملؤها مصاطب جلوس منثورة بشكل عشوائي لكنها غالباً غير متقابلة!

استدعيت إلى هذه المحكمة بصفتي شاهد في قضية عسكرية، لكنّ الرعب يأخذني، فالمواقع قد تتبدل ولا أحد يعرف مزاج القاضي المرعب مسلّم الجبوري. معي في القضية م. أول خلف بصفة مشتكي، وم. أول ثائر بصفة شاهد. لا نعلم متى سندخل إلى القاضي المرعب، وهناك قول شائع بين العراقيين، أن من يدخل إلى مسلّم الجبوري (ويدعوه معارفه بكنيته أبو أفكار) لابد أن يخرج بعقوبة، سواء كان مشتكياً أم شاهداً أم مظنوناً! لذا كان الخوف يلفنا نحن الثلاثة ونحن نتهامس محاولين عدم الكشف عن مشاعرنا.

ثم بدأ التوتر يخف، حين دخلت صالة الانتظار، 3 بنات وأمهن، فبدأت أحدى البنات ترمقنا بنظرات ذات مغزى، واستقرت على أحدنا وهو الضابط الأشقر م.أول ثائر، فبدأت بينهما مسيرة الهمسات والغمزات والصمت الرهيب كما تقول نجاة الصغيرة.

وانشغلنا أنا وم. أول خلف بالحديث عن عموميات العمل العسكري، وفجأة تقدم أحد عناصر الانضباط العسكري، وسلّم بشكل حميم على زميلنا م أول ثائر، واتضح أنّه يعرفه، فهما من قرية واحدة. ثم ما لبث أن خفض رأسه بهدوء، وأسرّ شيئا في أذن زميلنا، ثم انصرف. وسرعان ما تغيرت سحنة ثائر بعد كلام الانضباط معه، وما لبث أن غيّر مكان جلوسه بحيث بات ظهره للبنت اللعوب. وسألناه عن حقيقة ما جرى، فانحنى يهمس بصوت خفيض: "إنّها مصيبة، هؤلاء ثلاث أخوات وأمهن، متقدمات بشكوى إلى القانون بشأن قيام أبوهن بمعاشرة بناته جنسياً، وافتضاض بكارة اثنين منهن، وباتت الصغيرة حبلى منه، والصغيرة هي من كانت تغمز لي، شوف المصيبة شلون! القضية وصلت للرئيس صدام حسين، فأحالها إلى محكمة الثورة. لكنّ معلومات الأمن والشرطة كشفت أنّ البنات يمارسن الدعارة وأمّهن تلعب دور القوادة لتشغلهن، والأب الكبير المريض رافض لهذا العمل، وقد حرّم عليهن الخروج، وقطع هاتف البيت، وامتنع عن إعطائهن مصرف للبيت ولغيره، ومنعهن من الذهاب إلى المدارس والعمل، من هنا قررن أن ينتقمن منه بهذه الشكوى الفظيعة، لكن الأمن يعجز حتى الآن عن اثبات هذه المعطيات اللاأخلاقية بشأنهن، ولهذا

يؤجل قاضي محكمة الثورة منذ 3 سنوات البت في قضيتهن، لكن المتضرر بات الأب، فهو ماكث في التوقيف منذ 3 سنوات. شوف بالله، وهي ميخيله عليّه وتأشر وتغمز، خوش مصيبة والله". ضحكنا لكلماته، وبقينا نتكلم، حتى حان دور قضيتنا، فأبلغنا الانضباط أننا سندخل على القاضي لندلي بإفادتنا. وجرى استدعاء المشتكي أولا، ثم الشاهد م.أول ثائر، ثم جاءت نوبتي. ودخلت مرتعدا إلى المكان الذي يخرج أغلب العراقيين منه إلى منصات الإعدام، أديت التحية وقدمت نفسي ووقفت حيث دلني الانضباط أمام القاضي مسلّم الجبوري، وهو رجل ناحل في أواخر اربعينيات عمره، عيناه جامدتان كأنهما عين ميت!

قال القاضي: تقدم إلى أمام، وضع يدك اليمنى على المصحف، وردد القسم!

فعلت ما طلب مني، وبدأ أحد أعضاء هيئة المحكمة يتلو القسم الرسمي وأنا أردد خلفه، ثم قال سألني القاضي أن أروي ما جرى يوم الواقعة.

فبدأت بالقول: هذه الواقعة جرت مطلع عام 1981في قرية السترة قاطع سربل زهاب، قبل أن ينتقل لواؤنا إلى البصرة، وقد حصلت مشادة بين المتهم جندي مطوع ع. ه. وبين م. أول خلف الجبوري الذي كان يأخذ إفادته في مجلس تحقيقي يترأسه هو ونحن أعضاؤه. ونتيجة المشادة، هوى ملازم أول خلف على كتف المتهم الواقف أمامه بمسطرة صغيرة من مساطر المدارس كانت بيده، وهو يقول له" أنت جندي مطوع، كل يوم تدخل هروب وتعود منه، هذا لا يليق بك يا ولد، عيب عليك".

فانفجر الجندي المتهم، بالكلام بصوت عالٍ، وهو يصيح على رئيس المجلس التحقيقي "أنت ضربتني، لا يحق لك ذلك، عيب عليك أنت، أنا جندي مطوع، والجيش لا يسمح لك بضربي، سأشتكي عليك، سأشتكي عليك عند أكبر مرجع، بل سأذهب إلى السيد الرئيس وأعرض عليه أنّك ضربتني بعصا"!

وجاءت ردة فعل الملازم أول خلف عنيفة، فقال بصوت عالٍ "لا ترفع صوتك، أنت الآن أمام آمر سريتك، وفي نفس الوقت أمام رئيس وأعضاء المجلس التحقيقي الخاص بهروبك للمرة الرابعة، أنت مذنب أمام القانون، وبدلاً من أن تعترف بذنبك، ترفع صوتك على الما فوق، سأرفع كشفا بشأن سلوكك هذا، وسيأخذ القانون حقي منك، الطاق بعشرة".

ورد الجندي المتهم، بقوة "أرفع كشف وأفعل ما تريد، سوف أفضحك أمام القانون، واذا كان القانون العسكري لا يرد لي حقي، لعد أخره بالعسكرية، إذا هذه هي العسكرية لعد خرة بيها". وساد صمت رهيب، بسبب حجم الإهانة التي نطق بها المتهم، والتي شملت بلا تردد القائد العام للقوات المسلحة صدام حسين دون الاشارة لأسمه".

وسكتُّ عن الكلام، فسألني القاضي: "هل ضرب رئيس المجلس التحقيقي م أول خلف، المتهم جندي مطوع ع. ه. بالعصا؟"

أجبت: "بل ضربه بمسطرة مدرسية نستعملها في تخطيط أوراق المجالس التحقيقية، وكانت موضوعة على طاولة صغيرة أمام كاتب قلم السرية الذي كان يدوّن الإفادة، وقد ضربه مرة واحدة على كتفه في محاولة للتنبيه وليس للضرب بمعنى الكلمة".

نظر رئيس محكمة الثورة مسلم الجبوري إليّ بعمق مخيف، وصمت نحو دقيقة، ثم قال: حسناً، وقّع على إفادتك، وتفضل خارج المحكمة.

أمضيت الإفادة، وأديت التحية، وخرجت من المكان، وانا أتعرّق رعباً، ويجتاحني شعور قوي أنّ القضية قد وصلت صدام حسين شخصياً وقد أحالها إلى محكمة الثورة، وإلا فمحكمة الثورة لا تنظر في الخلافات بين العسكريين، فهذه قضايا لا تهدد الأمن القومي.

التقينا خارج المحكمة، وروينا لبعضنا تفاصيل افاداتنا، التي جاءت متفقة تماماً مع ما جرى، ثم عدنا إلى الباب الشرقي وتفرقنا كل إلى شأنه.

بعد أكثر من شهرين، وصل مقتبس الحكم إلى الوحدة، وقد قضى بالسجن على الجندي المطوع ع.ه بالسجن لمدة 3 سنوات لتطاوله على الجيش وقيم العسكرية، مع احتساب مدة موقوفيته إن كان موقوفاً، ويقرن ذلك بطرده من سلك الجيش، وبقاءه ليؤدي الخدمة الإلزامية لحين تسريحه مع تسريح أقرانه في المواليد.

والحقيقة أنّ هذا الجندي، وهو من سكنة الطارمية في أطراف بغداد، كان قلقاً ويعيش أزمة، منذ عرفته عام 1980، فقد كان مصنّفا بصفته مصوّر على صنف الاستخبارات العسكرية، ولسبب بقيّ غامضاً علينا، طردته الاستخبارات إلى لوائنا عام 1980، وهناك بقي محتفظاً بصنفه، إلا أنه لا يمارس التصوير، نظراً لعدم وجود ملاك مصور في لواء مشاة جبلي. وقضى كل خدمته هارباً، أو متأخراً أو سجيناً، حتى آل أمره إلى ما أسلفت.

***

مدير صنف المخابرة والبشارة الكبرى!

ترفعت إلى رتبة ملازم أول في ربيع 1984،وهو شيء لم يكن يفكر به أيّ ضابط مجند، فالاستمرار بالخدمة حتى نيل الترفيع محال حسب قانون الضباط المجندين والاحتياط الذي ينص على أن مدة خريجي الكليات الانسانية لن تزيد عن 23 شهرا، لكنّ قادسية صدام نقضت كل القوانين. بعد اسبوعين من الترفيع، زار مقر كتيبة مخابرة الفرقة الثامنة اللواء فاضل ياسين مدير صنف المخابرة، وكانت لي معه قصة.

علمتنا الحرب المتطاولة مع إيران، أنّ تدفق الضيوف الكبار علينا يعني أنّ معركة كبيرة قادمة نحونا. بقي أن نعرف، هل هي معركتنا ضد العدو، أم معركة الإيرانيين ضدنا باعتبارنا عدوهم اللدود.

فجر ذات يوم ربيعي، وقبل شروق الشمس، كنت ضابط خفر في غرفة الحركات، كلمني مرصد حجاب الفوج الأول، وقال لي إنّ حجاب العدو، يخاطبهم بمكبرة صوت. فاتصلت بآمر فصيل الحجاب، وسألته عما يقوله المتحدث، فأجابني، أنّه يلقي على العراقيين خطبة تفيد بأنّ جند الإسلام يريدون تحرير العراقيين من الظالم صدام، وأنّهم في الطريق إلى النصر، وعلى العراقيين أن يتوبوا عن حربهم ضد حفيد فاطمة الزهراء "خميني"!

طلبت منه معالجته بالرصاص، واعلامي إذا انقطع عن الكلام لندرجه في الموقف. بعد نحو نصف ساعة، أعاد الضابط الاتصال وروى لي وهو مغرق في الضحك أنّ قناص الحجاب، قد أطلق على المتكلم بضع رصاصات باتجاه مصدر الصوت، فانقطع الصوت بضع دقائق ثم عاد، وعاد القناص يشاغله، فانقطع مرة أخرى بضع دقائق، وعاد يكمل خطبته العصماء، فعالجه القناص بطلقة واحدة، سكت إثرها دقائق طويلة، ثم عاد وهو يقول" دعني اتكلم يا ابن القحبة، جنود صدام حسين، أولاد مي أكرم، دعونا نكمل الخطبة، فاليوم جمعة!"

ضحكتُ لما قاله، ثم أوصيته بمواصلة الرمي عليه حتى يتوقف عن الكلام، واتصلت بقلم اللواء، وأبلغتهم عما جرى، وبضرورة درجه في الموقف الصباحي. المفاجاة جاءت بعد يومين، حيث كرّم قائد الفرقة القناص لتمكنه من اسكات مصدر اعلامي معادي.

كانت بداية مرحة ليوم قتال آخر في جبهة شرق البصرة التي تهدد باقتطاع رئة العراق، فقد كنا نحرس منطقة كتيبان شمال بحيرة الأسماك، وعمق المنطقة من الحدود حتى الطريق الرئيسي الرابط بين ناحية الدير والبصرة هو 10 كيلومتر فحسب، وهذا يعني أنّ أيّ خرق مدرع معادي، سيتمكن أن يجتاح هذه المنطقة في ظرف ساعات، ويهدد البصرة بشكل

مباشر، لاسيما أننا لا نملك ظهيراً يدعمنا إذ أنّ المسافة الفاصلة بين ظهرنا وبين الطريق الدولي، خالية من أي قطعات، وأيّ خرق مدرع معادي سيندفع إلى العمق بلا مشقة.

ذهبت لأنام، وبعد حين رن هاتفي، فأفقت مذعوراً، ورفعت الجهاز اليدوي للهاتف، فقال لي عامل البدالة أنّ آمر كتيبة المخابرة العميد يوسف جبرائيل جبري يريد أن يكلمني. وجاءني صوته الأنيق معتذراً لأنه ايقظني مبكراً وهو المعروف بتهذيبه وحسن خلقه، فأجبته بلطف واحترام، فسارع يهنئني بالترقية ويخبرني أنّ مدير صنف المخابرة، يزور الكتيبة هذا اليوم بعد الظهر وقد طلب لقاء ضباط مخابرة الألوية لعرض احتياجاتهم، لذا فإنّ حضوري مهم جداً اليوم نحو الساعة الثانية بعد الظهر ومعي احتياجات اللواء والأفواج. ثم أبلغني أنّ كتابا رسمياً مستعجلاً بطلب حضورنا قد تم توجيهه إلى الألوية والوحدات. وعدته بالحضور، وقمت أنظر إلى ساعتي، فوجدتها الحادية عشرة صباحاً يعني نمت نحو 4 ساعات!

بعد نحو ساعة، كرر العميد يوسف طلبي، وأكد على ضرورة حضوري، كما أوصاني بجلب كتاب رسمي من اللواء إلى كتيبة المخابرة ، ترد فيه طلباتنا، لنعرضه باليد على مدير المخابرة بعد تأشير آمر الكتيبة عليه. وعدته بذلك، وذهبت أنجز الكتاب المذكور، وأنا أعرف عن ظهر غيب ما هي احتياجاتنا واحتياجات أفواجنا لكثرة متابعتي اليومية لها. وانجزت الكتاب، وأوصيت قلم اللواء أن يدخله بشكل استثنائي إلى مكتب آمر اللواء لتوقيعه بسبب ضرورة ذهابي مستصحباً الكتاب إلى مقر كتيبة المخابرة للقاء المدير. وجرى كل ذلك بيسر.

في تمام الساعة الثانية ظهراً، كنت في بهو كتيبة مخابرة الفرقة الثامنة، وقد انتابني شعور غريب لأنها أول مرة ألتقي مدير الصنف منذ التحاقي بالجيش قبل 4 سنوات! التقيت هناك بضباط مخابرة الألوية، ولم يكن عددنا يزيد عن 4 ما سوف يتيح لكلٍّ منا مزيداً من الوقت لعرض طلباته.

بعد نحو نصف ساعة، دخل علينا اللواء فاضل ياسين مدير صنف المخابرة، ومعه العميد عبد الرزاق مدير الإدارة في مديرية المخابرة، والعميد يوسف جبرائيل جبري، وضابط آخر برتبة رائد لم أعرفه.

بدا المنظر غريباً، جمهرة من الجنرالات، تلتقي بجمهرة من الضباط الأعوان، وسلم المدير ومن معه علينا بدماثة، ثم بدأ معنا حديثاً عاماً عن هموم ومشكلات صنف المخابرة، وبعدها بدأنا نعرض طلباتنا مشفوعة بكتب رسمية وأصغى الجنرال لكلماتنا ثم سارع الرائد المرافق للمدير بجمع الطلبات الرسمية، ووضعها في حقيبة يحملها معه، وبعدها، سادت فترة صمت قصيرة، قطعها المدير بقوله: بعيداً عن الطلبات الرسمية الخاصة بالتشكيلات والوحدات، هل توجد طلبات خاصة؟

ساد صمت لبضع ثوانٍ، وسارعت اقطعه غانماً الفرصة، وطالباً الإذن بالحديث، وعرضت على المدير أني أعمل في اللواء منذ 4 سنوات، وقد جُرحت مرتين، وشاركت في كل معارك اللواء في القاطعين الأوسط والجنوبي، ومن حقي ولغرض توسيع معلوماتي أن أطلب نقلي إلى مستوى كتيبة مخابرة فرقة أو أي وحدة مخابرة أخرى لأتعرف على ظروف العمل وأوسع خبرتي.

أصغى المدير إليّ بصمت، ثم قال وهو يكتب: ما اسمك ورتبتك؟ ثم سألني عن تاريخ التحاقي باللواء، وعن تاريخ ترفيعي. وخاطب العميد عبد الرزاق طالباً منه تدوين المعلومات، ثم نظر إليّ مبتسماً وهو يقول: إن شاء الله خير.

ولم يكن غريبا أنّ باقي الضباط لم يوجهوا له نفس الطلب، لأنّ أقدمهم لم تمض عليه أكثر من سنتين في لوائه. وهكذا انفردت وحدي بهذا الطلب، وانتهت زيارتنا، وغادرنا المكان، وكان قلبي يحدثني أنّ المدير سينقلني إلى كتيبة مخابرة الفرقة، وهو ما كنت أطمح له.

بعد أسبوع، أعلمتنا المديرية بإرسال ضابط مخابرة مأموراً من قبلنا بصحبة مستندات التسلم والتسليم موقعة ومختومة من قبل آمري الوحدات والضباط الإداريين لاستلام مواد مصروفة لنا من مخازن المديرية. وجرى إرسالي على جناح السرعة بسيارة المخابرة المرسيدس الجديدة إلى بغداد، وبالفعل تدفقت علينا مواد المخابرة، ومواد تصليح الخطوط، وأعداد كبيرة من الهواتف، والمعدات، حتى أن مأموري المخازن في الراشدية، أتاحوا لي دخول المخزن، والاطلاع شخصيا على أرصدتهم من المعدات، وهو أمر لم يجر (معي على الأقل) سابقاً، وصرفوا لي عددا يدوية للحدادة والكهرباء بلا ودون درجها في المستند كهدية. في اليوم التالي لاستلامي المعدات، مضيت إلى مديرية المخابرة لتوقيع أوراق الاستلام وكان مقرها في بناية قديمة مقابل وزارة الدفاع في الباب المعظم، فما لبثت أن أبلغت بأنّ المدير قد صرف لنا سيارتي محطات لاسلكية جديدة من نوع واز، وعلينا أن نستلمها هذا اليوم.

وكان عليّ أن أتصل بمقر اللواء عبر بدالة الدفاع بصعوبة بالغة، وأكلم مقدم اللواء طالباً منه أن يرسل لي سائقَين يرافقهما الضابط الآلي ومعه مستندات الاستلام والتسليم مختومة وموقعة حسب الأصول لاستلام سيارتي محطات من نوع واز جديدة!

فرح مقدم اللواء بالأخبار، لاسيما أنّ الحصول على سيارات جديدة هو خبر نادر من نوعه، فأبلغني بالبقاء في بغداد، ومعاودة الاتصال به بعد الظهر لترتيب لقائي بالمأمورين.

وجرت الأمور على ما يرام، وأمضيت 3 أيام في العاصمة، عدت في نهايتها محمّلاً بالمواد وترافقني سيارات جديدة في قافلة منصورة.

تلك الليلة، سهرنا في غرفة حركات اللواء، وكانت معارك لسان عجيردة وقاطع العزير ما زالت مستمرة، لكنّ جبهتنا بقيت هادئة. وفيما كنّا نشاهد شريط فيديو لفيلم من سلسلة زومبي، قال لي مقدم اللواء إنّ وصول المواد بهذه السرعة، يدلُّ على أنّ هناك معركة قادمة" فشدوا لها الأحزمة"! تلك النبوءة التي كنت أنا أيضاً أتوقعها، تحققت بسرعة بالغة.

***

عمليات مجنون وهجوم على جبهة الفرقة الثامنة

تمر الليالي وتكرّ مسبحة الأيام، والراجمات والمدفعية الإيرانية، تقصف القطعات العراقية بعمق كبير خلف جبهتنا، وبقيّ المنظر ناقوساً يذكرنا أنّ جبهتنا ستتفجر قريباً، وقبل أن ينتهي ربيع 1984، كان الهجوم الإيراني الكبير.

لم يكن التعرض الواسع على جبهة الفرقة الثامنة مفاجئاً، فمنذ أيام تخبرنا المراصد عن حركة مستمرة لقطعات جديدة تدخل في مواضع العدو أمام قاطعنا في سدة السويب ونهر كتيبان والكثبان الرملية، نحن هنا نحمي الجناح الجنوبي لكشك البصري، وتقع مواضع فرقتنا بالضبط في الضلع القائم على هور الحويزة وحقول نفط مجنون، ومن الغريب حقا أنّ جبهتنا لم تسخن حتى هذا الوقت. وانشغلت سرايا هندسة الفرقة والألوية خلال فترة تحشد العدو، بتعزيز حقول الألغام، والموانع السلكية، وبحماية الخندق الواقع خلف هذه الخطوط، وهو خط الصد المتقدم أمام حجاباتنا، وكلّ هذا حرم العدو من تحقيق عنصر المباغتة وهو عنصر حاسم في أيّ نصر.

وظلت تأكيدات الاستخبارات تتوافد عن استعدادات العدو لشن تعرض واسع على جبهة الفرقة الثامنة، بقصد احتلال الجناح الأرضي الجنوبي المتاخم لهور مجنون وامتدادات مناطق الأهوار في الحويزة. عززت الفرقة مواقع لوائنا بسرية دبابات توزعت على مواضع السرايا المتقدمة، وانفتح رعيلان منها مع فوج العمق في لوائنا، تحسباً لحدوث خرق مدرع يمكن أن تتصدى له. المعرفة المسبقة بنوايا العدو في جبهتنا، ساعدت إلى حد كبير في استقبال الهجوم بطريقة تليق بالمدافعين.

دون سابق إنذار، انهمرت رشقة راجمة صواريخ كراد (20 صاروخاً) على مقر لوائنا، وهو أمر لم يحدث منذ زمن طويل نسبياً. تقديرات الجميع أنّها مقدمة لبداية الهجوم. الصواريخ كلها سقطت داخل مقر اللواء وهو عبارة عن نحو كيلومتر مربع محاط بساتر ترابي معزز بالقوات، ولم يُصب أحدٌ بأذى. أحد الصواريخ أصاب ملجأ رئيس عرفاء الوحدة الذي كان مشغولاً مع جنود السرية بتعزيز مقر اللواء الجوال. دُمر ملجأه الفولاذي، لكنّه لم يصب بأذى. والملاحظ دائما أنّ القوة التدميرية للصواريخ أقل بكثير من القوة التدميرية للقنابل، وهذا بسبب صغر العبوة الناسفة المحمولة في رأس الصاروخ، لصالح العبوة الدافعة الكبيرة في بدنه.

تلك الليلة، وبعد رشقة الصواريخ خرجنا إلى مقر اللواء الجوال، ونصبنا محطات الاتصال اللاسلكي، وفحصنا سلامة الاتصال على الشبكات، وأجرينا إدامة على البدالة ذات العشرة خطوط المنصوبة هناك، وسلامة خطوطها مع مقر اللواء ومع الأفواج ومراصد

الاستخبارات ومقر الفرقة. آمر اللواء، التحق بنا لفترة نحو ساعة، ليبدي ملاحظاته بشان استعدادات المقر الجوال للمعركة، وطلب فوراً من سرية الهندسة إرسال شفل لحفر 10 ملاجئ تستتر فيها سيارات الضباط ومحطات المخابرة المؤمّل عملهم في المقر الجوال حال اندلاع المعركة، وهو أمر مهم، لكنه فات الجميع.

بقينا في المقر الجوال حتى نحو الساعة 2 فجرا، ولم يشهد القاطع أيّ تحرك مريب للعدو، ولم تبدأ مدفعيته بعمليات القصف التمهيدي الواسع الذي يسبق عادة أي هجوم. وحسب ملاحظتي الشخصية، لم أشهد قيام الطيران الإيراني بتنفيذ غارات تسبق هجماتهم منذ سنوات طويلة، وهذا يثبت أنّ قوتهم الجوية بقيت حتى نهاية الحرب خارج المعركة بسبب ضعفها.

في الليلة التالية، خرجنا مع حلول الظلام إلى المقر الجوال، وكانت مراصد الاستخبارات قد أعلمتنا طيلة اليوم، بحركة غير عادية في حجابات العدو، ما يشير إلى احتمال وقوع الهجوم هذه الليلة. ونجحت سرية الهندسة في حفر 10 ملاجئ مخصصة لستر السيارات في ظهر مقر اللواء الجوال، وكان أحد جنود الرعيل السلكي يرافق الشفل العامل طيلة الوقت ليضمن سلامة الشبكة السلكية من تخريب محتمل غير مقصود. مقر اللواء الجوال هو تل بارتفاع نحو 10 أمتار، يتوّجه ملجأ هندسة فولاذي العلامة 3، ومدخله ملجأين هندسيين العلامة 2، يشكلان معه صليباً، حيث تستقر في أحد الملجأين بدالة المقر الجوال، وفي الآخر محطات الاتصال اللاسلكي، إضافة الى أن ما بينهما هو معبر الدخول الى المقر الرئيسي في الملجأ الفولاذي الأكبر. ثم طُمر المكان بأكوام من التراب، وسوّيت حافاته بحيث لا تظهر الملاجئ شاخصة.

ليلتنا الثانية في المقر الجوال، كانت مجرد انتظار، رغم برقيات التأكيد من العمليات العامة ومن الاستخبارات، بأنّ العدو سيشرع الليلة بتعرض واسع. وفي الساعة الرابعة صباحاً، عاد المقر الجوال إلى اللواء، دون أن يقع الهجوم المرتقب. هذه الليالي من الانتظار والتوتر أتعبت القطعات المدافعة، وقللت بعض الشيء من حماس المقاتلين لخوض معركة دفاعية واسعة.

في الليلة الثالثة بُلّغنا أن لا نخرج إلى المقر الجوال قبل الساعة العاشرة ليلاً، وهكذا استطعنا أن نريح أعصابنا ونتناول طعام العشاء بهدوء ولا استعجال، لكن، ما إن حلّت الساعة الثامنة ليلاً، حتى أبلغنا مقر الفرقة بأنّ الهجوم سيقوم بعد دقائق، وعلينا التصدي له، وخرجنا ألى المقر الجوال، آمر اللواء، وضابط ركن الحركات، وآمر كتيبة مدفعية 48 وهي في الاسناد المباشر للواء، وأمين سر فرقة 23 الأطراف الحزبية الملازم أول ن.، وأنا للأشراف على شؤون المخابرة، وما أن استقر بنا المقام فيه، حتى بدأ العدو بعميات القصف التمهيدي على قطعاتنا، ما أشّر انطلاق الهجوم. القصف التمهيدي لم يكن بالكثافة

التي شهدتها عادة في هجمات سابقة، لكنه ركز بشدة بالهاونات على حجاباتنا، ثم أبلغنا الفوج الاول، أنّ دبابة أو أكثر تطلق رميات مباشرة (بقذائف مهداد لمقاتلة الدروع وتدمير الجدران والمباني الكونكريتية) من الساتر القريب على حجاباتنا، وطلبوا مشاغلة الفوهات التي ترمي.

آمر اللواء المقدم الركن خالد بكر خضر، بدا متماسكاً، وقال : إنّ من المبكّر سحب الحجابات الآن، ولكني لا اعتقد أن دبابات ترمي باتجاههم، بل هي مدافع 106 مقاتلة الدروع محمولة على عجلات، وهي صغيرة الحجم، قليلة الضوضاء، وتصل بسهولة إلى الحافة الأمامية، وتستتر في مواضع عادية، ولا تلزمها منصات رمي. وخاطب ضابط ركن الحركات طالباً منه توجيه نيران سرايا إسناد الفوجين على موضع الفوهات التي ترمي بقنابل مهداد باتجاه حجاباتنا.

خلال عشر دقائق، رمت سرايا الإسناد رشقات مكثفة بهاونات من عيار 82 ملم ساتر العدو المتقدم المقابل لحجاباتنا والذي يمثل حجاباتهم، كما رمت بكثافة الساتر الذي يليه، والذي تستتر فيه عادة قياداتهم الميدانية.

مع ضجيج القصف، خرجت أدخن سيكاره واتفرج على منظر الجبهة في الليل، فهالني أنّ قاطع الفرقة 30 (وتُدعى قوات الحسين) شمال مواقع فرقتنا قد اشتعل بقصف مركز من قطعاتنا على مواقع العدو في الهور. وكان منظر القنابل الثقيلة التي تطلقها كتائب المدفعية بعيدة المدى المعروفة بالنمساوي، تطير عبر الليل في عناقيد مذنبة قاصدة مواقع العدو. هذا القاطع كان قد نجح العدو في اسقاطه في ليلة 21 / 22 شباط سنة 1984 حيث شنت قواته هجوما رئيسياً بثلاث حملات برمائية مستخدما الزوارق المطاطية وزوارق فايبر كلاس بأحجام مختلفة بتصنيع محلي بدائي لنقل القدمات المعقبة وأسلحة الإسناد، متوخياً أهدافاً في مخافر أبو الصخير والترابة وأبو ذِكِرْ ومنطقة البيضة التي تقع في منطقة الكسارة داخل هور الحويزة شرق مدينة قلعة صالح وجزر مجنون الشمالي والجنوبي ومنطقة غزيل مقابل مدينة القرنة ونجحت هذه العملية واستولى العدو على حقلي مجنون الشمالي والجنوبي .ويبدو أنّ قواتنا تنفذ الآن تعرضاً واسعاً عليه، أو أنّ العدو ينفذ تعرضا واسعاً، ومدفعيتنا تعمل على احباطه.

انهيت سيجارتي ودخلت الى المقر الجوال، فأخبرت آمر اللواء، أن خلفنا إلى الشمال تجري معركة كبرى، سارع بالخروج من الملجأ وتأمل المنظر لدقائق، وعاد يخبرنا أنها تبدو معركة، لكن الغريب لمَ لم تبلغنا الفرقة بشيء. في هذه الأثناء تعطلت خطوط أفواجنا السلكية، فاتصلت بالمقر الرئيسي وأوعزت الى الملازم عبد وهو ضابط المخابرة الموجود هناك بإخراج مفرزتي تصليح، وكنت أعرف مسبقا أنّها لن تصلح الخطوط بسهولة، فالعمل في ظل الهجوم غير مجدٍ ولن تلبث الخطوط أن تنقطع، فيصبح تعريض حياة الجنود إلى

هاتف تاب 312 هنغاري ميداني

الخطر مغامرة حمقاء، لكن لابد من إظهار الاهتمام والجد في العمل، هكذا هي قواعد لعبة المخابرة. القادة والآمرون الجيدون يدركون هذا الأمر، فينتقلون دون تذمر للاعتماد على الشبكات اللاسلكية لتعبير واستلام الأوامر، مع خطورة الشبكات اللاسلكية التي تكشف بسرعة مقرات القيادة وتعرضها لنيران العدو. أما القادة الخائفون، فيتعكزون على تعطل الخطوط السلكية، ويضغطون على وحدات المخابرة في تشكيلاتهم لتأمين فائقية مطلقة للخطوط السلكية إبان عمليات التعرض الكبرى، وهو عملياً أمر مستحيل. وهكذا تجاهل المقدم الركن خالد بكر خضر آمر لوائنا، انقطاع الاسلاك، وقال بهدوء: "حاولوا أن تصلحوها بسرعة ملازم أول ملهم!" ثم تحول إلى الاعتماد على الشبكة اللاسلكية في تمرير واستلام الأوامر. هذا الأمر ضاعف الجهد على عاتقي، حيث كنت مشغولاً بتمرير الأوامر على الأجهزة بنفسي، فيما توجّب عليّ شخصياً تسجيل كل مكالمات المعركة، بناء على الأوامر العليا، وهذا جعل مهمتي أصعب. ولا بد من الإشارة هنا، إلى أن ضابط المخابرة القائم بوظيفة آمر الرعيل اللاسلكي الملازم عبد كان ضابطاً حدثاً معدوم الخبرة في الجبهة، وقد بقي في مقر اللواء يتابع شؤون المخابرة من هناك، فيما اصطحبني آمر اللواء معه لإدارة المعركة من المقر المتقدم.

بعد نحو ساعة من بدء المعركة، أبلغنا آمر الفوج الأول، أن مفارز معادية تسللت إلى الخندق الساتر الذي يحمي حجاباتنا، وهي محاصرة في الخندق، ولا تستطيع العودة ولا التقدم باتجاهنا. فأوعز آمر اللواء إلى رعائل الدبابات المنفتحة مع سرايا الفوج برميهم برشقات من قنابل الانفلاق الجوي الخاصة بمقاتلة قوات المشاة المهاجمة، كما أوعز إلى الحجابات، باستخدام صواريخ مقاتلة الأشخاص من نوع آر بي جي 7 لمعالجتهم. بعد نحو نصف ساعة، أبلغ مرصد الاستخبارات المتقدم، أنّ عدداً كبيراً من القوات المعادية التي تسربت إلى الخندق ، قد سقط بين قتل وجريح، وتحاول القوات المهاجمة أن تسحبهم بلا جدوى بسبب كثافة السدود النارية العراقية.

في نفس الوقت، أبلغ آمر الفوج الثاني، عن رميات مباشرة بمدفع دبابة، تستهدف حجاباته، لكنه أكد انّ أيّ قوات مشاة معادية لم تتقدم باتجاه حجابات الفوج، على الأقل حتى تلك الساعة. فأوعز آمر اللواء، بمشاغلة مصادر النيران بقانبر الهاون 82 وبرميات المدفع 106 المباشرة.

واستمر التراشق بالمدفعية، فيما كانت رشاشات الفوجين الثقيلة المتمركزة في السرايا المتقدمة، تفتح نيرانها بكثافة على القطعات المهاجمة.

دخل على شبكتنا مع أفواجنا تأثيرٌ معادٍ، وبدأت أجهزة معادية تبث على ترددنا تشويشاً ما طمس الصوت بشكل واضح. طلبت من المحطات بسرعة عن طريق شبكة المدفعية الانتقال إلى التردد الاحتياطي الأول، (وهو انتقال يجري في العادة بشكل آلي ودون أمر تفادياً

للتشويش والتنصت المعادي، لكن اصراري على تعبير الأمر على شبكة المدفعية جاء لتأكيد التغيير) للخروج من التردد الذي دخل العدو عليه. وبما يشبه المعجزة، جاء انتقال المحطات إلى الترددات الاحتياطية سلساً، ودون تأخير، حتى أن بعض آمري الأفواج، لم يدركوا الانتقال الذي جرى.

بعد نحو ساعة من توقف الاتصال، سألني آمر اللواء، إن كان التردد الجديد يعمل بانسياب، فأسمعته الاتصال على التردد الجديد مع كل أفواجنا، وكلم بنفسه أمري الوحدات، وأخذ منهم آخر تطورات الموقف. فقد كشف آمر الفوج الأول، أن مفارز راجلة تحمل سلالم خشبية، قد تسربت من حجابات العدو أمام قاطع فوجه مرة أخرى، وقد نجحت في تخطي الخط الأول من المانع السلكي المنفاخي الثلاثي بالعبور عليه بالسلالم الخشبية، ثم نزلت بالسلالم إلى الخندق الساتر العميق الذي يواجه قطعاتنا، لكنّ حجم نيراننا يمنعها من التقدم، وسوف تستتر بلا شك بالحافة الغربية من الخندق باتجاهنا، متخذة منها ساتراً يقيها نيراننا.

مع اقتراب الفجر، ابلغتنا محطة رازيت الفرقة (محطة معدات فنية خاصة بمراقبة نشاط المخابرة والنشاط الالكتروني المعادي) بأنّ محطة معادية تقع في التربيع 2100 شرقاً و5200 شمالاً، قد دخلت تتنصت على شبكتنا، ولابد لنا من تغيير التردد فوراً، علاوة على ضرورة تنفيذ رميات على المحطة المعادية. أبلغت آمر اللواء، فأوعز إلى آمر كتيبة الإسناد المباشر "كتيبة مدفعية الميدان 48" بتنفيذ ضربة بمدفع منفرد، على المحطة، تتكرر مرة كل 5 دقائق لمدة ساعة كاملة لمنعها من العمل.

بعد دقائق، انهمرت على مقرنا الجوال رشقتا صواريخ من راجمات صينية صغيرة معادية تحمل عادة في شاحنة صغيرة، كل رشقة 20 صاروخاً، وكان القصف نقطوياً، أريد به تدمير المقر الجوال، ما يعني أنّ نشاطنا اللاسلكي المكثف قد نبههم إلى مقرنا باعتباره مقر القيادة الميداني الأعلى، فاعتمدوا تدميره أو مشاغلته. وصفُ القصف بهذا الشكل يظهره كأمر بسيط هين، لكن في الحقيقة أنّ كل من كان في ذلك المكان، شعر برعب أن الموت يقف قريباً جداً منه، وقد تكون هذه لحظات حياته الأخيرة. علا الشحوب وجوه الجميع، وخرج أغلبهم بعد سقوط الصاروخ الأخير، ليتبول في سفح التلة التي نقف فوقها.

بعد نحو 10 دقائق، انهمرت علينا رشقة صواريخ غراد هذه المرة، بمعدل 20 صاروخ، سقطت جميعها حولنا مقتربة إلى نحو 4 أمتار أحياناً، لكنّ وجودنا في أعلى التل أنقذنا إلى حد كبير من تأثيرها.

اشتد الهلع والترقب في نفوس الجميع، وما لبث آمر الفوج الثاني، أن أتصل مبلّغاً عن جنود معادين يتقدمون من الخندق الساتر أمام الفوج الأول باتجاه حجابات الفوج الثاني وهم يحملون سلالم خشبية. في هذه اللحظة، نادى آمر اللواء سائقه ومرافقه وعامل المحطة السلكية الدائمة المرافقة له، وخرج مبلغاً أنه ذاهب إلى الفوج الأول وبعده إلى الفوج الثاني!

انتاب الرعب الجميع، فخروج أي انسان إلى الفوج المشتبك بالمعركة في هذه اللحظات فيه مخاطرة كبرى، لا يفكر سوى قليلين في خوضها، لكنّ آمر اللواء كان يشعر أنها اللحظة الحاسمة التي توجب وجوده إلى جانب آمري الفوجين، لاحتمال حدوث خرق معادٍ، فخرج بلا تردد. القائد يصنع معنويات، والمأمور حين يرى قائده يقف إلى جانبه ويشاركه مواجهة العدو صدراً بصدر، تشتد عزيمته، وهذه هي خلاصة دور الضابط في المعركة. وما لبث الرفيق الحزبي أمين سر فرقة اللواء أن نادى سائقه ومرافقه، مبلغاً أنّه خارج بمعية آمر اللواء (والحقيقة أنّ موقف آمر اللواء أجبره على ذلك، فوظيفته تحتم عليه الحضور حيث يكون آمر التشكيل موجوداً بلا توانٍ، وهكذا بات عليه الذهاب إلى الجحيم)، فغادر على عجل وشحوب الموتى يعلو وجهه.

ساد الجميع ترقب مشوب بخوف شديد، فالموقف يتسارع، والتهديد يشتد، واستهداف مقر اللواء الجوال بهذه الشدة، يدل على دقة معلومات العدو عن شكل انفتاح قواتنا على الأرض في هذه اللحظة، وهو أمر عززته معلومات الرازيت، وكل وهذا خطير جداً.

***

من غموض مخيف إلى نصر باهر!

قبل انبلاج فجر اليوم الثاني من معركة شرق البصرة الثانية بات دورنا في مقر اللواء الجوال محدوداً للغاية بعد أن غادرنا آمر اللواء، وانحسرت الأوامر الصادرة من الجوال على شبكة آمر كتيبة الاسناد، فيما أبلغتُ كل محطاتنا على شبكة VHF بضرورة الانتقال إلى التردد الاحتياطي الثاني فوراً بسبب دخول محطة معادية مرة أخرى على الشبكة.

مع نفسي كنت أتخيل آمر اللواء جريحاً أو قتيلا وقد زج بنفسه في آتون المعركة، وأخال أن هذا كان شعور الجميع. ومن بين معجزات المعركة، أنّ خطوطنا السلكية مع أفواجنا الثلاث فجأة عادت للعمل، فقد نجحت مفارز التصليح في إعادة الحياة إليها، وإثر ذلك اتصلت بمحطاتنا اللاسلكية هاتفياً وأبلغتهم شخصياً جميعاً بالانتقال إلى التردد الاحتياطي الثاني. كما أبلغت مأمور محطتنا في الفوج الأول، بتغيير تردد محطة آمر اللواء الموجود عندهم حالياً، والتي يعمل عليها مخابر من مدينته تلعفر، وكان قد انتخبه بنفسه ليكون مسؤول محطته المتنقلة "الجوالة".

بعد أقل من ساعة، عدّلت كل محطات الشبكة إلى التردد الاحتياطي الثاني، وكلمت المأمورين شخصياً، وبضمنهم مأمور محطة آمر اللواء الجوالة. وما إن أنهيت فحص المحطات، حتى سقطت على مقرنا الجوال، رشقتا صواريخ كراد، تناثرت جميعها حول المكان، دون أن تصيب أحداً وكأنها معجزة. 20 صاروخ على هدف نقطوي حددته محطات تنصت العدو بدقة، ومع ذلك لا إصابة في الهدف!

آمر كتيبة المدفعية، انشغل مع مرصد المدفعية المتقدم الذي تجحفلت معه محطة استمكان للمدفعية المعادية تعمل بنظام استمكان الصوت في تحديد مكان الراجمة التي ما برحت تقصفنا، ونفذ عليها ضربة مدفعية مكثفة. ولم يعد مقرنا الجوال يُقصف بعد الضربة، وأرجّح أنّ الراجمة قد أصيبت في مقتل أسكتها تماماً.

مع طلوع الفجر، عاد آمر اللواء، يتبعه الرفيق الحزبي. وقد أصابت سيارتيهما شظاياً في أماكن متعددة. وتحطمت الزجاجة الأمامية والخلفية لسيارة آمر اللواء. وما إنّ دلف الى المقر الجوال عائداً، حتى أبلغ آمر كتيبة المدفعية بتنفيذ ضربة أنقاد على حجابات الفوج الأول، التي أمرها بالانسحاب (نيران الإنقاذ تطلق على العدو حين اشتباكه مع القطعات الصديقة، ويقصد منها وقف العدو حتى إذا دمرت وأصيبت معه قطعاتنا). ذهل الجميع، فهذا الأمر يعني أنّ الفوج الأول قد سقطت حافته الأمامية "الحجابات"، وسأل ضابط ركن الحركات، إن كان هذا قد حصل فعلاً، فأوضح آمر اللواء، أن الإصابات في سرية

الحجابات كثيرة، وقد أوعز بأخلائها، فلم يبق ما يكفي من المقاتلين للقتال في السرية، لذا أمرهم بالانسحاب.

بادر آمر كتيبة المدفعية، بتنفيذ خطة نيران الانقاذ على حجابات الفوج الأول، وفي هذا الوقت تكلم آمر اللواء هاتفياً- لحسن الحظ- مع آمر الفوج الأول، وسأله إن كانت سرية الحجاب قد أتمت انسحابها، فأعلمه أنّ الجميع قد انسحبوا وتموضعوا في سرية العمق، والحجابات باتت خالية. واشتدت نيران هاونات ورشاشات الاسناد في قاطعي الفوج الأول والثاني، وأعلن آمر اللواء، أنّ جنود العدو لم يتقربوا جبهوياً من حجابات الفوج الثاني، بل يتسللون إليها عبر الخندق الشقي المحفور أمام حجابات الفوج الأول، وهكذا فإنّ المحور الرئيسي للهجوم على لوائنا مصدره جبهة الفوج الأول.

تدخل قائد الفرقة في المعركة بشكل مباشر، وأوعز بتحريك رعيلي دبابات كانا متموضعين مع فوج العمق، وهو الفوج الثالث، باتجاه الفوج الأول، ودخولهما مباشرة في دكات الرمي خلف السرايا، وانتظار أوامر أخرى لرمي العدو بقنابل المهداد والانفلاق الجوي.

بعد نحو ساعة، وكانت خيوط نور الفجر قد انتشرت في المكان، أبلغ آمر الفوج الأول، عن أسر القوة المعادية التي احتلت الحجابات، وطلب ضابط مأمور وآليات تنقلهم إلى مقر اللواء! سارع آمر اللواء، بإصدار أمره إلى أحد ضباط سرية مغاوير اللواء، لاصطحاب شاحنتين على وجه السرعة إلى الفوج الأول، لإخلاء الأسرى من قوات العدو. ثم طلب من آمر كتيبة الاسناد، تشديد نيران الإنقاذ على مواضع الحجاب الساقطة أمام الفوج الاول، لإجبار من تسرب من القوات المعادية على الانسحاب، وقطع التماس بينها وبين قوات العدو المهاجمة المتحصنة في الساتر المعادي.

وهكذا استمرت نيران الإنقاذ تسقط بكثافة على مواضع حجابات الفوج الأول، فيما اتصل آمر الفوج الثاني، وأبلغ عن أسر خمسة جنود معادين حوصروا في الخندق الدفاعي أمام سرية حجابات فوجه. هذا الأمر يعني أن قوة معادية نجحت في التسلل إلى الخندق الدفاعي، ولكن نيران الانقاذ، وحلول الفجر، كشفتها، وقطعت اتصالها بالقطعات المهاجمة.

إلى هنا، أُحبط هجوم العدو في صفحته الأولى على مواضع الفوج الأول والثاني. لكنّ المعارك شمال لوائنا، على جبهة الفرقة 30 (قوات الحسين) ما برحت تشتد، وهذا قد يقلل من زخم الهجوم على الفرقة الثامنة. وفي نحو الساعة الثامنة صباحاً، اتضح للجميع أنّ الفيلق الثالث، هو من نفذ هجوماً على قوات العدو التي احتلت جزر مجنون، والمعارك مستمرة. هذا يعني أنّ العدو قد هاجم جبهتنا، في نفس الوقت الذي هاجمت فيه قوات الفيلق الثالث قطعاته في مجنون وهور الحويزة ولسان عجيردة. وربما كان هجومه هذا محاولة، لتخفيف الضغط على قواته في مجنون.

مع طلوع شمس الصباح، سكتت فوهات المدافع والرشاشات على جبهتنا، وهو أمر غريب، فالمعارك عادة لا تنتهي بهذه السرعة. وفي وضح النهار، اندفعت سرية من الفوج الثالث لتعيد اشغال مواضع سرية حجابات الفوج الأول كما أمر آمر اللواء، وتقاطر الجنود بالرتل الزكوي المنفرد ومعهم أسلحتهم عبر خندق المواصلات الرابط بين سرايا الفوج الأول، وسرية الحجابات المتقدمة. وأبلغت القوات، عن وجود عشرات القتلى الإيرانيين، وبعض الجرحى في مواضع السرية التي سقطت في الليل. ووجه آمر اللواء، بإخلائهم جميعاً إلى مقر اللواء.

مع حلول ظهر ذلك اليوم، كان كلّ شيء قد بدأ يستقر في الفوج الأول والفوج الثاني، وأعلمتنا مراصدنا ومراصد استخبارات الفرقة عن انقطاع تام لنشاط العدو أمام جبهة لوائنا، وهكذا طلب آمر اللواء من الجميع العودة إلى المقر الرئيسي، بانتظار أوامر أخرى.

عدت إلى مقر اللواء، فوجدته ضاجّا بالحركة، وقد تكدست في ارجائه جثث إيرانية كثيرة، واعداد من جرحى العدو، وأسلحة مختلفة وسلالم خشبية محلية الصنع من خشب الصفاف خفيف الوزن، وحبال ونجّادات سباحة إضافة الى بانجوات مطرية وكليمات للنوم بأعداد كبيرة جلبتها قوات العدو معها.

اتجهتُ إلى غرفة الحركات، فوجدت مقدم اللواء، خارج الغرفة، يستجوب بسرعة وبشكل أولي ميداني عشرات الأسرى، فيما انتشر ضباط من مختلف الرتب من مقر الفرقة حضر بعضهم للأشراف على إخلاء الأسرى، وإخلاء الغنائم. فيما تواصلت سيارات الفوج الاول والثاني بنقل القتلى والجرحى من قوات العدو. وأوعز قائد الفرقة بدفن قتلى العدو في مكان حدده بجنوب غرب اللواء، طالباً تحديد المقبرة بسياج من الأسلاك الشائكة، ووضع لافتة تشير بالاسم والتاريخ إلى الواقعة. وكل هذا يثبت أن هجوم العدو قد انقلب وبالاً عليه. فقد أبيدت القوة المهاجمة، ومن نجا منها جرى أسره، ليصبح ذلك نصراً كبيراً لم يحرز لوائنا مثله طيلة أعوام الحرب الأربعة!

كقاعدة، حين يؤسر جندي معادٍ، تصادر بندقيته وتضاف إلى الغنائم، لكنّ ما وصلنا من الأفواج من أسلحة معادية، كان محدوداً جداً لا يناسب أعداد قتلى وجرحى وأسرى العدو. ضمنياً، يفهم الجميع أن صنّاع النصر يستفيدون من الغنائم شخصياً، فيأخذ كثير منهم بعض الأسلحة المستولى عليها لنفسه. ولكن هذا السر يبقى ضمن المسكوت عنه، وقد اكتفى مقدم اللواء بمكالمة آمري الفوجين، وسألهما بعفوية إن كانت توجد ضمن قواطعهم بعض الأسلحة والغنائم التي لم ترسل إلينا؟ فنفى الرجلان وجود أي شيء، فيما تحدث آمر الفوج الأول، عن أسلحة ومعدات تركها العدو ضمن حقول الألغام الدفاعية التي تخطاها بالسلالم الخشبية، وتتطلب جهداً هندسياً لإخلائها.

ذلك المساء، جلسنا في بهو الضباط نتحدث عن النصر المبين، فأكد آمر اللواء، أنّ خسائر وحداتنا كانت غالباً من الجرحى بإصابات متوسطة، وأنّ عدد الشهداء محدود جداً، وهذه من علامات النصر النظيف، وأعلن بفخر وهو ينظر إليّ: يمكن القول إنّها كانت معركة نموذجية، لعبت فيها اتصالات الميدان دوراً حاسماً، يعني المخابرة أبدعت هذه المرة ".

بادرت أشكره مشيداً بشجاعته، وبصمود وجَلَد قواتنا في السرايا المتقدمة، مبيناً كالعادة أنّ المعركة جهد جماعي، لكنّ حضور وحنكة القائد تلعب دوراً حاسماً في تحديد نتائجها، في إشارة واضحة لشجاعته الفائقة. وما لبث الرفيق الحزبي م. أول ن. أن ثنّى على كلام آمر اللواء – كعادته-، مكرراً أنّها فعلا معركة نموذجية بكل المقاييس.

بعد أيام، علمنا أن قطعات تقودها قيادة الفيلق الثالث قد نفذت هجوماً مقابلاً تمكَّنت فيه من استعادة جزيرة مجنون الجنوبية، لكنّ السدة الشمالية من الجزر وما عرف بلسان عجيردة بقيت تحت سيطرة الجيش الإيراني. وكشف كتاب صادر عن القيادة العامة للقوات المسلحة عن تشكيل قيادة عمليات شرق دجلة، التي ستصبح نواة لفيلق جديد (الفيلق السادس ومقره في ناحية العزير) يتولى قيادة العمليات في هذا القاطع الواقع بين حدود الفيلق الثالث وقيادته في البصرة والفيلق الرابع وقيادته في العمارة.

تلك الليلة ابلغني معاوني نائب ضابط وادي، أنه قد تمكن من الحصول على جهازي مخابرة VHF وعلى هاتفي ميدان عسكري، غنمتها قواتنا من العدو. فسألته كيف فعل ذلك، أجابني ضاحكاً: عثرت عليها مفارز تصليح الخطوط قرب الفوج الأول. ضحكت وضحك هو أيضا لهذا الكلام، لأنّ مفارز تصليح الخطوط لا تذهب إلى الحافة الأمامية لسرايا الأفواج، فهذا قاطع مسؤولية مخابرة الفوج، وبالتالي سيوجه له سؤال ملح: من أين جاء بهذه المعدات؟ الجواب المسكوت عنه، أنّها من غنائم مقر اللواء "المخصومة" من حصة اللواء من غنائم العدو! فيما بعد قد نستفيد من هذه الأجهزة للإنصات لمكالمات العدو على شبكاته.

***

طائرة مسيّرة معادية تشق طبقات الغبار!

دخلنا في شهر أيار 1984، ومنذ الثامنة صباحاً يتصاعد الغبار حول مقر لوائنا في كتيبان شرق البصرة. المفيد في هذا الفصل الذي يمتد حتى نهاية ايلول/ سبتمبر، هو توقف القصف والقنص بين الطرفين، بسبب انعدام الرؤية، وهذه رحمة. هذا اليوم المغبر حلقت فيه طائرة معادية فوق مواقع فوجينا المتقدمين وانتهى بشبه كارثة!

هذا يوم إجازتي الدورية، وكالعادة، خرجت بمراتب الوحدة إلى التدريب الصباحي العجيب الذي فرضه الجنرالات. وما إن مضت ساعتان، حتى جاء انضباط اللواء يبلغني بضرورة انهاء التدريب لوجود إنذار. انهيت التدريب وذهبت إلى غرفة الحركات، فوجدت هيئة الركن مشغولة بظهور طائرة مسيرة تحلّق فوق قطعات العدو المتقدمة قريباً من خطوطنا، هذه هي المرة الأولى التي تظهر فيها طائرة إيرانية مسيّرة في سماء الجبهة. بقيت الطائرة نحو ربع ساعة تحلق فوق القطعات الإيرانية، وفجأة تخطت الموانع الدفاعية، وباتت تحلق فوق مواضع الفوجين الأول والثاني. وصدر أمر الفرقة برميها، فأطلقت عليها مفرزة الرشاشة ديمتروف الأحادية لمقاومة الطائرات، رشقة واحدة لتسقطها فوراً محترقة ممزقة فوق مواضع الفوج الأول.

وتراكض الجند يجمعون أجزاءها المدمرة، ثم أرسل الفوج كل الحطام إلى مقر اللواء. هي طائرة مصنوعة من خشب خفيف الوزن يشبه خشب الزان الأبيض، وقد طليت باللون الأخضر الغامق، فيما لا يتجاوز حجم موتورها حجم محرك سيارة من لعب الأطفال المتحركة. المثير أنّهم ربطوا عليها كاميرا زينيت عادية، وقد وضعت على حالة التصوير الاوتوماتيكي، وما زال الفيلم الذي صورته في داخلها. وما لبثت استخبارات اللواء، أن كتبت بها تقريراً وأرسلتها بعهدة مأمور إلى مقر الفرقة. ومضت تلك الصبيحة هادئة تماماً وأنا أحسب الساعات حتى انتصاف الليل لأذهب في إجازتي، وتكّت الساعة الثالثة ظهراً وقد انتهينا تواً من تناول طعام الغذاء، فاتصل مقر الفرقة وأبلغ بوجود ضربة كيماوية، وطالب الجميع دون استثناء بلبس الأقنعة.

وارتدينا الأقنعة، ولابد من التعريف بقناع الوقاية، فهو عبارة عن جلد مطاطي غليظ يلتصق بالوجه، فيه مرشحات للتنفس أمام الفم والأنف، على شكل قطعة مستديرة، فيما تغطي العينين قطعتا بلاستك شفافة صلبة، تؤمن الرؤية أثناء ارتداء القناع.

ارتداء القناع لمدة قد تصل إلى ساعة ممكن عملياً، وبوسع العسكري أن يتحمل أثره، (وهنا لابد من التذكير أن الأعمال يجب أن تستمر بهذا القناع، فالمخابر الجالس على البدالة يجب أن يتكلم وهو مرتدٍ للقناع، وكذلك عامل المحطة اللاسلكية، والحرس في نقطته كذلك، وكاتب القلم كذلك، ومفارز مقاومة الطائرات كذلك، بل إنّ الجنود الذين يقومون بالحفر أو

بترميم خنادق الرمي أو المواضع يجب عليهم أن يفعلوا كل ذلك وهم يرتدون القناع، وهكذا يسري الأمر على الجميع).

لكن الأمر تطاول، ومضت نحو ساعتين وتأكيدات الفرقة مستمرة بوجود خطر وشيك من وصول غازات سامة إلى القطعات. وما لبث ضابط الركن الكيماوي، النقيب همام (اسم رمزي) أن كشف لي بشكل شخصي، أنّ مدفعية الفرقة 30 ، التي تحتل مواضع شمالنا، قد وجهة ضربة مدفعية بذخيرة كيماوية من غاز السارين إلى قطعات العدو، لكن اتجاه هبوب الرياح تغير فجأة، فباتت السموم تنجرف نحو قطعاتنا، وهو احتمال قائم دائماً حين استخدام الأسلحة الكيماوية. ولذا بقي التهديد قائماً، وبقيت اتنقل بين الملاجئ لأراقب التزام الجميع بارتداء القناع، ثم دلفت إلى ملجأ آمر السرية الرائد حسين، فوجدته قد انتهى تواً من غسل رأسه، وجلس إلى مكتبه مبتسماً وهو يتفرج على التلفزيون. سألته نصف مازحٍ ألا يخشى الغاز الكيماوي، هز رأسه مستهزئاً وهو يقول إنّ أجل الانسان إذا حلّ بالغاز، فبئس الأجل، ولكن لابد منه، وهو لا يطيق وضع القناع، ويفضّل الموت على ارتدائه. غادرته تجنباً لمزيد من الحرج، ومضيت إلى مواضع ضباط سرية المغاوير فوجدتهم يلعبون النرد وهم مرتدين الأقنعة. كان منظرهم يبعث على الضحك والرثاء في آنٍ واحد، فهم يحاولون التكيف مع وضع غير طبيعي بالمرة، وجلست معهم انتظر دوري لألعب، والدقائق تتطاول والتهديد الكيماوي ما برح قائماً.

كان الخوف من إلغاء الاجازات قد بدأ يتسرب إلى نفسي بسبب الأحداث الاستثنائية التي مرت بها القطعات اليوم . وبحلول الساعة السادسة تقريبا أعلن انتهاء التهديد، وجاء الإيعاز بنزع الأقنعة.

نزعت القناع، فشعرت أنّ جلد وجهي ينسلخ معه، وبقيت رقبتي وذقني وحول أذني تحكني لفترة طويلة، وأصابها الاحمرار. ثم بدأ الغبار ينقشع مع اقتراب الغروب وحل البرد الصحراوي القارس. النوم خارج الملجأ ليلاً غير ممكن حتى الآن لسبب البرد. اتصل بي مقدم اللواء طالباً أن أوافيه إلى غرفة الحركات، وما إن دخلت حتى غادر لينال قسطاً من الراحة، وبقيت خافراً في غرفة الحركات حتى دبّ الظلام. و ما لبث آمر الفوج الثاني الرائد خميس أن اتصل بمقر اللواء، ليبلغ عن صوت طائرة صغيرة يسمع فوقهم.

ايقظت ضابط ركن الحركات، وأبلغته بما جرى، فجاء مهرولاً، وتكلم مع آمر الفوج الثاني، ثم كلم آمر اللواء، وأبلغه بما جرى، فأمر بفتح النار على مصدر الصوت، وهكذا اشتعلت سماء الفوج الثاني بالرصاص، ولكن الصوت لم ينقطع، وتحركت مفارز الرازيت ومفارز الاستمكان لمحاولة العثور على الطائرة بلا جدوى، فالصوت ما زال مسموعاً ويرتفع أحياناً وخاصة فوق قطعات فصيل حجاب الفوج الثاني.

مرصد الاستخبارات في الفوج الثاني، أبلغ بطريقة ذكية، أنّ مصدر الصوت ربما كان جهاز تسجيل يبث من الحافة الأمامية للعدو كاسيتاً لصوت طائرة بعيد، والصوت يصل بهذا الشكل إلى الفوج الثاني. وجرى تعبير هذه المعلومة إلى استخبارات الفرقة ومنها إلى الفيلق ثم إلى العامة، وبعد نحو ساعتين، جاء تأييد لما ذهب إليه مرصد الاستخبارات، واعتبر الصوت جزءاً من خطة مخادعة تمارسها القوات الإيرانية، لحرف الانظار عن استعداداتهم لهجوم في قاطع عمليات آخر قد لا يكون بعيداً عن قاطعنا.

نتيجة كل ذلك، شعرت أنّ إجازتي ستذهب مع الريح، وسط هذا الضجيج، وبقيت أترقب في غرفة الحركات، ما يمكن أن يُسفر عنه الموقف، وقد انقطع صوت الطائرة فوق قطعاتنا. ولم يصدر عن الفرقة أمر استثنائي، سوى الأوامر المعتادة بتوخي اليقظة والحذر، وابقاء الاستعدادات قائمة. ولم تسجل مراصد الفرقة والرازيت حركة غير عادية لقطعات العدو، وبقي الوضع على ما هو عليه، حتى بلغت الساعة الحادية عشرة ليلاً.

غادرتُ الحركات إلى ملجأي، الجبهة هادئة تماما، والسماء صافية وقد رصعتها النجوم، أجمل سماء تراها العين هي السماء فوق الصحراء، لاسيما في الليل. لا صوت يصدر عن الجبهة، سكوت تام ربما كان يخفي شيئا، لكنه لا يخرج عن الصمت المعتاد الذي يلف الجبهات كل ليلة تقريباً، ما لم تكن هناك فعالية لأحد الطرفين.

في ملجأي ، اتمدد على فراشي، وأشاغل نفسي بقراءة كتاب، وللكتب هنا طعم خاص، لاسيما أني اقرأ كتباً إنكليزية وهذا يغيض الجهاز الحزبي لأنهم لا يفهمون ما أقرأ. بقيت أقرأ والراديو يبث أغانٍ وأخبار ومنوعات، واستمع عادةً لإذاعة الكويت التي يصلنا بثها كاشفا عن عالم لا صلة له بعالمنا المحترق المجنون. ثم رنّ هاتفي، رفعت الجهاز اليدوي فحولني عامل البدالة إلى مقدم اللواء بناء على طلبه. وكلمني المقدم الركن عبد الصاحب علوان بصوت مازح وهو يقول: "عزيزي، ألا تريد أن تذهب في إجازتك؟ اخبرني لأرسل بدلاً عنك ضابطا آخر؟!"

قلت له ضاحكاً، إنني انتظر وكليّ شوق للذهاب، قال مرة أخرى ولكن بصوت جاد هذه المرة "نسّب السيد آمر اللواء، أن تذهب أنت وتأخذ معك إلى مقر اللواء الخلفي وجبة مجازي السرية، على أن ترافقهم أنت شخصياً إلى المنطقة الإدارية للواء ليقوموا بتسليم أسلحتهم إلى المشاجب بإشرافك هناك".

اسقط في يدي، وفرحت ولكنها فرحة مشوبة بالحزن، فهذه المهمة الأخيرة ستأخذ من إجازتي ساعات طويلة، لكني رضيت وليس من الرضا بدّ، وأجبته بالامتثال للأمر، فقال "مرّ عليّ في غرفة الحركات، وخذ نماذج الإجازات بنفسك!"

وهكذا انتهى ذلك اليوم المزدحم بالأحداث، ولم أصل بغداد حتى الساعة الثامنة صباحاً فاصطادني الزحام الصباحي المعهود في مدخل العاصمة، ولم أصل بيتي حتى التاسعة والنصف صباحاً.

***

عملية جراحية في وسط الصحراء!

في ظهري ورم صغير يعذبني منذ سنوات، هو بحجم حمصة، وله شكل حبة شباب عتيقة، وقررت أخيرا أن أذهب للطبيب لأزيله، وهكذا كنت أتحدث إلى صديقي الملازم الطبيب عزة عارضاً الفكرة وطالباً رأيه إن كان هذا يستوجب أن أسجل عيادة طبية يوقعها آمر اللواء في بريده.

ضحك د. عزة وأنا أحدثه عن حبة شباب في ظهري تطورت إلى ورم صغير يحتاج مداخلة جراحية، ثم سألني أن يشاهدها، فكشفت عن ظهري في وهج صحراء كتيبان ونحن إزاء مخفر زيد الحدودي الشهير الذي بات عيناً بعد أثر، درجة الحرارة في تلك الظهيرة من أواخر صيف 1984 بعد انتصارات معارك شرق البصرة الثانية جاوزت الخمسين، والغبار يلف المكان من كل الجهات بحيث لا يزيد مدى الرؤية عن بضعة أمتار.

كنا نجلس في طبابة الفوج الثالث لواء مشاة 23، ولا نعلم هل نترك باب الملجأ مشرعة لتدور فيه نسمة هواء تائهة وخيط من نور النهار، أم نغلقه لنتقي شر الغبار الذي يدب في كل مساماتنا، فتركناه مواراباً لتختلط كل الأشياء ببعضها، ودعاني د.عزة أن أقرّب ظهري من ظلفة الباب كي يرى في مسقط النور مستوى تلك الدمّلة. تلمّسها بأصابعه، وسألني إن كانت تؤلمني حين يضغط عليها فنفيت ذلك، ثم سألني لماذا أروم أزالتها، قلت له إنها مقرفة، واخشى أن تتقيح، كما أنّ زوجتي طلبت مني إزالتها. ضحك، وقال نعم ممكن إزالتها فوراً إذا شئت، نترك دور الطاولة الذي وصلناه، ونُجري العملية!

فسألته عن مخاطر هذا الأمر، وهل يتطلب مني عيادة من اللواء، وهل أنال إجازة عليها. ضحك كاشفاً عن أسنانٍ مرتبة نظيفة نافياً أن يكون لي استحقاق إجازة مرضية، كما نفى الحاجة إلى تسجيل عيادة طبية، مؤكداً أن بوسعه إجراء العملية دون عيادة، أو بعيادة طبية مكتوبة، وهذا يعتمد عليّ، قلت له إذن لنعملها دون عيادة، ألا تخشى أن يتلوث الجرح؟

سنضمده بقوة، وتأتي كل يوم لنغير لك الضماد لمدة أسبوع، وبعدها ينتهي كل شيء.

وبدأ الملازم الطبيب عزة بتعقيم الدمّلة، ثم رشّ عليها مخدراً موضعياً، وانتظر بضع دقائق وهو يكلمني، ثم شرع ينغزني برأس المبضع الحاد ويسألني إن كنت قد شعرت بالوخزة، حتى انعدم الإحساس، ففتح الجرح، وجاء بملقط لينظف الدمل، وما لبث أن قال بصوت عالٍ، ما هذا؟ توجد شظية راكدة في الجرح، وما لبث أن أخرجها بالملقط والمقص، ثم عرضها عليّ وهو متعجب، وأنا بدوري مستغرب، من أين جاءت هذه الشظية؟؟

وحاولت أن أتذكر متى جرى ذلك دون أن انتبه، فعادت بي رحلة الذاكرة إلى ما جرى بعد عام من بدء الحرب، كان لواؤنا في سربل زهاب، وكان مقرنا في قرية تبه انو شروان على طرف غابة سهامي سيئة الذكر المرعبة، وقد ابتدأ يومنا بقيام العدو برمينا بعدة قنابر هاون، وكنت أتجول مع طبيب اللواء د.شاموئيل في أكواخ القرية المهجورة حين بدأ القصف، فلبدت معه في خندق شقي ليقينا من القنابر وشظاياها، وسرعان ما سقطت قنبرة قريبة جداً منّا، فدفنّا رأسينا في عمق الخندق لاتقاء العصف والشظايا والحجارة المتطايرة، وما لبث كلب كبير أسود كان قريبا من خندقنا أن انطفأت فيه الحياة، فرقد بلا حراك ولا روح فيه بعد أن أصابته شظية في عينه.

بعد نحو نصف ساعة أنقطع القصف، فخرجنا نتسلل بين أزقة القرية المهجورة المهدمة، حتى بتّنا نسير متعاقبين لضيق المسار، فنبهني د.شاموئيل إلى وجود خيط دم على بدلتي من جهة الظهر. ولدى وصولنا ملجأ الطبابة، نزعت القميص العسكري، فكشفت له عن ظهري، فأخبرني عن وجود خدش بسيط، قد يكون ناتجاً عن حجر صغير أصابني وأنا ألقي بنفسي في الخندق الشقي، وتلمس المكان مراراً، ثم وضع على الجرح قطعة ضماد وفوقها بلاستر طبي، وانتهى الموضوع عند هذا الحد. وبعد فترة نزعت الضماد، ونسيت كل شيء عن ذلك الحادث، وها أنا اليوم بعد 3 سنوات أستعيده مرعوباً، إذن، كانت شظية قد تسللت إلى داخل ظهري، لكنّ السؤال أين اختفت كل هذه السنين؟

وأجابني د.عزة ضاحكاً، أن الجلد حولها قد تصلب وشكل ما يشبه النسيج الحاوي، ثم التهب هذا النسيج، وغالباً لسبب خارجي وليس بسبب الشظية، لأنّ الشظايا كلها معقمة بشدة حرارة التفجير الذي يفلق القنبلة. والمرجح أنّها قد تسللت إلى نسيج "ديرما" تحت الجلد، وتوارت في إحدى الطيات، ثم صعدت فجأة إلى أعلى بعد أن تكوّرت في النسيج. وسلمني الشظية ملفوفة بقطعة شاش قائلاً، احفظها للذكرى في علبة صغيرة! ثم خاط الجرح بخيط متصالب، ووضع فوقه ضماداً وألصقه ببلاستر.

وجلسنا بعد العملية نتسامر، فأثناء العواصف الترابية تنعدم فعاليات الجبهة بسبب ضعف الرؤية، وبوسع الجميع قتل الوقت، وهو الآخر جدير بالقتل في ساحة الحرب! وأعادنا الحديث إلى ذكريات الأطباء الذين مروا بنا، ولهؤلاء قصص غريبة وطريفة، أولها أنّ أغلب الاطباء حين اشتعلت حرب القادسية الثانية لم يُمنحوا رتباً كضباط يؤدون الخدمة الإلزامية، فبقوا جنوداً مكلفين ونشروا في وحدات مختلفة، وهكذا كان على الطبيب أن يخضع لأوامر أي نائب عريف في وحدته، وهذا ولّد إرباكاً كبيراً جداً في عملهم. الأسوأ من ذلك، أن الطبيب براتب جندي مكلف، كان لا يملك أن ينفق على نفسه، فبات عليه وهو الطبيب الحاذق أن يعتمد على أسرته في تأمين نفقاته الشهرية حتى نهاية خدمته العسكرية الإلزامية (21 شهرا)، وفي منتصف عام 1981، صدر قرار منحهم رتبة ملازم، وتضمن

بعض الاستثناءات، فبات بعض الأطباء الجدد، ملازمين، فيما بقي أطباء أقدم منهم مهنيا كجنود، وهذا فاقم المشكلة.

المضحك، أنّ الأطباء الذين منحوا رتبة ملازم أثناء الحرب، لم يذهبوا إلى كلية الضباط الاحتياط، فباتوا ضباطاً يخدمون في الوحدات، وهم يجهلون قوانين العسكرية وسلوكيات الضباط وحدود صلاحياتهم. لكن وبصورة عامة، فإن أغلب الضباط في الوحدات التي التحق إليها أطباء، كانوا يعاملون الطبيب باعتباره ضابطاً حتى اذا كان لا يحمل رتبة، وسُمح لهم في أغلب الوحدات بالجلوس في بهو الضباط ودفع اشتراك البهو، ما ولّد بينهم وبين الجنود مشكلات من نوع آخر، فطبيب جندي مكلف يجلس في البهو، قد يطلب طعام العشاء من أحد المراتب العاملين في البهو، وهو نائب عريف، ما يجعله يمتنع عن خدمته!

لكن بوجه عام، كان الأطباء الوجه المشرق المتحضر في الوحدات، والذي كان مجرد وجوده قريباً أثناء المعركة، يثير في نفوس المقاتلين إطمئنانا ومحبة وألفة.

في الأسابيع الأولى للحرب، نُقل إلى كل وحدة طبيب، وأساء بعض آمري الوحدات فهم مهمة الطبيب، ففيما كانت الأفواج مشتبكة في القتال، كان الآمرون يطلبون من الطبيب إخلاء الجرحى، وكأنه ممرض أو مسعف الوحدة، وأوقع هذا خسائر في صفوفهم، فقُتل بعضهم وجُرح آخرون، فيما سقط في الأسر عدد منهم بسبب أخطاء آمري الوحدات!

ومن أصعب ما كان يمر به الأطباء، هي قضية إجازاتهم الدورية، إذ أنّ كل الوحدات تطالب وحدات الميدان الطبية بأرسال بديل طبيب، كي تسمح بنزول طبيب الوحدة في إجازة، ولم تكن وحدات الميدان تملك ما يكفي من الأطباء للمناورة بأرسالهم للوحدات، وهذا كان يؤخر بعض الأطباء أياماً طويلة عن اجازاتهم الدورية.

وطافت بذاكرتنا أسماء الأطباء الذين مروا بحياتنا العسكرية، د. حيدر، د. سلام، د. علي، د. طالب، د. جنان، د. صفاء، د. خليل، د. شامل، د. هاني، وأسماء أخرى كثيرة غابت عن الذاكرة في زحمة تفاصيل الحرب.

***

قطار البصرة الذي تكرهه الزوجات!

القطار الذي أنشأه البريطانيون في العراق بعد "استعماره" بقي بخطوطه الحديد يخدم العراقيين حتى اليوم، ومنذ انتقال الفرقة الثامنة بشكل نهائي إلى قاطع البصرة، بتُّ أعود من اجازتي إلى مقر اللواء غالباً بالقطار، وفي القطار قصص.

المحطات دائما مساحات الفراق واللقاء، فهي مسارح لوداعات حزينة ولقاءات مفرحة لا نهاية لها، حيث الأهل يودعون بنيهم المسافرين لرحلات الدراسة خارج البلد، والأهل والأقرباء يودعون العرسان الذاهبين إلى رحلات شهر العسل في الموصل أيام الربيع والصيف، وفي البصرة أيام الخريف والشتاء، فالبصرة مشتى العراق المجهول. وفي الحرب أضيف لهذا الموروث أنّ قطار البصرة، يأخذ العسكر إلى جبهات القتال الجنوبية. الرحلة تبدأ في الثامنة ليلاً، ويصل القطار البصرة في السابعة صباحاً، أي 11 ساعة ونحن في نهاية القرن العشرين!

الرحلات كانت مجانية، وأحجزُ في العادة سريراً في إحدى المقصورات هاتفياً من البيت. المقصورات مريحة عموما ونظيفة ومرتبة، وهي مقسّمة إلى قسمين، قسم للضباط الأعوان، وفي كل منها سريران متعامدان فوق بعضهما، كما يمكن دمج مقصورتين متلاصقتين في دعوة عشاء وسمر لأربعة أشخاص، يمكن بعدها فصل المقصورتين لتوفير منام مريح لشخصين. أما القسم الآخر فكان للضباط القادة (من رتبة مقدم فصاعداً) بسرير منفرد وخدمات غرفة كاملة.

ليلة نهاية الإجازة، كانت حزناً لا ينتهي في البيت، وينفرج هذا الحزن بتأملاتي في المحطة العالمية ببغداد. جو المحطة، ينقلني دائما إلى عالم نتشوّق له، إلى محطات القطارات في لندن وبرلين وباريس وروما، حيث تقف الحبيبات، صوفيا لورين، أودري هيبورن، رومي شنايدر، وهنّ يودعن أحبتهن، ألان ديلون، شين كونوري، كيرك دوغلاس العتيق الباقي. في زوايا المحطات المظلمة يتبادل العاشقون قبلات وداعٍ اختلط فيها الحب بالدمع الحزين. وقاطرات الديزل تنفث بشدة بخار الرحيل الجميل الذي يغمر المودعين والمستقبلين والمسافرين على أرصفة المحطات الرمادية. كل هذا كان ينسيني لوهلة كآبة رحلتي التي لا يستبعد قط أن تكون الأخيرة، ففي جبهة الحرب، يصبح الموت مسألة يومية، وقد يتدنى دونها العوق، فيفقد الإنسان أحد أعضائه أو تنطفي فيه إحدى حواسه، أو تتعطل في جسده إحدى الوظائف، وإن تاهت البوصلة، فالأسر ليس نهاية غريبة لسفاح المعارك الموحشات، فهي الحرب ولن تكون قط نزهة.

وكانت زوجتي تشايعني أحياناً إلى رصيف المحطة لتودعني، بعناق وقبلة طويلة على سلم القطار قبل أن يقلع في طريقه إلى الجبهات، وتمازحني بطرافة طفولة ضائعة قائلة:

"خذني معك، ضعني في الحقيبة، وخذني معك، ودعني أقضي كل الأيام الأربعة وعشرين مختبئة في ملجئك، وعليك أن تؤمن لي الطعام والماء".

ونستذكر بصمتٍ محموم معاً تلك اللحظة الجميلة التي شاهدناها في أفلامٍ عن محطات العواصم الغربية إبان حروب عتيقة لم نعرفها سوى على الشاشات، وها نحن نعيش أبشع صفحاتها. مجرد الحلم بالوصول إلى تلك العواصم بات صعباً، فالحرب تأبى أن ترفع أوزارها.

ويقلع القطار، وحال أن يغادر المسيب والمحمودية متجهاً نحو الجنوب، أسارع لأقاسم رفيق الدرب وزميل الكابينة عشاءنا والكحول المرافق له كيفما كان، ولم يصدف أن التقيت ضابطاً يرفض الكحول، والأطباء كانوا دائماً أجمل رفاق السفر، فهم مثقفون منفتحون على العالم، ويمكن معهم أن ينسى المرء أنّه ذاهب إلى موت محتمل بشدة.

ذات ليلة من أواخر خريف عام 1984، عدت من إجازتي الدورية بقطار البصرة، وودعني المطر على رصيف المحطة العالمية، وكنت مع نفسي أسرح بخيال أن يسرقني القطار وهو ماضٍ بلا هوادة عبر الحدود جنوباً إلى الكويت، ومنها طائراً بلا توقف حتى ضفاف أوروبا الباردة الجميلة، لكنّ ذاك كان وهمي، أما في الحقيقة فقد شاركني الكابينة ملازم أول طبيب، ودعته زوجته على رصيف المحطة، ولحظت بطرف عيني عناقهما الجميل، وسررت أيما سرور حين تشاركنا كابينة السفر.

وما إن انطلق القطار في رحلته الليلة، حتى سألني شريك الكابينة أيّ سرير أفضل، وتركت له الخيار، مؤكداً أن لا فرق عندي، فسارع يخبرني أنّه سيستلقي على السرير العلوي لأنه أطول قامة مني وبوسعه التسلق بسهولة، وسيترك لي السري الأرضي، فسارعت افتح السرير الأرضي لأكشف عن مساحة لحفظ الأمتعة مخفية تحت السرير يجهل أغلب المسافرين وجودها، ودعوته أن نضع حقائبنا هناك، بعد أن نهيئ مائدة السهرة! فسألني بحياء ظاهر هل تشمل سهرتنا المحرمات المحبوبة، وأدركت ما يرمي إليه، فأخرجت من حقيبتي نصف زجاجة ويسكي، ترافقني عادة في رحلة العودة، وأتم غالبا كأساً أخيراً منها في ملجأي في الليلة التالية لوصولي. انفرجت أسارير رفيق الرحلة الطويلة، وسارع يخرج من حقيبته، نصف زجاجة ويسكي من نوع آخر، وتبارينا في وضع أطباق العشاء والمقبلات التي أعدتها الزوجات الصابرات في منازلهن، فباتت أمامنا مائدة عامرة منوعة. وقرعنا الأنخاب، ودار الحديث دائماً بعيداً عن الحرب والثكنات والخنادق، فكانت أشبه برحلة في أطياف الأحلام، وسارعت أريه كتبي التي اصطفيتها للقراءة، فيما عرض عليّ كتبه التي جاء بها إلى وحدته للقراءة، ولم تكن مفاجأة أنّ كتبنا كانت إنكليزية بالكامل.

نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، بدأ النعاس والتعب يدبّ إلى أجفاننا، فيما القطار يمضي قدماً نحو الجنوب، واقترحت أن ننام ما تبقى من الليل لنصل واعين إلى وحداتنا، فضحك وبدأ ينظف المائدة وأنا أساعده، ثم خلعنا قيافتينا، وبقينا بالملابس الداخلية الطويلة التي كان الجميع يستخدمونها كبيجاما للنوم، ودخلنا لننام في أسرتنا.

لا أدري متى غفوت، ولكنّ انفجاراً كبيراً اتبعه رشقات اطلاقات من اسلحة رشاشة، ايقظني وايقظ كل ركاب القطار، قفزت إلى النافذة أنظر ما جرى، فكانت العتمة لا تشي بشيء خارج القطار، نظرت إلى الساعة، فوجدتها الثالثة والنصف صباحاً، وكان القطار قد بدأ يتباطأ في مسيره ثم يتهادى حتى توقف، وطاف في الممرات رجال يركضون وأصوات عالية، أطللت ورفيق كابينتي على الممر، فوجدنا عنصراً من الانضباط العسكري بيده بندقية، ويبدو عليه التوتر، فسألناه عما جرى، ليجيب باقتضاب، أحدهم أطلق قنبلة على إحدى العربات. فسارعت أساله وما هي رشقات الرصاص، أجابني، أنّ احدهم قد رمى رشقات رصاص على العربات. نظرنا من نافذة الممر، فإذا القطار واقف وسط البردي والقصب، ومياه الهور تساحل جهته اليمنى! نحن واقفون في وسط الهور، سارعت أكلم الانضباط بلغة آمرة: " انضباط، اخبر مسؤول الأمن أنّ القطار يجب أن يتحرك فوراً، نحن الآن هدف واهن لأيّ مهاجم، لا نعلم من رمانا، لكنه عدو بلا شك. أسرع وأوصلني لمسؤول أمن القطار! ارتبك الانضباط، وهو يدرك لأول مرة أنّ وقوف القطار قد جعلنا جميعاً هدفاً سهلاً! وسرعان ما تصاعد صوت عالٍ قادم من مقدمة القطار يوجه سائق القطار والقائمين على الأمن وهو يصرخ "تحرك، تحرك بسرعة يا ولد، لا تبقّ واقفاً، على الجميع اطفاء أنوار العربات والممرات، اطفي الأنوار بسرعة، الأخوة الضباط، رجاء تهيأوا بمسدساتكم، فقد نواجه هجوماً"! سارعنا نطفي النور، واطفأ الانضباط نور الممر ثم ركض باتجاه مصدر الصوت، وعرفت من لهجته أنّه أحد الضباط القادة، وكان يوجه أوامر سريعة للحركة. بعد نحو 10 دقائق تحرك القطار ثانية، بسرعة محدودة، ثم بدأ يحث الحركة سراعاً، وهي عادة في منطقة الأهوار محدودة بسبب ضيق الطريق، وظلمته، وليونة الأرض تحت السكة الحديد.

ولمدة نحو نصف ساعة، بقيَ الوضع متوتراً تماماً والجميع بانتظار هجوم في أيّ لحظة، ولم يتضح على الفور حقيقة ما جرى، وما حجم الإصابات. بعد نحو نصف ساعة أخرى، عاد الضابط الذي كان يسافر في الكابينة الملاصقة لنا، وهو برتبة رائد ويشغل منصب آمر سرية انضباط الفيلق الثالث، وكنت قد تعرفت عليه في إحدى المأموريات إلى الفيلق، ولاقاني بوجه متوتر، فسألته عما جرى، وهل توجد اصابات، قال متساخراً: "لا إصابات، لكنّ المهاجمين استهدفوا العربة المعدة للضباط الأمراء بقذيفة آر بي جي 7، وكانت العربة لحسن الحظ فارغة، حيث لم يسافر أيّ منهم هذا اليوم، وقد اخترقت القذيفة نافذة المقصورة، وانفجرت لتحرق بعض قطع الأثاث فيها، فيما سارع أفراد الطاقم والأمن والانضباط إلى

إطفاء الحريق. سلامات حتى الآن، رشقات الرصاص أصابت نفس العربة، والعربة التي تلتها والتي بعدها، ومن حسن الحظ أنّ أحداً لم يكن في الممر خلال الرمي، لأنّ الرصاصات كلها جاءت من جهة اليمين واستقرت في ممر القطار. إنها على الأغلب هجمة فرارية (الهاربون من الخدمة العسكرية وكانوا يتحصنون في هور الجبايش).

بقينا متهيئين بملابسنا الكاملة وبمسدساتنا، حتى غادر القطار الهور، نحو الساعة الرابعة والنصف فجراً، فأضيئت الأنوار وعدنا نحاول النوم بعد تلك الواقعة المثيرة، وأطفأنا النور، واستلقينا وبتنا نتكلم ونبدي الرأي فيما جرى، حتى وصل القطار إلى ميناء المعقل وبدأ يتثاقل في سيره، حتى توقف. ترجل الجميع مسرعين ليروا مكان الإصابة، فكانت المقطورة الثالثة بعد الماكنة، تسبقها فقط مقطورتا الضيافة والمطعم. زجاجة نافذة كاملة تناثرت محطمة وسط المقطورة، والرصاص قد ثقّب الزجاج وجدران نفس المقطورة. من هاجم هذا الهدف كان يتوقع أنّ ضابطاً مهماً يسافر فيه، لكنّ مصادفة من نوع ما خيبت هجومهم. ربما قرر الضابط المعنيّ في اللحظة الأخيرة أن لا يسافر، أو أنه قد سافر مبكراً ولم يلغ الحجز، فبقيت العربة فارغة محجوزة باسمه!

ودعت رفيق رحلتي، وعثرت على سيارة الرعيل السلكي شاحنة المرسيدس الجديدة 2 طن تنتظرني، فركبت إلى جانب السائق ومضينا قدماً إلى مقر اللواء. بعد نحو أسبوعين، نفّذت قوات من الحرس الجمهوري عملية واسعة على المتمردين في الهور فيما نفذت وحدات الجهد المدني ووحدات ساندة لها عملية حرق القصب، وتنظيف هور الجبايش حول مسار سكة القطار، فيما انشغلت طائرات الهليكوبتر "السمتية" من نوع غزال برمي أهداف عديدة في الهور، واستمر الهجوم على مدى أكثر من أسبوع.

***

هاتف الميدان الروسي تاب 67

معجزة بمستوى نهاية الحرب!

إنـه يـوم مطيـر مـن شـهر كـانون الأول 1984، والمطـر حـين يسـقي أرض كتيبـان، يحـوّل كثبانها الرملية إلـى طبقتين، طينيـة تبعث رائحـة مقرفـة، ورمليـة تتـوارى خلـف الطـين، أمـا الجبهة فعلاماتها تنذر بهجوم قريب شمال فرقتنا على قاطع عمليات شرق دجلة المستحدث.

بدأ اليوم المطير بمشكلة، حيث حدث تماس كهربائي في مولد الطاقة الروسـي KW10 الـذي ينير أغلب ملاجئ الضباط وغرفة الحركات وبهو الضباط وبضـع مفاصـل أخـرى مـن بينهـا الأقلام وحـلاق الوحدة! واضـطر مشـغل المولـد إلـى إطفائـه، فبقـي علـى مقر اللـواء أن ينير حياته بالفوانيس والمشاعل حتى إشعار آخر. وبهذا لم يعد بوسعي أن ألوذ إلـى ملجـأي لأقرأ شيئا، أو أن أشارك ضباط سرية المغاوير سهرتهم مع تلفزيون الكويت الذي يصلهم مشوشـاً لكنه خيراً من تلفزيون بغداد المحـارب باستمرار. وفـي هذا التيـه، زارنـي الـدكتور طالـب، طبيب الوحدة وهو ملول وقد ضاق صدره مثلـي بـالغروب والمطـر القبيح فـي هذه المفـازة. جلسنا في ملجأي الذي اجتاحته روائح الرطوبـة ورائحـة كيروسين الفانوس فبـات لا يطـاق، لكنـه فـي كـل حـال خيرٌ مـن ملجئـه الكئيـب غيـر المرتـب. بحلـول السـاعة التاسـعة لـيلاً رنّ هـاتفي، واخبرنـي عامـل البدالـة أن نائـب الضـابط حمـزة المخـابر فـي مقـر اللـواء الإداري يطلبني، ثم أوصله بي فبدأ يكلمني بلغة غريبة، قائلا" ما رأيك فيمن يزف إليك خبراً سعيداً لا تتوقعه؟ خبر بمليون دينار...ماذا ينوبه؟"

وبقيت أحاوره على هذا المنـوال، ثم أضـاف إنـه خبـر يتعلـق بعملك العسكري! ورنّ عنـدي جرس خافت، أنا منقول إلى وحدة أحسن!

وبدأت أساله "منقول أخيرا، ولكن السؤال إلى أين؟ كتيبة مخابرة مقر الفرقة؟

لا لا ، أفضل من هذا!

كتيبة مخابرة مقر الفيلق؟

لا لا ، أفضل من هذا بكثير!

أين إذا؟ لا يوجد أفضل من هذين الخيارين؟

اولا قل لي عن الحلاوة!

صار، ستكون لك حلاوة البشرى كما تشاء، ولكن بربك قل لي إلى أين؟

ضحك، وبدأ يقرأ لي كتـاب النقل الصـادر عن إدارة الضـباط، والموقـع من قبـل مـدير إدارة الضباط شخصياً (اللواء الركن عبد الرحيم طه الأحمد)، والذي ينصّ علـى نقلـي إلـى "كتيبـة

المواصلات السلكية" ويعين اسم البديل وهو ن.ض.ت.ح ... الفلاني المنقول من وحدتهم إلى مقر لوائنا.

سألته أين تكون كتيبة المواصلات السلكية، فقال إنها في بغداد، قرب بيتي وهي من وحدات المقر العام، وتتبع لها بدالات المقر العام كافة!

وقع الخبر عليّ مثل صاعقة، إنها توصية مدير المخابرة وقد جرى تنفيذها فوراً وعززها تكريمي الرئاسي بمنحي قدماً ممتازاً لمشاركتي في معارك شرق البصرة الثانية. وبدأت الافكار تترى على خاطري، هل يلتحق البديل؟ هل يوافق آمر اللواء على انفكاكي بعد أن يرى تدني رتبة البديل، فهو نائب ضابط تلميذ حربي، ولا خدمة عنده ولا خبرة في جبهة الحرب؟ هل تقبلني وحدتي الجديدة، لاسيما أنّ وحدات المقر العام حكر دائما على أسماء معينة، وأغلب ضباطها من المهندسين، ومن زبائن المقر العام الدائمين؟؟

في اليوم التالي، وصل كتاب النقل إلى مقر اللواء، وعليه هامش من معاون مدير إدارة اللواء، المقدم يوسف، يلفت نظر آمر اللواء إلى تدني رتبة البديل، وانعدام خبرته! تماماً كما توقعت!

في الليل، أخبرني مقدم اللواء المقدم ركن عبد الصاحب سلمان أنّ آمر اللواء وافق على النقل، وردّ على هامش المعاون بالقول "موافق على النقل عند التحاق البديل، الجيش لا يقف على واحد"! وهي أجمل عبارة سمعتها في تلك اللحظة.

في نفس الليل كلمت أهلي في البيت، ونقلت لهم البشارة الكبرى التي لم أصدقها تماماً بعد مع نفسي، وأخبرتهم أني بانتظار البديل وآمل أن يصل قريبا.

قبل نهاية الأسبوع، التحق البديل، وهو ضابط حدث صغير السن، يزور الجبهة لأول مرة في عمره، وبدا خائفاً من كل شيء وهو يتطلع في الآفاق ويسألني عن طبيعة العمل. وحال التحاقه بدأ يقصّ علي حكاية تفيد بأن بديلي إلى مقر اللواء كان ضابطاً برتبة رائد، منقول إلى اللواء بمنصب معاون آمر سرية مقر ومخابرة اللواء، لكنّه استطاع أن يلغي النقل بسبب تقدم رتبته، ولوجود ضابط يشغل منصب معاون سرية مقر ومخابرة اللواء برتبة نقيب مخابرة. وهكذا جرى ترشيح الضابط الحدث بدلاً عنه، وقد كان على ملاك كتيبة المواصلات السلكية من معين مديرية المخابرة.

يوم التحاق البديل صادف نفس يوم نزول آمر اللواء في إجازة، وأثار هذا الوضع فيّ رعباً من نوعٍ آخر، إذ أن انفكاك الضباط يوقّع من قبل آمر التشكيل، وأخشى أن يتأخر الأمر حتى عودته من الإجازة الدورية، وفي الجبهة لا يعلم أحد متى ينقلب الهدوء والصمت، إلى معركة تسيل فيها الدماء بلا حساب!؟

كلمت هاتفياً مقدم اللواء في ملجئه، وأخبرته بما هو متوقع وذكّرته بأمر انفكاكي، فأجاب بأريحية معروفة عنه "لكن آمر اللواء همّش على كتاب نقلك بالموافقة، ومع ذلك، سأكلمه بعد قليل للتأكد".

بعد نحو ساعة، طلبني مقدم اللواء هاتفياً، وسلّم عليّ ببرود ثم قال "رغبة آمر اللواء هي أن نُجري لك حفل وداع لأنك أقدم ضابط في مقر اللواء (اتممت حينها 4 سنوات وسبعة أشهر)، وعليه يجب عليك أن تنتظر عودته من الإجازة، ليقام الحفل وتتلقى هدية متميزة، ثم تذهب بالسلامة"!

صعقني الخبر لأنه يبدو حقيقياً إلى درجة لا تصدق! فصمتُّ هنيهة، حتى عاد مقدم اللواء يسألني لماذا أنا ساكت؟

قلت له: "هذه النقلة حلم بعيد التصديق بالنسبة لي، وأرجّح أن الأمور ستتعقد ولن تجري بسهولة، على كل حال أنا مضطر لقبول الأمر وانتظار عودة آمر اللواء من اجازته الدورية".

ضحك بصوت مرتفع، ثم قال: "رتب أغراضك يا بطل، لقد صدر كتاب نقلك، ووقعه آمر اللواء دون أن أطلب منه ذلك، فقد عُرض الكتاب في بريده ووقعه مع التهنئة لك والتأكيد على ضرورة ايجاز الضابط الجديد! ابدأ منذ الآن بالإيجاز وتسليمه مسؤولياته، وسوف نتعشى معا وتذهب بالسلامة، وسوف أعد لك هدية مناسبة، هل تريد أن تنتظرها حتى الغد، أم نرسلها لك فيما بعد؟"

ذهلت للخبر الجميل، فقلت له متلعثماً "كما ترى يا سيدي، يمكن إرسالها فيما بعد، كما يمكن أن أستغني عنها، أنا لا أفكر بهدية!"

ضحك مرة أخرى وقال" لكنها آداب الخدمة يا عزيزي، سأعد لك هدية تأخذها الليلة، لا تقلق". وأغلق الخط.

وتسارعت الأمور بيسر وليونة، وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل كنت أسافر إلى بغداد، بسيارة ن .ض حمزة نفسه الذي زفّ إليّ البشرى، وكانت هديتي له، إجازة لمدة 10 أيام.

في مدينة العمارة أدركنا الفجر، فأرشدته إلى بائعة القيمر الجميلة، وتناولنا فطورنا عندها، وكان ألذ فطور. قد تكون هذه آخر مرة أراها، ودفعت ثمن الفطور، وسلمت عليها بحرارة، وغادرنا العمارة إلى أفق آخر تماماً. إنه منعطف كبير جداً في حياتي.

***

تائه في أرض الذئاب!

يبدو أنّ نقلي إلى بغداد جاء تنفيذاً لأمر القائد العام للقوات المسلحة باستبدال الضباط والمراتب العاملين في الجبهات بنظرائهم من وحدات المقر العام فوراً بلا ابطاء. فقد تدفق فجأة على كتيبة المواصلات السلكية قادماً من وحدات الجبهة في نقلة واحدة 6 ضباط بينهم ضابط معاق، لكنّ القصة لم تكن بهذه البساطة.

حتى أوامر صدام حسين المخيف الفورية تتعثر هنا بمؤامرات ضباط المقر العام. فهذا الموقع تاريخياً بقي حكراً على المقرّبين من السلطة، وكل من عملوا في وحدات المقر العام، مرتبطين بالسلطة بشكل أو بآخر بقوة، فهم أبناء كبار الضباط، أو أشقاء كبار القيادات الحزبية أو أزواج كبريات الرفيقات الحزبيات أو من الحواشي المشبوهة التي تحوم دائماً حول قمة هرم السلطة.

يصطدم نقلي الفوري إلى كتيبة المواصلات السلكية، بوضوح بإرادة المتنفذين الذين أمضوا كل سنوات خدمتهم في تلك الوحدات المرفهة المعفاة من خطر الحرب والحركات. فقد بقيت 4 أشهر بلا منصب ولا أملك غرفة ولا مكتباً ولست منسّباً للإمرة، بل جرى درجي ضمن سرية الإدامة والبدالات حسبما نص كتاب نقلي، لكنهم لم يعينوا لي رعيلاً أقوده، ولا سلموني قيادة السرية التي صدر أمر نقل آمرها الرائد المهندس. ل. بديلا عني، ثم "بقدرة الله ونابض الإرجاع" جرى الالتفاف على الأمر الرئاسي، ونسّب ضابط حدث بدلا عنه، وصدر بحق الرائد المهندس نقل إلى مديرية الاستخبارات العامة لإنقاذه من الخدمة في جبهات الحرب التي يخضع له المساكين ممن لا يملكون معارف ولا واسطات. لكن مديرية المخابرة لا تجرؤ أن تنسب له بديلاً، لأنّ المطلوب منه هو أن يعمل في الجبهة التي لم يزرها حتى للمعايشة، وهو نظرياً بديلي في النقل حسب أوامر صدام حسين ! وهكذا بقيت أنا بلا منصب في سريته، فهو لم يذهب لآخذ محله، وبطانته ما برحت تقرع طبول الملاك، باعتبار أنّ منصب "آمر سرية الإدامة والتشغيل" ملاكه مقدم مهندس، أي أنه مصمم على قياسه لاسيما انه سيترفع في تموز المقبل، وليس من المعقول أن يأتي ضابط مجند برتبة ملازم أول ويتولى هذا المنصب !

وكلما حاولت أن اتقرّب منه وأسأله عن منصبي وواجباتي في السرية تهرّب بابتسامة ماكرة، وهو يتحدث عن إنها سرية بلا رعائل! وإنّ علي أن أعمل مؤقتاً بصفة معاون آمر سرية، وملاكه رائد مهندس مخابرة! حتى تبين قضية نقله، ويأتي "بالطبع" آمر سرية جديد لتولي المنصب.

أثمرت مؤامراتهم بقرار غريب، فبعد مرور شهرين على نقلي، صدر أمر يقضي بذهابي للمعايشة لمدة شهر في وحدات الجبهة ! وأنا المنقول توا من جبهات الحرب ! ولدى

احتجاجي بأني عائد تواً من الجبهة، قيل لي إنه أمر مديرية المخابرة والمكتب العسكري ولا مجال للاستثناء. وهكذا ذهبت إلى كتيبة مخابرة قيادة عمليات شرق دجلة خلال هجمات عام 1985 على قواطع هور الحويزة ولسان عجيردة.

في كتيبة المعايشة وجدت تفهماً تاماً لموقفي بعد أن شرحته لهم، فأعفاني آمر الكتيبة من أي واجب لكنه نسبني للعمل في المقر البديل، برفقة الملازم منقذ ، وأمضيت كل الشهر معه في المكان، وكننا نتعرض للقصف أحياناُ فننزل إلى خندق شقي، ولم أذهب إلى الخطوط الأمامية قط، ولم أذهب في أي واجب، وعدت سراعاً بعد أن انتهى الشهر، لأرى أنّ كل العائدين من الجبهة قد أرسلوا للمعايشة في جبهات القتال!!

وشيئاً فشيئاً بدأت تتسرب القصة الحقيقية، فالمرشح للمعايشة كان آمر سرية الإدامة والتشغيل، ولأني التحقت بهذا العنوان إلى الكتيبة، ورغم أني لم استلم المنصب، ولأنه لم يجر نقل الضابط المعني إلى لوائي، فقد شملني أمر المعايشة باعتباري آمراً فعليا للسرية المذكورة، مع وقف التنفيذ. إنه اخطبوط العلاقات المتشابكة!

وعند حلول الوجبة الثانية للمعايشة، أرسل من سرية الإدامة والتشغيل ضابطٌ سبق أن نقل إلى سرية الشبكات في نفس الكتيبة، لكنه ما زال مثبتاً في مديرية المخابرة على سرية الإدامة والتشغيل! ولم يذهب الرائد المدلل مرة أخرى للمعايشة في الجبهة. يملكون كل وسائل المناورة والتحايل!

في الوجبة الثالثة، رُشح ضابط كان خارج الكتيبة في واجب منذ شهرين، ومع ترشيحه للمعايشة حال عودته من الواجب المجهول صدر أمر احالته إلى لجنة طبية خاصة لإصابته بالتهاب الكبد الفايروسي! يا سبحان الله؟

وبقيت المخاتلات والمناورات قائمة، وأنا لا أعمل شيئا سوى الذهاب إلى الكتيبة يومياً والخروج الى ساحة العرضات (ساحة التدريب)، وتدريب الجنود لمدة ساعة، ثم قضاء اليوم بلا عمل بالتثاؤب والكسل والجلوس واللغو الفراغ. ثم نسبني آمر الكتيبة العميد سحبان الوائلي لعمل طرأ فجأة، فقد التحق بالكتيبة، تقني سويسري مختص بتصليح الحفارات السويسرية، التي تستخدم لحفر خنادق الكابلات. وكتيبة المواصلات السلكية هي المكان الوحيد في العراق الذي يصلح هذه الحفارات المنتشرة في كتائب مخابرة الفيالق والفرق، وكان في الكتيبة كدس هائل من مواد تصليح الحفارة مستورد بملايين الدولارات من سويسرا وقد تكدس في أحد المخازن بلا ترتيب لجهل الجميع بكيفية تصنيفه، وهكذا تحول واجب مصلح الحفارات الميكانيكي السويسري إلى وظيفة ترتيب المواد الاحتياطية وتصنيفها وتعريف المصلحين المحليين على هذه الأجزاء وكيفية استخدامها، وباتت وظيفتي مرافقته وتولي الترجمة بينه وبين الكادر العراقي، والرجل لم يكن يتقن الانكليزية، وهكذا كانت لي وظيفة وهمية أخرى. أما بالنسبة له، فهي وظيفة وهمية لصفقة مشبوهة جاء

بموجبها الرجل السويسري إلى العراق وقضى 3 أشهر براتب خرافي لا أحد يعرف كيف تم !!

قبل أن ينتهي عمل الخبير السويسري، انفك الرائد ل. آمر سرية الإدامة والتشغيل منقولاً إلى مديرية الاستخبارات بعد أن غيّر صنفه من مخابرة إلى استخبارات دون بديل باعتباري البديل الوحيد له، وفي هذا الوقت وصل الكتيبة ضابط مخابرة برتبة رائد مستحق الترفيع، وتبعه ضابط مخابرة آخر برتبة مقدم، وضابط ثالث برتبة مقدم صدر أمر نقله إلى كتيبتنا لكنه لم يلتحق. وصارت عيون الجميع على منصب سرية الإدامة والتشغيل العجيب الغريب، حتى حسم آمر الكتيبة كل الأطماع بتنسيبي إلى المنصب الذي نقلت إليه، معاون آمر سرية الإدامة والتشغيل، وأقوم بواجبات آمر السرية، واستلم منه متعلقات المنصب والخزانة والتفاصيل. وكانت ضربة قاصمة لأحلام القادمين من أقاصي الوحدات وعيونهم على هذه الوحدة العجيبة.

وتكشفت لي الحقائق، فهذه السرية هي جوهر المخابرة في المقر العام والقصة كالتالي:

نشأت آمرية مخابرة المقر العام في عام 1933 لتنظم أمور المخابرة الخاصة بوحدات المقر العام، والمقر العام يعني رئاسة اركان الجيش والدوائر الملحقة بها التي تدير وحدات الجيش. نواة آمرية مخابرة المقر العام كانت سرية البدالات والهواتف التي بات اسمها الآن سرية الإدامة والتشغيل، وهكذا فإن عمر سريتي وقت استلامي لها كان 52 سنة. من أقدم وأعرق وحدات الجيش العراقي. هذه السرية تطورت شيئاً فشيئاً إلى كتيبة مخابرة المقر العام، التي شملت 4 سرايا مخابرة وانشئت في عام 1955 مع قيام حلف بغداد. وكانت سراياها هي:

*سرية البدالات والهواتف.

*سرية الخطوط والشبكات.

سرية اتصالات الراديو(اللاسلكي)

*سرية السعاة (سعاة البريد المتنقلين على الدراجات الهوائية والنارية وعلى الخيول ايضا)

وبمرور الوقت، وتنامي تشكيلات الجيش من فرق وألوية وأفواج، ومع تطورات صنف المخابرة وتنامي اعداد التشكيلات والوحدات منتصف سبعينات القرن العشرين، أجبرت الكتيبة على الانشطار إلى ثلاث كتائب هي:

*كتيبة المواصلات السلكية.

*كتيبة المواصلات اللاسلكية.

*كتيبة المواصلات الموجهة (محطات الراديو ريلي بأنواعها).

علاوة على هذه الكتائب، انشئت منذ مطلع سبعينات القرن العشرين، تزامنا مع مشروع الكابل الضوئي وشبكات المايكروويف هيئة عسكرية مدنية سميت، "هيئة الكابلات المحورية" تتولى مشاريع الكابل المحوري الصليبي (الشرقي الغربي، الشمالي الجنوبي) عبر العراق.

كل هذه الوحدات كانت تعمل لتأمين مخابرة رئاسة أركان الجيش والدوائر المرتبطة بها، علاوة على مقر وزارة الدفاع، وآمريات المواقع العسكرية المنتشرة في محافظات العراق.

كتيبة المواصلات السلكية (التي نُقلت اليها) كان تنظيمها كالتالي:

*سرية الادامة والبدالات (آمرها مقدم مهندس، يعاونه رائد مهندس مخابرة).

*سرية الشبكات، (آمرها مقدم مخابرة، وهي مسؤولة عن مد وصيانة الخطوط لوحدات المقر العام) عدد منتسبيها آنذاك كان 250 من المراتب مقسمين على 4 رعائل، وآمر كل رعيل ضابط برتبة نقيب. كما أضيف اليها رعيل الحفارات ومشغليها ومفرزة التصليح الخاص بها

*السرية المحورية، وتتولى العمل بالتنسيق مع هيئة الكابلات المحورية، وآمرها عقيد مهندس، يعاونه مقدم مخابرة، و3 ضباط مهندسين برتبة رائد.

*سرية المقر، آمرها مقدم مخابرة، ويبلغ عدد منتسبيها 140 جنديا ونائب ضباط وواجباتها داخلية تختص بشؤون الكتيبة والمشاجب والمستودعات.

سرية الادامة والتشغيل التي بتُّ آمراً عليها هي سرية بلا رعائل، كما أنّ ملاكها من الجنود غير محدد، فهي تضم يوم استلمتها 830 من نواب الضباط والمراتب والجنود، يديرون 160 بدالة عبر العراق. وبعضهم يعمل في الملحقيات العسكرية خارج العراق، كما أنّ ثلة منهم تعمل بشكل دائم في المكتب العسكري. وعليّ أن أوضح هنا، أن هذا العدد من المراتب كبير جداً لقياس أي سرية، والحق يقال إنها يجب أن تكون كتيبة بحد ذاتها، لكنّ وراء الأكمة ما ورائها.

هذه بعض الوحدات والبدالات التي ارتبطت بسرية الإدامة والتشغي:

*بدالة وزارة الدفاع، 5000 آلاف خط اريكسون سويدية، ويعمل عليها 57 من نواب الضباط والمراتب. كما يشرف عليها هندسياً ضابط برتبة عقيد مهندس (حين استلمت السرية كان العقيد حسين)، وهذا الضابط نظرياً تحت أمرتي، وهو أمر غير جائز عسكرياً، لكنه متفرغ لشؤون البدالة هندسياً، لذا لا علاقة له بعمل وتنظيم السرية، ويقع كل ذلك على مسؤوليتي. مأمور بدالة الدفاع كان نائب ضابط درجة ثالثة فلان الفلاني، وهو رفيق حزبي

وكان يعمل على بدالة الدفاع، وهي نسخة هنغارية قديمة بسعة 500 خط وحين وقع انقلاب البعث عام 1963، كان هو الذي فصل كابلات البدالة، وعزل وزارة الدفاع عن كل وحدات الجيش، فلم تصدر أي أوامر عن الزعيم القتيل عبد الكريم قاسم للتشكيلات والوحدات لنجدته. وبهذا فهو من المساهمين الأوائل في قيام دولة البعث الأولى، ولا أحد يعرف لماذا لم يجر تكريمه بجعله وزيرا للمواصلات مثلاً، أو بترقيته إلى مرتبة عضو فرع بغداد حزبياً على الأقل. نائب الضابط هذا، كان هو مركز القوة والثقل الحقيقي للمخابرة في وزارة الدفاع، وكان كل ضباط كتيبتنا وآمرية مخابرة المقر العام، بل وحتى مديرية المخابرة يكنونه بأبي فلان، باسم نجله الكبير. وكل العاملين معه على البدالة كانوا ممن جرى تزكيتهم حزبيا وأمنيا من أعلى المستويات.

*بدالة معسكر الرشيد، ومأمورها نائب ضابط درجة ممتازة اسمه ن ض ن، وهو رفيق حزبي وكان ممن ساهموا في القضاء على حركة حسن سريع عام 1963، وبقي مأمورا لهذه البدالة من عام 1963، حتى نهاية خدمته عام 1989. ويعمل معه على البدالة الهنغارية سعة 500 خط 22 مخابرا من سريتي، و5 جنود من سرية الشبكات ويقومون بواجبات صيانة الشبكات في المعسكر مترامي الاطراف.

*بدالة معسكر التاجي،هنغارية سعة 200 خط مأمورها نائب ضابط رفيق هو مأمورها منذ تأسست البدالة.

*بدالة معسكر الراشدية، هنغارية سعة 500 خط مأمورها نائب ضابط رفيق حزبي بيته في الراشدية، ويعتبر البدالة والمعسكر جزءاً من أملاك ابيه وهو من شيوخ عشائر الندى!

*بدالة مديرية إدارة المراتب، وهي هنغارية سعتها 500 خط، مأمورها نائب ضباط رفيق حزبي يعمل عليها منذ تأسيسها عام 1965. ويعمل بأمرته 30 جندي.

هذه فقط أمثلة سريعة وليس بوسعي أن أسرد كل التفاصيل، لاسيما أنّ هناك بدالات ومنتسبين لم استطع زيارتهم أو لقائهم خلال مدة عملي في هذا المكان الغريب العجيب.

هذه الوحدة التي ينتشر جهدها ليصل حتى إلى سفارات العراق عبر العالم، تضم فيما تضم بدالات وهمية، بقية تعمل بروتين الجيش ليتخفّى فيها جنود ومراتب يحتمون من الذهاب إلى جبهات القتال، ولهذه القضية قصة قادمة.

***

بدالات بلا وظيفة وطواقم هاربة!

منذ أن دخلت إلى صومعة كتيبة المواصلات السلكية، أكتشف كل يوم سراً من خفايا الفساد، بدالات بلا عدد، يقوم عليها طواقم لا وظيفة لهم، أوهام في مشاريع وهمية في زمن القادسية.

وبدأتُ التفتيش والفحص ببدالات المواقع، في مستهل جولة ميدانية ستقودني إلى خفايا لا نهاية لها، هي عبارة عن شبكة أكاذيب مغلقة. بدالة موقع الهندية، أقيمت في زمن بناء سدة الهندية لتأمين مواصلات بين السدة ومن فيها من أمن وشرطة وبين حامية الهندية. وتغير الزمن، ولم يعد للحامية نفسها قيمة، كما أن حماية السد ترتبط بهواتف مدنية تصلها بوزارة الري، والقائمون على حماية السد هم مفرزة شرطة، مرتبطة هاتفياً ولاسلكياً بشبكات وزارة الداخلية. وكانت نتيجة الزيارة إلغاء البدالة الوهمية التي يعمل عليها 4 من أبناء المنطقة، مقيمون في بيوتهم بشكل دائم ولا شغل لهم في الزمن الصعب. عادت البدالة وطاقمها الوهمي إلى حضن الكتيبة بعد أخذ ورد، بدعم من آمر الكتيبة العميد سحبان الوائلي.

بعدها زرت بدالة حامية المسيب، وكانت القصة أسوأ من قصة بدالة الهندية، فالحامية تحولت إلى مركز شرطة منذ ستينات القرن العشرين، ولا وجود لقوات عسكرية في الحامية، والبدالة العاملة هناك، باقية في مكانها منذ حلت في المكان في أربعينات القرن العشرين، حتى أنني لم أعثر في سجلات السرية على أوليات مكتوبة تدل على نشر طاقم البدالة وعددهم 4 في ذلك المكان. ألغيت البدالة وأعدت الطاقم سريعاً قبل أن تصلهم واسطتهم وتخرب الأمر.

أغرب البدالات كانت في مجلس قيادة الثورة، ويعود تاريخها إلى شهر تموز 1968، وانشئت آنذاك لتستقل عن بدالة وزارة الدفاع، باعتبار أن مجلس قيادة الثورة مؤسسة ثورية لا علاقة لها بالدولة ولا العسكر. البدالة ويا للعجب موجودة في محكمة الثورة في أبو غريب، وحين زرتهم فجأة كانت البدالة مغلقة، ولا أحد يعمل عليها! وحين سألت الشرطة ومراتب الانضباط العسكري الموجودين في المكان عن عمل هذه البدالة، أبدوا تعجبهم من وجود هكذا شيء، وهكذا عدت إلى الكتيبة، وأطلعت الآمر على ما جرى، وحاولنا أن نتصل هاتفياً بتلك البدالة الوهمية على مدى أسبوع بلا نتيجة. وانتهينا إلى حل واقعي، بتبليغ قلم رواتب الكتيبة وقلم السرية المتضخم المسؤوليات، بضرورة تبليغ الطاقم شفوياً بالحضور أمام آمر الكتيبة فور استلامهم الراتب. وبعد نحو شهر من الترقب والتصيد، حظينا بمعرفة العاملين على البدالة وعددهم اثنان، نائب ضابط مخابر ورئيس عرفاء سائق، موجودون في هذه "الخلية" منذ تموز 1968، أي منذ 17 عاما بلا عمل !! وتبين أنهم قد

التحقوا بالبدالة بناء على أمر شفوي صدر عن جهة مجهولة منذ التاريخ أعلاه، لذا جرى سحبهم وإلغاء بدالتهم الوهمية دون كتاب رسمي.

ومثل هذا الحال جرى في بدالة الدبوني، حيث وجدت أنها كانت مرتبطة بمعسكر سبق اقامته في منطقة الدبوني، في ستينات القرن العشرين، ثم ألغي المعسكر، وبقيت البدالة منشورة على مركز شرطة الدبوني، ولا عمل لها سوى تأمين اتصال مركز الشرطة، ببدالة موقع الكوت، عبر خط بدالة الدفاع، علما أن مركز الشرطة لا يحتاج الاتصال بموقع الكوت سوى مرة أو مرتين في السنة !؟

المشكلة الخطيرة أن الوصول هاتفياً إلى بدالة موقع الكوت متاح عن طريق البدالة المدنية في الدبوني، وهكذا تصبح بدالة الميدان الروسية ذات سعة 40 خط غير عاملة، وبذلك ألغيتُ البدالة وأعدت طاقمها المؤلف من 5 مراتب لا يعملون شيئا سوى المداومة في المكان صباح كل يوم حتى الساعة 10 والعودة الى بيوتهم، على أن يبقى خفير واحد يعمل على البدالة حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، حيث ينهي عمله ويعود الى بيته بعد اغلاق باب البدالة!

ومن العجائب الأخرى، وجود بدالة في القصر الجمهوري بسعة 100 خط، وعدد العاملين عليها 12 من مراتب الكتيبة يقودهم نائب الضابط ب. المشهداني، وكل خدمته في الجيش ابتداء من آب/ اغسطس 1968 حتى هذه اللحظة في 1985 على هذه البدالة. ولدى البحث والتحقيق عن مكان البدالة لم نصل إلى أي نتيجة، فهي موجودة في القصر الجمهوري، ووظيفتها مجهولة للجميع، ورواتب المخابرين على البدالة تصلهم بيد نائب ضابط محمود، مأمور بدالة المكتب العسكري، ولدى الاتصال به هاتفياً للتحري عن هذه البدالة، أجاب بأنه لم يرها حتى الآن، ولا علم له بواجباتها، وإنّ مأمور البدالة أو أحد عمالها يأتي إليه شهرياً لاستلام رواتب العاملين.

وبعد بحث وتقصٍ وتحقيق توصلت شخصياً إلى حقيقة قرآنية مبنية على الآية المعروفة (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدُ لكم تسؤكم)، واقتنعت أن مزيداً من الأسئلة بهذا الخصوص قد تصيبني بكارثة، فتركت الأمر، بعد أن أبلغت الآمر برؤيتي، فضحك مواريا الحرج الذي وجد نفسه فيه واكتفى بهزّ رأسه.

ثم اكتشفت بدالة مطار صدام الدولي، وهذه جديدة نسبياً فقد بدأ العمل عليها في عام 1980، مع انطلاق مشروع بناء المطار، وكانت وظيفتها آنذاك تأمين اتصالات شبكة الحماية الجوية المنتشرة حول المكان، وهي كتيبة مدفعية م.ط من عيار 57، وكتيبة صواريخ مفتوحة على مستوى مقتربات المطار الجوية، وكتيبة رشاشات من عيار 37، علاوة على ارتباطها بمدير أمن المطار حسب شبكة الهواتف الموجودة نسخة منها في قلم السرية.

وللوهلة الأولى بدت البدالة لي مفعمة بالنشاط، وتقوم بوظيفة هامة، لكنّ الذي لفت نظري أنّ المطار فيه بدالة اريكسون مدنية سعة 800 خط، ولا أعلم بدورها في تأمين شبكة اتصالات مع وحدات مقاومة الطائرات.

وذهبت إلى المطار، وبحثت عن البدالة وبعد جهد، وبمساعدة أحد عمال البدالة المدنية وصلتها فوجدت منظراً فريداً من نوعه، المكان خالٍ من الأفراد وعددهم 4، وقد ربطوا سدادة واحدة على وقب كتيبة مدفعية مقاومة الطائرات ورحلوا تاركين البدالة تعمل براحتها إن شاء الله!

جلست إلى مكان العامل، ورفعت الجهاز اليدوي للبدالة ودخلت على ترباس التنصت الخاص بالخط المذكور، فوجدته صامتاً. انتظرت بضع دقائق فلم يحدث شيء. قطعت الاتصال، وأعدته وطلبت برناتٍ متصلة طويلة كتيبة مقاومة الطائرات، فلم يجبني أحد. طلبتهم مراراً وتكراراً بلا جواب، ما يعني أن الخط ميت أو غير متصل أصلا، وهذا ما رجحته.

فحصت مجموعة الخطوط المؤشرة فوجدتها كلها لا تجيب. كلها خطوط وهمية!

اتصلت بخط مؤشر عليه ضابط الأمن، فلم يجبني أيضا، وقررت أن أذهب اليه.

خرجت من البدالة الوهمية المهجورة إلى صالة المطار، وسألت من مكتب الاستعلامات كيف أصل إلى ضابط الأمن، فاتصلوا به، وكلمته هاتفيا وعرفته بنفسي وبوظيفتي، وطلبت منه أن يأذن لي بلقائه لأمر يتصل بعملنا، ووافق الرجل فوراً، ودعاني مرحباً إلى مكتبه. وجاءني بعد دقائق رجل بلباس مدني، ودعاني لمرافقته إلى مكتب ضابط الأمن.

دخلت مكتباً أنيقاً فسيحاً، جدرانه زجاجية تطل على مدرج الطائرات من جهة، ومن جهة أخرى تطل على فضاء انتشرت فيها قوة عسكرية ومفارز مقاومة الطائرات. واستقبلني رجل في أربعينياته، ببدلة رمادية اللون، وسيم أنيق بشوش الملامح لا يوحي قط بأنّه ضابط أمن، واجلسني بدماثة إلى مكتبه، وخيرني في أن أشرب شيئاً، فطلبت كولا.

وبدأت أعرض عليه ملابسات البدالة الغامضة، واخبرته أني كنت أرنّ عليه قبل قليل من البدالة ولا يجيبني، وسألته إن كان له خط على البدالة العسكرية في المطار؟ فضحك وقال لي معتذراً، بأنه لم يسمع قط بوجود بدالة عسكرية في المطار. وسألته متعجباً، وكيف تؤمن وحدات مقاومة الطائرات الاتصال بإدارة المطار وبوحدات الرادار وببعضها، فأجابني انّ لكل وحدة من هذه الوحدات بدالة خاصة بها، وكلها تتصل ببدالة المطار المدنية، ومن خلاله أو من خلال خطوطهم العسكرية يرتبطون ببعض. وأسقط في يدي، فسألته إن كان باستطاعتي أن ألغي البدالة، دون أن اؤثر على عملهم، فأجابني بكل سرور أن لا حاجة له بها. وطلبت منه كتاباً رسمياً بهذا الشأن، فأبلغ المكتب بتنظيم كتاب معنون إلى كتيبتنا يعلمنا

فيه بانتفاء حاجة مطار صدام الدولي إلى خدمات بدالة عسكرية. وبعد دقائق جيء له بالكتاب مطبوعاً، فذيله بإمضائه، ووضعوا له رقم صادر، وسلموه لي مغلفاً، وانتهى الأمر بكل لطف.

خرجت من عنده، لأذهب مباشرة إلى مقر كتيبة مقاومة الطائرات المسؤولة عن المطار وقابلت معاون آمر الكتيبة وهو ضابط برتبة رائد، وشرحت له مهمتي، فنفى علمه بوجود بدالة عسكرية في المكان، وأرسل بطلب آمر رعيل مخابرة الكتيبة، وسأله عن هذا الأمر، فقال إنه لم يسمع بوجود بدالة كهذه، ولا يوجد لهم خط عليها !!

وسألت باقي وحدات مقاومة الطائرات هاتفياً عن الأمر، فنفوا علمهم بها. واكتفيت بهذا القدر من المعلومات، وعدت إلى وحدتي لأقدم كشفا إلى آمر الكتيبة بالكذبة الكبرى التي انكشفت، فأصدر فوراً أمر إلغاء البدالة، وعمم نسخاً منه إلى كل المراجع مع نسخة إلى إدارة مطار صدام الدولي، وضابط أمن المطار ووحدات مقاومة الطائرات في المكان.

كل هذه الإجراءات تمت سريعا، لكن انسحاب البدالة وطاقمها الرباعي لم يتم إلا في نهاية الشهر، بمختلف الذرائع. والتقيت أخيرا بمأمور البدالة المذكورة، رئيس عرفاء بوجه بالغ القبح ينضح لؤما وخباثة، وكان لي معه قصة بعد أشهر، والغريب أنّه وبعد مرور شهر على عودته إلى الكتيبة، سلمت له إدارة حانوت الكتيبة، رغم احتياله المستمر . ومن أغرب ما عرفته عنه طريقته البذيئة المميزة في القسم، إذ أنه يقسم بالقول" أزني ببناتي" وهو لعمري قسم لم أسمع بمثله قط!!

***

مشفرات خطوط القيادة السلكية

فجأة، طلبتني مديرية المخابرة لمأمورية عاجلة خصصت لي بموجب منصبي الجديد. نصب مشفّرات هواتف القيادة في مختلف المقرات في بغداد. وبلغة الجيش تسمى مجفّرات لأن الشفرة تسمى جفرة. شكّل هذا الواجب لي تحدياً من نوع آخر.

العدد الكلي للمناصب التي توزع عليها الأجهزة هو 113 ، وهذا يعني أنّ كلّ منصبٍ له مشفّرة واحدة، والمشفّرة (مجفرة) من نوع Crypto AG، تصنيع سويسري. وظيفة هذا الجهاز، هي جعل المكالمة المارة بين المتكلم والمستمع مشفّرة بحيث لا يستطيع أحد الدخول على الخط والتنصت، سواء كانت البدالة التي يمر خلالها الخط عسكرية أم مدنية. العقيد مهندس صفاء*، من آمرية مخابرة المقر العام، هو الذي سلمني المشفرات، وأوجزني بشكل سريع عن أسلوب عملها مؤكداً أن أغلب الدول والمؤسسات الدولية تعتمد عليها للمحافظة على كتمان المكالمات.

أتاح هذا الواجب لي أن ادخل في مكاتب، لم أكن أتخيل أني سأصل إلى أسوارها الخارجية! ومن بينها، مكتب وزير الدفاع شخصياً، مكاتب مدراء وزارة الدفاع كافة، مكاتب رئاسة أركان الجيش، مكاتب أعضاء المكتب العسكري للحزب كافة، وواحد من مقرات القيادة العامة للقوات المسلحة إضافة إلى مكتب وزير الدولة للشؤون العسكرية في المجلس الوطني الملحق بالقصر الجمهوري نفسه!

كان عليّ أن أعد لائحة بأسلوب الاستخدام مكتوبة بلغة عربية صحيحة وبسيطة، وأطبعها على ملصق بلاستيكي (ستكر) ثم ألصقها بيدي شخصياً على سطح كل مشفّرة في مكتب كل مسؤول. وترجمت التعليمات من كتيب باللغة الإنكليزية كان متوفراً بنسخة واحدة، وبعد مكاتبات عديدة مع مديرية المخابرة، أحيل طلب إعداد الملصقات إلى مديرية الاستخبارات العسكرية لتنفيذه حسب مصادرها، وتزويدنا به، وهكذا تأخر تنفيذ الواجب اسبوعين كاملين حتى تم إعداد 113 ملصقاً، إضافة إلى عدد غير معلوم من الملصقات للمشفرات التي ستوزعها مديرية الاستخبارات العسكرية على السفارات وعلى مكاتبها في إنحاء العراق وخارجه، هذا غير الجزء الذي ستنفذه رئاسة المخابرات العامة، والمتعلق بمساكن ومكاتب الوزراء وأعضاء القيادة العامة للقوات المسلحة وأعضاء القيادات الحزبية من مستوى أمين سر فرقة فصاعداً.

بدأتُ النصب في مبنى وزارة الدفاع، وما يحمله من ذكريات في الذاكرة العراقية، كل ذلك كان يسير معي في الأروقة الأنيقة المفروشة بالموكيت الأحمر الوثير، والسلم المرمري الفخم الذي يأخذ المعني إلى طابق رئاسة الأركان ومكتب الوزير، ومديرية الحركات،

والعمليات، ومديرية التخطيط. في هذا الطابق رافقني ن.ض ب، مأمور بدالة الدفاع الذي يرتبط تاريخ خدمته لأعوام عديدة بهذا المبنى، من عام 1963 حتى عام 1988، وهو مخوّل بالدخول إلى مكتب وزير الدفاع ومكاتب المدراء في ديوان الوزارة كافة. ودخلت إلى مكتب وزير الدفاع، وأنا اتخيل المكتب الصغير الذي رأيت صور الزعيم عبد الكريم قاسم وهو ينام على أرضيته وأقارنها بهذا المكتب الفسيح الباذخ.

المكتب مقسّم إلى قسمين، القسم الأكبر، وهو صالة فسيحة، وضع في نهايتها المخالفة للمدخل طاولة اجتماعات عملاقة يحيط بها أكثر من 40 كرسياً، وعلى صدر الطاولة وضع مقعد وثير بخلفية أعلى من باقي المقاعد يجلس عليه الوزير، وأمامه عدد من الهواتف، وأجهزة التحكم البعيدة بأجهزة الاتصال اللاسلكي، إضافة الى جهاز فاكس وضع على طاولة صغيرة إلى جانب الطاولة الكبرى خلف مقعد الوزير. وإلى يمين طاولة الاجتماعات هناك قاطع هندي صنع من خشب الجوز "بارتشن"، خلفه مكتب الوزير، المطل على نهر دجلة، وفي نهايته اليمنى، غرفة تقود إلى غرفة نوم الوزير. يعني المكتب بتفاصيله وملحقاته بيت صغير داخل وزارة الدفاع.

كان عليّ أن أربط المشفرة على هاتف في هذا المكتب، وهو الهاتف المتصل بوزارة الدفاع. ولكن المشكلة أنّه توجد على المكتب 3 هواتف ب3 أرقام مختلفة تتصل كلها على وزارة الدفاع، وهنا كان علينا الاتصال بمرافق الوزير، وسؤاله على أي هاتف يريد الوزير ربط المشفرة. ولم يكن متاحاً الاتصال بالوزير، فأخذنا معداتنا على أمل العودة بعد الظهر إلى نفس المكتب، واتجهنا إلى مكاتب مدراء العمليات والتخطيط والحركات.

واستغرق ربط المشفرات في مكاتب طابق الوزير يومين كاملين، ومع ذلك لم نعرف على أي هاتف يرغب الوزير بربط المشفرة، وفي نهاية الاسبوع، وفي يوم الخميس وأنا استعد للعودة الى بيتي، اتصل مرافق الوزير، وأخبر مأمور البدالة أن نحضر إلى المكتب ليدلنا على هاتف السيد الوزير. وذهبنا معا إلى مكتب الوزير، واستقبلنا رجل يافع يرتدي بدلة زيتوني ولكنه بلا رتبة ولا يضع غطاء رأس، ودلّنا على الهاتف الموعود، فقمنا بربط الجهاز، وجربت الاتصال مع رقم معين في بغداد، وآخر في البصرة مع ضابط خفر مكتب مخابرة عمليات الفيلق الثالث، النقيب فلان. وغادرنا المكان بعد اتمام كل شيء.

وتوالت جولاتي في مكاتب المديريات، وكنا لا ننجز سوى هاتفين أو 3 في الجولة الواحدة أحيانا، لأننا نعمل وفق الدام الرسمي فحسب، وبهذه الطريقة تعرفت على عدد كبير من المدراء والقيادات، كان من بينهم مدراء في أحسن الأخلاق، مقابل مدراء ما أنزل الله بهم من سلطان. لكن تجربتي مع الفريق أول الركن عبد الجبار شنشل وزير الدولة للشؤون العسكرية كان لها مذاق خاص.

مقر وزارة الدولة للشؤون العسكرية يقع في بناية المجلس الوطني في كرادة مريم، على نفس شارع الكندي الذي يقع في نهايته القصر الجمهوري. وتطلب الوصول الى مكتب الوزير، ترتيبات واتصالات معدة سلفاً، وانتظار مطوّل في صالة استقبال ضيوف القصر الجمهوري الكبرى خلف مستشفى الطفل العربي في مدخل كرادة مريم.

ثم جرى نقلنا بحافلة صغيرة من تويوتا كوستر مظللة الزجاج مسدلة الستائر، ولدى دخولنا بناية المجلس الوطني، جرى تفتيشنا بدقة، وفحص معداتنا في جهاز يتعرف على المعدات الناسفة، ثم تمت مرافقتنا بعد فترة انتظار إلى مكتب الفريق أول الركن عبد الجبار شنشل، وزير الدولة للشؤون العسكرية آنذاك. قرعت الباب بهدوء، فجاءني صوت أجش يقول "تفضل"!

فتحت الباب، وتخطيت العتبة، ثم أديت التحية بكل نشاط، وقدمت نفسي بشكلٍ رسمي كامل، فلم يرد الفريق الجالس إلى مكتبه الأسود الأنيق الفسيح، بل نظر باتجاهي حانقاً وقال بنبرة حادة آمرة وهو يتأملني من وراء نظارته ذات الإطار الأسود "كما كنت، أرفع ركبتك لمرآة النطاق!" وهذا يعني أني لم أؤد التحية بشكل صحيح، فاضطررت أن اتراجع خطوة، وأعيد أداء التحية وتقديم نفسي بشكل كامل، فرد التحية ببرود وقال "تفضل". دخلت، ثم دلف نائب الضابط المرافق لي وهو يحمل صندوق المشفرة بمعداته، وأدى التحية، وقدّم نفسه بصوتٍ عال، فرد الجنرال بهدوء، ثم سألنا: "ما هو هذا الجهاز الذي تريدان نصبه"؟

فشرحت له كل ما يخص المستخدم لهذه المشفرة، واوضحت له أن شبكة القيادة مرتبطة ببعضها جميعا من خلال شبكة اتصالات سوف تحميها هذه المشفرات، وأن المكالمات الخارجة من مكتبه، والقادمة إليه، على هاتف المشفّرة ستكون مشفرة بالكامل ولا يمكن التنصت عليها.

تململ ببرود محتجا، ثم تساءل، هل يلزم أن أغادر المكتب؟

اجبته بأن من الأفضل أن يبقى معنا كي أوضح له كيفية استخدامها عمليا، وأن نصبها لن يستغرق سوى بضع دقائق. فأذن لنا بالعمل وهو منشغل برسائله، وبدأنا عملية الربط بعد أن عرفنا منه على أي هاتف بخط دفاع يريدها. وحال أن اتممنا الربط، سألته بمن يريد الاتصال لغرض تجربة المشفرة؟

فنظر إليّ حانقاً، وتساءل لماذا تأخرنا في العمل؟ (مع أن كل الربط استغرق 10 دقائق) واجبته معتذراً أننا قد انجزنا العمل بأقصى سرعة ممكنة. ثم سألنا ماذا نريد منه الآن؟

وكان علي أن أعيد طرح السؤال حول رغبته بالاتصال التجريبي بأي أحد، فأجاب أنّه لا يفضل الإتصال بأحد في هذا الوقت، وربما بوسعنا أن نجرب الجهاز مع البدالة!

وأوضحت له أن البدالة ليس فيها مشفرة، ولن يكون الاتصال التجريبي مفيداً للاختبار. وبعد جهد جهيد، اقنعته أن يتصل بمدير المساحة العسكرية اللواء الركن أنمار صلاح الدين الصباغ على سبيل تجربة الجهاز. فرضخ للأمر، وطلب اللواء الركن أنمار وهو ضابط عريق مهذب بتربية تركية ارستقراطية، وهو بالمناسبة نجل العقيد الركن صلاح الدين الصباغ، الذي كان أحد المشاركين في انقلاب رشيد عالي الكيلاني، وقد أعدم في عام 1941.

وتحدث شنشل مع الصباغ بضع دقائق مبيناً له أنّه يُجري تجربة على المشفرة التي ربطت حديثاً على هاتفه، وبعد كلمات قليلة أغلق الخط، ثم شكرنا، وعاد لأوراقه، فأدينا التحية بقوة وغادرنا مكتبه.

مقابل هذا التشدد، كان واجبنا في المكتب العسكري الحصين المخيف، غاية في السهولة واللين. علما أننا ربطنا هناك 8 مشفّرات موزعة على مكاتب أعضاء المكتب، وقاعة الاجتماعات، ومدير ذاتية المكتب.

اتصلت في البداية بمأمور بدالتنا في المكتب العسكري ن.ض صبحي، وأخبرته بطبيعة الواجب، وطلبت منه ترتيب الزيارة لنصب المشفّرات الثمانية، فردّ علي أنّ الأفضل أن يجري ربط المشفّرات حين يكون المكتب العسكري خالياً من أعضائه. وهكذا كان، فقد رتّب لنا زيارة في يوم لم يكن فيه أحد من أعضاء المكتب العسكري موجوداً في البناية الحديثة الأنيقة الواقعة خلف مديرية التوجيه السياسي بكرادة مريم، مقابل بوابة ام العظام للقصر الجمهوري.

صبيحة اليوم الموعود، اتجهت بسيارتي اللاندروفر العسكرية، ومعي نائب ضابط مكلّف بالواجب، علاوة على سائقي النجفي المخبول ناهض، إلى المكتب، وأمام البوابة أظهرنا كتاب التكليف الصادر عن مديرية المخابرة، وفيه تخويلي من المديرية بنصب المشفرات، واوضحت للحرس أنّ عندنا موعد، فاتصل بضابط في داخل المكتب، وعاد ليفتح لنا عارضة الدخول، فدخلنا وتركنا السيارة في المراب، وبدأنا ننقل المشفرات إلى موقع البدالة التي تعود لنا، ثم بدأنا النصب في المكاتب الأنيقة الباذخة، وكان يرافقنا دائما أحد عناصر الأمن الخاص ببدلة زيتونية ودون غطاء رأس أو رتبة أو سلاح.

آخر المشفرات كانت تخص مسؤول ذاتية المكتب، النقيب الرفيق بديوي الدوري، وقد تلقانا الرجل بدماثة خلق كبيرة، ورفض أن نتولى العمل قبل أن نتناول فطورنا. فذهب نائب الضابط المرافق لي إلى البدالة ليتناول فطوره مع عمال البدالة ومأمورها، وبقيت في غرفة النقيب بديوي الفسيحة الأنيقة المقسّمة إلى قاطع عمل وقاطع استراحة حيث جلسنا وجاءوا لنا بإفطار منوّع من الجبنة والقيمر والبيض والشاي. تناولنا الفطور ودار بيننا حديث عن

مسدس ماكاروف روسي 8 ملم

جبهات الحرب، وسألني عن تاريخ خدمتي، فرويت له بعضاً منه، وهنأني على السلامة من إصابات "الفرس المجوس" على حد وصفه.

ثم نصبنا المشفرة، وجربناها عملياً بإيصاله مع أحد مكاتب الفرع العسكرية، وغادرنا المكان، على أن يتولى مأمور بدالتنا في المكتب تجربة المشفّرات الباقية.

استغرق نصب جميع المشفرات شهراً كاملاً، وكان واجباً مريحاً وممتعا تعرفت من خلاله على جنرالات وضباط ومراتب بمنتهى اللطف.

---

*بعد سنوات من نهاية الحرب العراقية الإيرانية، كنت خارج العراق وسمعت أن العقيد مهندس صفاء، من آمرية مخابرة المقر العام، الذي سلمني المشفرات قد أعدم في عام 1993، على خلفية حصول المخابرات العراقية على معلومات تفيد أن إيران استخدمت نفس المشفرات التي استخدمناها، واكتشفت عام 1992 أنها مزيفة لا تعمل. إثر ذلك، جرى فحص المشفرات المربوطة في العراق بعد تسرب هذا الخبر، فظهر أنّها لا تقوم بتشفير المكالمات كريبتونياً كما يفترض، إنما تضيف إلى الصوت رنيناً من نظام الحماية السايكروفوني القديم.

وفي بداية عام 2020، نشرت الصحف العالمية فضيحة كبرى خطيرة تخص شركة Crypto AG، باعتبار أن مالكها الحقيقي هو وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA والمخابرات الألمانية الغربية BND . وفيما يلي أحد التقارير التي تناولت الموضوع باللغة العربية وقد نشر على موقع DW:

قضية كريبتو: دول عربية دفعت أموالاً ليتم التجسس عليها!

نشرت صحيفة "واشنطن بوست"، والقناة الألمانية الثانية تقريراً استقصائياً كشف عن تعاون استخباري بين ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية من خلال امتلاكها لشركة "كريبتو" لصناعة معدات التشفير راح ضحيته 120 دولة، فما هي القضية؟

لأكثر من 50 عاماً، كانت أسرار الحكومات والأنظمة السياسية لدول في جميع أنحاء العالم بيد شركة سويسرية واحدة، تم ائتمانها على اتصالات سرية بين الجواسيس القادة العسكريين والدبلوماسيين.

شركة "كريبتو"، والتي تم إنشاؤها عام 1970، تخصصت بصناعة أجهزة تشفير وبيعها لأكثر من 120 دولة، لتهيمن عبر العقود الماضية على هذا السوق منذ البداية، وهي

مسيطرة على أكثر من 40% من القنوات الدبلوماسية السرية، وقد حققت من خلال بيع وانتاج هذه الأجهزة ملايين الدولارات.

وقد شكّلت إيران والدول العربية ودول أمريكا اللاتينية، والهند وباكستان أهم عملائها، بالإضافة إلى عدة دول حليفة خلال الحرب الباردة، وفي فترات التنافس المحموم على صناعة الأسلحة النووية.

إلا أن عائدية ملكية هذه الشركة لم تكن معروفة لأي من هؤلاء العملاء، إذ كانت تتبع سراً لوكالة المخابرات الأمريكية المركزيةCIA ، بشراكة مع المخابرات الألمانية الغربيةBND ، وبعلم المخابرات السويسرية، كما كشف تحقيق استقصائي واسع لكل من صحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية، والتلفزيون الألماني .ZDF

أتاحت هذه القدرات للشركة إمكانية تزوير معدات التشفير، مما مكنها من كسر الرموز التي استخدمتها البلدان في مراسلاتها، مما يعني أن ألمانيا والولايات المتحدة استطاعتا كشف الأسرار السياسية والعسكرية، وحتى العمليات السرية آنذاك.

ليتم وصفها من "السي آي إيه" بـ"انقلاب استخباري"، إذ كانت الدول الضحية تدفع أموالاً طائلة للولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا من أجل امتياز قراءة معظم اتصالاتها السرية .

والذي يطرح تساؤلاً حول المسؤولية الأخلاقية التي تقع على هاتين الدولتين في جرائم الحرب التي حدثت في تلك الفترة، بالإضافة إلى حجم المعلومات التي تمكنت من الحصول عليها ومتابعتها.

أكبر العمليات السرية في الحرب الباردة

هذه العلاقة السرية ما بين الجهازين استمرت حتى عام 1993، حينما انسحبت ألمانيا من الاتفاق، وقامت الولايات المتحدة الأمريكية بشراء حصة شريكتها، وفرض سيطرتها الكاملة على الشركة حتى عام 2018، وقد تم حفظ ملف العملية في سجل سري للـ "سي آي إيه"، ليتم الكشف عنه مؤخراً فقط.

وقد اعتبرت العملية، والتي عرفت لاحقاً باسم "Thesaurus" و"Rubicon" ، بأكبر العمليات السرية في الحرب الباردة، إذ استطاعت كلتا الدولتين السيطرة بشكل كامل على الشركة، وتحكموا بالتوظيف، والتصميم وتخريب الخوارزميات، وتوجيه أهداف المبيعات .

العقود الطويلة لهذا التعاون تشير إلى حجم المعلومات التي جمعها جهازا المخابرات بشكل سري ودون علم زبائن الشركة، بيد أن دلائل أولية آنذاك أشارت إلى وجود قناة سرية لدى واشنطن يتم من خلالها تهريب المعلومات إلى البيت الأبيض.

إذ أن العلاقة كانت مهددة عام 1986، وذلك بعد أن كشف الرئيس الأمريكي آنذاك رونالد ريغان عن حصول الولايات المتحدة الأمريكية على معلومات مؤكدة حول المتسبب بتفجير ملهى ليلي في غرب برلين، راح ضحيته جنديين أمريكيين، وامرأة تركية.

هذا التفجير كان سبباً لقيام واشنطن بالإعلان عن هجوم ضد ليبيا بعد 10 أيام فقط من العملية، إذ قال ريغان في خطابه: "لدينا دليل مباشر، ودقيق، ولا يمكن دحضه"، مما طرح التساؤل حول مصادر المعلومات، وإن كانت الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك أداة تجسس سرية.

لم تكن هذه الحادثة الوحيدة التي وضعت "كريبتو" تحت مجهر المراقبة والشك، إذ تم القبض على بائع في الشركة لم يكن يدرك أنه يبيع أجهزة مزورة عام 1992 في إيران، ليثير بذلك عاصفة مدوية، كادت أن تطيح بها، وفقاً لوكالة المخابرات المركزية، والذي دفع BNDإلى الانسحاب بسبب مخاوفها من "الفضيحة السياسية" بعد عام فقط من الحادثة .

ولكن المدى الحقيقي لـ"الباب الخلفي" الذي قدمته الشركة لواشنطن وبون (عاصمة ألمانيا الغربية في ذلك الوقت)، لم يتم الكشف عن حجمه إلا الآن.

فقد جلس العملاء الأمريكيون والألمان يتنصتون على اتصالات الرئيس المصري أنور السادات في القاهرة عام 1978، عقب عملية اجتماع قادة مصر وإسرائيل والولايات المتحدة في كامب ديفيد للتفاوض على اتفاق سلام.

وجرى التنصت أيضا على مكالمات النظام الإيراني خلال أزمة الرهائن عام 1979، وذلك بعد قيام عناصر من "الثورة الإيرانية" باحتجاز 52 أمريكياً لمدة 444 يوماً.

وقامت المخابرات الأمريكية والألمانية الغربية بتقديم معلومات للبريطانيين خلال حرب الفوكلاند بين الأرجنتين والمملكة المتحدة عام 1982.

دول عربية على رأس القائمة

احتكار "كريبتو" لسوق التشفير خلال العقود السابقة، جعلها وجهة العديد من دول العالم للحصول على معدات تشفير متطورة، إذ أن 120 دولة وقعت ضحية التعاون الأمريكي الألماني.

فقد كانت إيران على رأس القائمة، إلى جانب السعودية والعراق، والأردن، والكويت، ولبنان، وعمان، وقطر، وسوريا، والإمارات، والجزائر، ومصر، وليبيا، والمغرب وتونس.

وكذلك دول أمريكا اللاتينية؛ فيما كانت دول أوروبية أيضاً واقعة في شباك الجهازين وطال التورط حتى دولة الفاتيكان، إضافة إلى دول من شرق وجنوب آسيا.

بيد أن مدى نجاح هذه العملية كان محدوداً نوعاً ما، إذ أن خصوم الولايات المتحدة الرئيسيين؛ روسيا والصين رفضتا التعاون مع "كريبتو" بسبب شكوكهم حول علاقتها مع واشنطن، مما يعني أن تقنية "رسائل التشفير" لموسكو وبكين كانت تجري في معزل عن دول القطب الغربي.

فيما ذكر التحقيق أنّ المخابرات الألمانية والأمريكية لم يتجسسا على إسرائيل والسويد وسويسرا وبريطانيا، وفي هذا يرى مدير المجموعة الألمانية المختصة في الاستشارات الأمنية يان سانت بيير خلال حديث له مع مسائيةDW ، أن هناك عوامل ساعدت على حماية هذه الدول، فقد قدمت سويسرا الموقع الجغرافي والدعم للشركة، بينما كانت العلاقات الوطيدة بين إسرائيل وبريطانيا عاملاً مهماً في حمايتهما، فيما كان وجود موظف سويدي ذي دورٍ مهم في الشركة سبباً في حماية بلده الأم، مضيفاً أن ليس في عالم التجسس "حلفاء وأصدقاء."

ردود فعل بين الخوف والمسؤولية الأخلاقية

أثار التحقيق فور انتشاره زوبعة لدى العديد من المهتمين والنشطاء وشركات تقنيات التشفير، فيما تم اعتباره فضيحة مدوية، وقد ذكر الناشط الأمريكي كيم دوتكوم في تغريدة له، أن الولايات المتحدة الأمريكية تحاول حتى الآن إجبار شركات تكنولوجية أمريكية بشكل قانوني على فتح "باب خلفي" للسماح لها بالتجسس على دول وأفراد.

فيما يرى الخبير الألماني سانت بيير أن تنوع الشركات التقنية حالياً وعدم احتكار السوق من قبل شركة واحدة، يفتح المجال لمزيد من الحماية للأفراد والدول، معقباً أن الحديث عن الجانب الأخلاقي جزء مهم في هذا السياق، إذ أن معرفة ألمانيا بالعديد من الجرائم، التي راح ضحيتها ألمان، قبيل وقوعها يطرح التساؤل عن المسؤولية الأخلاقية التي تتحملها.

بينما لم تصدر برلين حتى هذه اللحظة أي تصريحات رداً على المعلومات التي احتواها التحقيق.

***

اتصالات مقر القيادة العامة للقوات المسلحة في الحارثية

ما أن انتهى واجب نصب المشفرات، حتى عصفت بيّ رياح مؤامرة خبيثة نفذها عدد من الضباط والمراتب الذين ألغيتُ بدالاتهم بالتواطؤ مع المنظمة الحزبية في معسكر عقبة بن نافع بخان بني سعد. فأطاحت المؤامرة بي واخرجوني من منصبي ونقلوني إلى سرية الشبكات ضمن الكتيبة السلكية نفسها.

في سرية الشبكات كان أول واجب لي هو تأسيس شبكة مخابرة لأحد مقرات القيادة العامة في الحارثية. مسافة الكابل الذي نمده، تبدأ من مفرق كابلات أبو غريب، لتعبر بعدها مناطق الخضراء والداوودي والمأمون وصولا إلى ساحة النسور فالحارثية حيث بناية القيادة التي رفعت عليها يافطة "نقابة عمال ومهندسي الميكانيك". استفدنا من فرعات فارغة في كابلات البريد الكبرى في تلك المنطقة، ولكننا مددنا كابلاً أرضياً بسعة 500 خط، تعزل منه 100 فرعة عند نفق الشرطة الأولى، لتبقى رصيداً للطوارئ، وكان عزل هذه الفرعات، يحتاج إلى وصلة كابول تخرج بها عن الكابل الاصلي، وتغطيتها بجوين مسلح يحمي راس الكابل، ما يعني ان تكون كل وصلة مغداة بزبائن حماية .

آليات وفريق مد الكابل، زودتنا بها وحدة صيانة كابلات الكرخ ومقرها في مدخل نفق الشرطة الأولى من جهة حي العدل. وكان واجبي يجري يوميا بالشكل التالي، أصل كتيبة المواصلات السلكية في حدود الثامنة صباحاً، اصطحب معي مفرزة تضم نواب ضباط عنوانهم "جوينترية" لربط العقد والوصلات، 3جنود لسحب الكابل ومده، وسائق سيارة، وكنا نخرج دائما بشاحنة مرسيدس 2 طن، ونقصد مكتب صيانة الكرخ لاستصحاب مهندس الاتصالات المختص، وعمال المد، وبكرة الكابل التي نعمل عليها، وتربط بعجلة سحب خاصة على شاحنة من مصادرهم، فيما يخرج المهندس ومعاونه وهو مراقب خطوط أقدم بسيارة اختصاصية حمراء كبيرة مكيفة ومريحة. ونخرج برتلنا إلى مكان العمل. كانت البداية صعبة للغاية، إذ لم يحدد في الواجب من أين نبدأ، فمفرق خطوط أبو غريب منطقة معزولة، وهي عقدة كابلات غير محددة الاتجاه. وحتى يتبين لنا المطلوب من هذه النقطة، كان عليّ أن أذهب بضع مرات إلى مديرية المخابرة في الباب المعظم للتعرف على مطلبهم بالضبط، من أين يريدون أن ينطلق الكابل، وبمن سوف يربط مقر القيادة في النهاية الأخرى. بعد جهد جهيد، تبين أن علينا أن نربط كابلنا بالكابل القادم من قصر الرضوانية، والمار في مفرق كابلات ابو غريب. وكان هذا يستلزم حضور عناصر من الأمن الخاص ليقوموا بتشخيص الكابل، ويتيحوا لنا الدخول عليه. وجاء عنصران منهم يرتديان بدلات زيتوني وهما حاسرا الراس بشعور طويلة، ويستقلان سيارة تويوتا سوبر صالون حمراء موديل 1985 برقم مدني. المشكلة التي ظهرت هي أن الكابل القادم من قصر الرضوانية هو كابل سعته 100 خط، والعنصران المكلفان بإرشادنا اليه وفتحه، لا يعلمان عدد

الخطوط المخصصة للواجب الجديد، بمعنى كم فرعة يمكننا أن نأخذ من الكابل لربطها بالكابل الجديد، وتطلب الأمر مراسلات ومكاتبات بين مديرية المخابرة وبين جهاز الأمن الخاص المسؤول عن القصور الرئاسية. وكانت هذه العلاقة بين جهازين مختلفين صعبة للغاية، وتطلب استبيان الأمر والقرار على عدد الخطوط المسموح باستخدامها نحو اسبوعين. وجاء الجواب يتيح لنا استخدام 48 فرعة من الكابل، وهذا يعني عمليا أن علينا البحث في كابل قصر الرضوانية عن 48 خطاً شاغراً، وعملية البحث لا تتم إلا بحضور عناصر الأمن الخاص، وهكذا اضيف إلى فريقنا عنصران من الأمن الخاص حضرا إلى مفرق كابلات ابو غريب للأشراف على فرز الفرعات الشاغرة المتاحة. واستغرق هذا الفرز، وربط الفرعات الشاغرة بالكابل الذي معنا يومين كاملين، بنوبات عمل من التاسعة صباحاً إلى الخامسة مساء.

ثم شرعنا بعملية المد، والتي تبدو من الناحية النظرية عملية بسيطة، لكن مد الكابلات في في قنوات الكابلات الراقدة تحت الأرض ضمن شبكات الخدمات الممدودة تحت الأرض والتي تؤمن مرور كابلات الكهرباء والهاتف وأنابيب الماء، تعترضه عشرات العوارض غير المحسوبة، إذ كلما وصلت الشبكة إلى عبور شارع، انسدت شبكة قنوات الكابلات، وتحتم علينا أن نعمل تعبيرة خاصة بنا خلال الشارع المذكور، من خلال حفر الشارع وتعميق الخندق بمسافة تناسب عمق شبكة ممرات الكابلات التي سوف نتصل بها، وهذا يتطلب أحياناً قطع السير، وتغيير مسار السيارات، وكل ذلك يحتاج تنسيق مع الجانب المدني ويستغرق وقتا، ولدى مفاتحة مديرية المخابرة بأنّ مثل هذا التنسيق يستغرق وقتاً طويلاً قد يعيق عملية تجهيز مقر القيادة المطلوب إكماله بوقت سريع نسبيا، اجابني العميد اياد شفوياً أنّ علي أن أقدم تنفيذ أوامر الجيش على أوامر الجهات المدنية، وهذا يعني تجاهل أمانة العاصمة وشرطة المرور، وحتى حقوق السكان المدنيين أحياناً! وقد كنا نضطر أحياناً إلى كسر مداخل البيوت بالمثقب الهيدروليك الثقيل الذي معنا لنصل إلى ممرات الكابلات تحت الأرض.

من أصعب التعبيرات، كانت تلك المتعلقة بعبور الشارع الدولي القادم من أبو غريب وكلية الزراعة والبيطرة، فعلينا أن نقطع الطريق الدولي لبضع أيام لنحفر قناة، وهذا مستحيل . ثم أوصى مهندس الاتصالات باستخدام تقنية صاروخ بنغالو الخاص التعبير، وهو صاروخ قتالي، وظيفته حفر انفاق لعمق معين، ويستعمل عسكرياً لتدمير خنادق المواصلات العدو، ولتحقيق ثغرات في جدران الأسلاك الشائكة، لكن ظروف العراق المحارب استحدثت له وظيفة جديدة في خدمة المخابرة. كنا نريد أن نؤمن تعبيرة تحت الشارع دون أن نضطر إلى حفره وقطع السير . واستغرق تنفيذ هذه العملية أسبوعاً كاملاً، وإطلاق صاروخين بحسابات هندسية معقدة لصنع النفق المطلوب، ونجحت الخطة، واستطعنا أن نمد الكابل في النفق الذي احدثه الصاروخان.

ثم واجهتنا عقبة معقدة أخرى، وهي التي صادفتنا عند نفق الشرطة، اذا تنحرف شبكة قنوات الخدمات باتجاه شارع الشرطة الكبير الذاهب إلى حي العدل، ولا ترتبط بشبكة قنوات الخدمات في الجانب الآخر من النفق، وتطلب تأمين الارتباط بين هذه الممرات المتشابكة الاستعانة بمهندس من أمانة العاصمة جاء بخارطة الشوارع المتقاطعة في هذا المفرق الحيوي.

عملية مد كابل في العاصمة أصعب بكثير من عمليات مد الكابلات في جبهات القتال، إذ أن العمل في الجبهات يجري غالباً في أراضٍ خالية مكشوفة، وحتى المدن التي تمر بها الكابلات هي مدن صغيرة أو قرى ويسهل تعبير الكابل خلالها، كما أن الكابلات العاملة في الجبهة ذات سعات صغيرة، وليست مثل الكابل الذي نتعامل معه. وكان علينا هنا أن نؤمن شبكة اتصالات لاسلكية نتصل بها ببعضنا من خلال أجهزة ووكي توكي الشهيرة، وهكذا كنا نتحدث إلى مهندسي وملاحظي الجانب المدني، حين نفترق عنهم بمسافات مئات الامتار.

لفة الكابل هي "بكرة" يبلغ طول الواحدة 250 متراً، وكلما فرغت البكرة، كان علينا أن نأتي بكابل جديد، ونعمل جوين بخمسمئة فرعة لكي نستمر، وكل هذا يستغرق وقتا طويلا جدا.

مع اقترابنا من ساحة النسور، بدأنا نعثر على كابلات مدفونة تخص خدمة شبكات الصيانة الخاصة بمقتربات القصر الجمهوري ومجلس الوزراء والمجلس الوطني ومنطقة كرادة مريم عموماً. واستطعنا أن نستفيد من بعض تلك الكابلات الحرة المدفونة كاحتياط لحاجة المنطقة الرئاسية إلى اتصالات اضافية، ووظفنا الوصلات لتأسيس شبكتنا، وهذا سرّع في وتيرة العمل.

وصلنا إلى ساحة النسور، وكان علينا ربط كابلاتنا مع الكابلات الحرة التابعة للبريد سائرين مع جدار رئاسة المخابرات العامة، وما إن وضعنا أثقالنا، وبدأنا نفتح عقدة الانفاق الخدمات، في ركن رئاسة المخابرات المطل على ساحة النسور، حتى جاءنا شخصان يرتديان بدلات زيتونية ويضعان بيريات القوات الخاصة الحمراء، وطلبا مني أن أريهما كتاباً رسمياً يخولني القيام بهذا العمل، فأريتهم الكتاب الذي زودتني به مديرية المخابرة، وأخذاه مني وطلبا مني مرافقتهما إلى استعلامات دائرتهم . وجلست في الاستعلامات نحو ساعتين، بانتظار اتضاح الموقف، ولم يعد المأموران بالجواب، فكان علي أن اطلب الكلام مع ضابط أمن رئاسة المخابرات، وهو منصب ابتكرته من خيالي، تشبيها للمخابرات بتنظيم الدوائر العسكرية، وهكذا كلمت شخصاً لا أعرفه على الهاتف وأوضحت له طبيعة واجبنا وضرورة التعامل معه بجدية ووضعه كأسبقية أولى لأنه يخص مقر القيادة العامة للقوات المسلحة في وقت كانت تحتد في المعارك في قاطع ميسان. وأثمر حواري معه، فقد عاد أحد المأمورين، وسلمني كتاب مديرية المخابرة، واخبرني أن بوسعنا استئناف العمل.

وهكذا بدأنا نعمل في هذا المكان الخطير. وبعد أن انتهينا من الربط والمد بحذاء جدار المخابرات العامة، كان علينا أن نستخدم تعبيرة جسر الخر خلف المخابرات من جهة معرض بغداد، لنعبر من تحته كابلنا، والمنطقة هناك مطوقة بأسلاك شائكة وسياج مشبك معدني "بي آر سي" وكان علينا مرة أخرى أن ننسق مع المخابرات لأننا يجب أن نخترق موانعهم ونمزقها لتعبير الكابل. وجاءت مفرزة منهم ترافقنا ونحن نقطع الأسلاك الشائكة ونطيح بقطعة من المشبك المعدني لندخل تحت الجس ونعبر بالكابل إلى الجهة الثانية، وما إن انتهينا من تعبير الكابل، حتى قامت مفرزة المخابرات بأغلاق الثغرة في الأسلاك الشائكة وفي جدار البي آر سي.

وبقينا نربط أو نمد الكابل حتى وصلنا إلى مستشفى الجيبجي وكان علينا أن ننعطف مع كابلنا باتجاه جوف منطقة الحارثية. واستطعنا أن نعثر على مجرى حر في شبكة انفاق الخدمات، مددنا خلاله كابلنا حتى وصلنا إلى "نقابة عمال ومهندسي الميكانيك". أمام هذه البناية توجد عقدة مواصلات مدفونة، توقفنا عندها لنرى كيف بوسعنا إيصال الكابل إلى داخل البناية، وذهبت إلى مديرية المخابرة وابلغتهم بعقدة المواصلات التي وصلناها، فجاء ضابط ركن المديرية ومعه مقدم مهندس بخارطة توضح المنطقة، فبينت لهم موقعنا على الخارطة، وتأكدوا منه، واتصلوا بالمسؤول عن شبكات القيادة، فأبلغهم أن واجبنا انتهى في هذه النقطة، وعلينا ختم الكابل بجوين واضح، ووضع شمع أحمر عليه، وهذا ما فعلنا، وعدنا إلى مقر كتيبتنا . واجبنا هذا استغرق انجازه 3 أشهر.

***

ضباط الجبهة مصيرهم دائماً جبهة القتال

بعد اسبوع من انتهاء واجب شبكة القيادة العامة، استجد واجبان، الأول هو تجديد وتسليك شبكة مستشفى الرشيد العسكري، والثاني هو تسليك وتأسيس شبكة جديدة لكلية الأركان. كلا الواجبين في معسكر الرشيد، ووقع الاختيار عليّ وعلى م.اول صباح للقيام بالواجب. وخيّرنا آمر الكتيبة في انتخاب أي من الواجبين، وهكذا قرر م.أول صباح أن يأخذ شبكة مستشفى الرشيد، وذهبت أنا إلى كلية الاركان.

في كلية الأركان شبكة هواتف قديمة، لا تفي باحتياجات الكلية التي اتسعت، وهكذا كان علينا أن نمد 3 كابلات، اثنان هوائيان بسعة 50 خطل لكل منهما، وثالث أرضي بسعة 100 خط. وتطلب نصب الكابلات الهوائية تأمين اعمدة، جئنا بها من البريد والبرق والهاتف، فيما احتاج مد الكابل الأرضي الى الاتيان بحفارة من كتيبتنا لحفر خندق الكابل .

استغرق انجاز العمل 3 اسابيع، عدنا بعدها إلى الكتيبة، فوجدت واجباً الى مديرية التطوير القتالي ينتظرني، كانوا قد انتقلوا إلى بناية جديدة في الكرادة، وكان مطلوبا أن نسلك لهم البناية حسب مكاتب المديرية. التسليك جرى بكابلات PFC واحتجنا إلى وصلة كابل هوائي بسعة 20 خطا، بطول 50 مترا، لتسليك الهواتف الخارجية. استغرق العمل أسبوعاً، وعدت بعدها إلى الكتيبة لأمكث بضعة أيام، فيستجد واجب في الجبهة، فقد تأسست قيادة الفيلق الثامن واسمه أيضا "الفيلق الخاص" قرب هور الشويجة في قاطع بدرة وجصان، القاطع الأوسط من الجبهة، وهذا هو فيلق المتقاعدين المعادين الى الخدمة من ضباط ونواب ضباط ومراتب، أما الجنود فجميعهم احتياط من مواليد 1946، و1947، و1948، ثما اضيف إليهم مواليد 1945 نهاية الحرب، وكلهم في اربعينياتهم ونحن في عام 1986. القاطع الأوسط في المنطقة التي كلف بمسكها الفيلق هادئ نسبياً، ولا يسمح بعلميات تعرض مدرعة كبيرة، لذا كان غالباً قاطعاً هادئاً، لاسيما وأن تضاريس الأرض في الجانب الإيراني في منطقة عيلام المقابلة لبدرة وجصان، كانت وعرة، وتتكون من سلاسل جبلية متباينة الارتفاعات مطلّة على العراق، وكلها أراضٍ صخرية لا تسمح بانفتاح القطعات المدرعة.

كان مطلوباً منّا، أن نؤمن اتصالات بدالة موقع الكوت بمقر الفيلق، ليتاح لهم تأمين الاتصال مع القدمات الإدارية للفيلق وتشكيلاته. المسافة بين بدالة الكوت وبدالة مقر الفيلق 90 كيلومترا، وهكذا كان لابد من الاستفادة من موارد البريد والهاتف عبر كابل يتصل ببدالة الدبوني، وأعطونا 20 فرعة على كابول أرضي ، ومن المفرق توجب علينا أن نوصل المسافة عبر هور الشويكة بأنفسنا، وكان هذا تحدياً صعباً جداً، لأنّ المسافة طويلة

ولا توجد وصلات، سوى كابلات ممتدة باتجاه بدرة وجصان، وليس فيها فرعات فارغة. وطلبت هاتفياً من الكتيبة 30 كيلومتراً من كابل أرضي سعته 100 خط، وكنت أعرف ان الحصول عليها مستحيل، لأنها مكلفة جداً، وغير متوفرة في مستودعات الجيش ولا البريد والهاتف المدنية، والحل الوحيد الممكن هو نصب حاملة بين الدبوني ومقر الفيلق في الشويكة. وهذا يتطلب أيضا ترتيبات كثيرة وموافقات متعددة وتنسيق بين مديرية المخابرة وبين مديرية البريد والبرق والهاتف . وهكذا بقيت عدة أيام بلا عمل بانتظار أوامر جديدة لاسيما وأن آمر كتيبتنا الجديد العميد مهندس عدنان عبد الجبار جبارة كان رجلاً يتملص من الواجبات، معتاداً على الغدر بمعيته، بشهادة كل الضباط الذي عملوا معه. وكلما اتصلت به وأعدت عليه قصة الوضع الذي نحن فيه، قال متبرماً أن عليّ الانتظار، حتى مر أسبوع كامل ونحن لا نعمل ، مكتفين بالمكوث في مقر بدالتنا في موقع الكوت والتجول في المدينة بلا عمل ليل نهار. ثم جاء أمره السخيف، بضرورة التحاقنا بكتيبة مخابرة الفيلق الثامن لدعمهم في تامين مواصلاتهم مع تشكيلاتهم!

وهنا بدأت مشكلة أخرى من نفس النوع، إذ أنّ آمرية مخابرة الفيلق الثامن لا تملك أي موارد، وكان على آمرية مخابرة المقر العام تأمين كل ما تحتاجه شبكة اتصالات الفيلق الخاص، واتضح أنّ المسافة بين مقر الفيلق ومقر الفرق المرتبطة به تصل إلى 25 كيلومترا، ولا يملك الفيلق سوى نصف كيلومتر من كابل هوائي سعة 50 خط. وكان كل هذا تحدٍ مستحيل. والواضح أنّ العميد عدنان عبد الجبار جبارة كان يسعى إلى تركيب المسؤولية على عاتقي، للخروج من مأزق وعوده الكاذبة التي بذلها في اجتماعه مع قيادات الفيلق بأمر مباشر من وزير الدفاع الفريق أول الركن عدنان خير الله. من جانبي سارعت اتصل بالعميد أياد، ضابط ركن مديرية المخابرة المسؤول عن تنسيق جهدنا مع جهد آمريات مخابرات الفيالق، وشرحت له بالتفصيل كل المأزق بتفاصيله، المشكلة بين بدالة الدبوني ومقر الفيلق عبر هور الشويكة، والمشكلة بين مقر قيادة الفيلق ومقرات فرقه. وبينت له بوضوح أنّ آمر كتيبتنا يعد بإنجاز أمور من المحال تنفيذها.

بعد يومين من تلك المكالمة، وصلتنا سيارة ومعها سائق من سريتي السابقة "الإدامة والتشغيل" لإعادتي إلى الكتيبة. كان الأمر غريباً، اذ لم تسحب مفرزة العمل من جانب، ولم يلتحق ضابط آخر بدلاً عني من جانب آخر، فثارت في نفسي الشكوك. وفي طريق العودة، كان السائق يبدي ألماً وأسفاً واضحاً طيلة الوقت، ثم كشف لي أنّ كتاب نقلي قد صدر من الكتيبة لكنه لا يعرف إلى أين! وصلنا بغدد ليلاً، وقضيت الليلة في بيتي على أن يعود السائق ليأخذني في الصباح إلى الكتيبة، وحال وصولي إلى هناك صباح اليوم التالي، اتضحت تفاصيل المؤامرة، فبناء على طلب آمر الكتيبة، فقد صدر عن آمرية مخابرة المقر العام كتاب نقلي فوراً إلى سرية مقر ومخابرة لواء مغاوير الثاني الفيلق الثاني دون بديل!

اخذت كتاب نقلي، وذهبت مباشرة إلى عميد أياد في مديرية المخابرة، واخبرته أن ما جرى هو بسبب كشفي الحقيقة له، مؤكداً له أني نقلت غلى الكتيبة السلكية بموجب أمر القائد العام للقوات المسلحة بتبديل الضباط. وأبدى أسفاً عميقًا، ووعد بمساعدتي للخروج من هذا المأزق لاسيما وأني قد نقلت منذ أقل من عامين من وحدات الجبهة.

وابتدأت صفحة جديدة في مسيرتي مع قادسية صدام، كان صراع بقاء أو موت لأنه لا يوجد أي أمل في الأفق بنهاية قريبة للحرب .

***

عجائب في لواء المغاوير

التحقت بمقر لواء المغاوير الثاني الفيلق الثاني في مقره ببردي علي، شرق قره تو، المنطقة التي عسكر فيها لواؤنا قبل 6 أعوام. أعرف قاطع اللواء كما أعرف مدينتي، بل وأعرف مواقع العدو قبالته. في لواء المغاوير كانت القصة جميلة لكنها مختلفة.

مذ وطأت قدمي ارض مقر اللواء المتواري بين القمم والتلال الصخرية، شعرت في أعماقي أني لن أبقى في هذه الوحدة فترة طويلة، بل شعرت أنني لن يتاح لي حتى التعرف على العاملين فيها بشكل واضح، وكان هذا الشعور يثلج صدري.

وحدات المغاوير هي تطوير عراقي لوحدات الصاعقة المصرية الخفيفة التي اختصت بعمليات تطهير المدن والقتال في المناطق المبنية، أما النسخة العراقية وهي قوات المغاوير فقد اختصت بالمعمل في المناطق الجبلية، لذا فإن سرايا المغاوير قد جمعت في الفيالق الأول والثاني والخامس وشُكلت منها في عام 1984 ألوية مغاوير خفيفة بملاكات مؤقتة، لتبقى احتياطياً في تلك الفيالق، لكنّ ظروف الحرب المتطاولة في قادسية صدام نزعت عن وحدات المغاوير خاصيتها الأولى وهي التفرغ للتدريب والعمل كقوات ضربة سريعة، فباتت نسخة من وحدات المشاة الجبلي بإمكانات أكثر تواضعا.

وضعف دور وحدات المغاوير حتى باتت منفى للعسكريين المغضوب عليهم والمراقبين أمنياً والذين لديهم ملفات جنائية، وبهذا فإنّ قيادات الفيالق باتت لا تهتم بهذه التشكيلات، وتعاملها على أنها وحدات مشاة ضعيفة القوة فقيرة التجهيز، غير قادرة على المناورة، لا تفيد إلا في واجبات مسك الأرض في المناطق الجبلية الأقل تعرضاً لهجمات العدو بسبب وعورة الأرض وسوء الجغرافيا.

شعرت بهذا حال أن سلمت كتابي، فقد اشتكى آمر اللواء العقيد عبد الصاحب، من نقص مزمن في كل شيء، حتى في ضباط الركن، إذ يخلو مقر اللواء من أي ضابط يحمل شارة الركن الحمراء! وهذا نادر جداً في وحدات الجيش القتالية اليوم.

تلك الليلة، التقيت بالرائد.غ.م.غ، وهو ضابط المخابرة الأقدم في اللواء والذي صدر أمر نقله قبل سنة كاملة، لكن لم ينسب بديل له، لذا ترفض إدارة اللواء وإدارة الفيلق منحه انفكاكاً ليلتحق بكتيبة المواصلات المواجهة ومقرها الراشدية في بغداد وهي من وحدات آمرية مخابرة المقر العام. وحين رآني قادماً من وحدات المقر العالم فرح وامتلأ غبطة لم يستطع اخفائها وفي ظنه أني بديل له، ولكني خيبت أمله بقولي أني لست بديلاً له، لأنّ كتابي لم يشر إليه، وبالتالي فإنّ نقلي ما زال غير نهائي. وأصيب الرجل بخيبة أمل واضحة فبقي يتكلم عن حظه العاثر، وبقيت أفكر مع نفسي في السبب الحقيقي الذي يعيق نقله إلى

وحدات المقر العام، ورجحت أنّه يتعلق بعروق في أسرته سرى عليها قرار ترحيل التبعيات، لاسيما أنه من سكنة قرى مدينة مندلي المختلطة (عرباً وتركماناً وكرداً فيليه).

في الفطور الصباحي في اليوم الثاني، سألني آمر اللواء بصراحة إن كنت استطيع إكمال ملاكات اللواء من أجهزة المخابرة والهواتف والسيارات. فأجبته بالإيجاب بحكم علاقاتي بوحدات المقر العام، وأخذ الحضور يتندرون حول قدرات اللواء المحدودة إلى درجة لا تصدق، كاشفين أنهم يستخدمون سيارات مدنية تعود للجنود والمنتسبين لخدمة اللواء بالارتباط مع المقر الخلفي ومقر الفيلق.

قضيت الأسبوع الأول، متجولاً في مقر اللواء، وزائراً لأفواجه ومراصده، ونائماً في غرفة الرائد غ الذي ذهب في إجازة، ولم استلم من الضابط الإداري بدلة المغاوير المرقطة التي يعشقها كثيرون، وأبلغته أنّي أفضّل البقاء ببدلتي الزيتونية لشعوري بأني طارئ على اللواء ولن أطيل فيه المكث، وضحك كثيرون لكلامي، ولكني كنت مقتنعاً تماماً أن الأمر لن يطول.

اطلعت على معدات مخابرة اللواء، فوجدتها ناقصة بشكل فضيع ولا تليق بفوج مشاة حدث ولا حرج عن مقر لواء! وما برح آمر اللواء أن أرسل في طلبي إلى مكتبه، وجلسنا نرشف الشاي ويسألني عن وضع معدات المخابرة في مقر اللواء، فأبلغته أنّ الموقف فضيع ولا يصدق، وسألني إلى أي حد يمكنني تعويض النقص، فكشفت له أني بحاجة إلى أن اذهب في مأمورية رسمية بكتاب معنون إلى آمرية مخابرة المقر العام، وبوسعنا أن نخاطبهم مباشرة لأننا مرتبطون بالفيلق مباشرة، الكتاب يجب أن يحتوي طلبا بعدد من المواد، وأن الأمر لا يمكن أن يتم في زيارة واحدة، بل في عدة زيارات، ويجب أن أبقي الخط الهاتفي مفتوحاً معه لأتجاوز روتين سلسلة المراتب والوحدات. وافق الرجل على ذلك وأبلغني بالذهب في مأمورية مفتوحة منذ الغد.

صبيحة اليوم التالي أمليت على قلم اللواء نص الكتاب المطلوب، ومررته إلى آمر اللواء للتوقيع، ثم أخذني أحد نواب الضباط من مقر اللواء بسيارته الخاصة إلى بغداد، لعدم توفر سيارات عسكرية !

وبحكم عملي في بغداد تطورت علاقاتي خلال أقل من عامين مع الجنرالات في وحدات المقر العام خاصة، وفي وزارة الدفاع، فتمكنت أن انتزع في أول زيارة مجموعة معدات مخابرة، مع شاحنة مرسيدس 2 طن جديدة لمد الخطوط. شملت معدات المخابرة، بدالة 194 روسية بسعة 40 خطاً جديدة، لم يكن يملكها مقر اللواء، بل ربط المخابرون بدالتي ميدان سعة 10 خط لتأمين السابلة، وهو حل فقير.

كما جئت للواء ب 20 بكرة أسلاك ميدان روسية D10، وهذا يعني 10 كيلومترات، علاوة على 10 هواتف ميدان منوعة بين تلمت وبين أريكسون الجديدة. إضافة الى مجموعة معدات مخابرة بينها قاطعات سلكية وعجلات مد ميداني، و ومولدات شحن نضائد قياس 1 كيلو واط، ومولد هوندا لتوليد الكهرباء سعة 5 كيلو واط، وأشرطة لاصقة لتصليح الخطوط، و10 كابلات ميدان روسية رباعية بما يؤمن 3 كيلومترات، ومعدات مستودع الشحن كاملة من دوارق وأجهزة تقطير وحوامض وعدد كبير من بطاريات نيكل كادميوم الخاصة بالأجهزة اللاسلكية الروسية وعشرات النضائد الجافة من الحجم الكبير والمتوسط المستخدمة في الهواتف.

بعد يومين صدر أمر صرف كل هذه المواد، وأخذته بيدي، واتصلت عبر بدالة الدفاع وفيها عمال البدالة الذين كنت بالأمس آمرهم، فأوصلوني بلا عناء ببدالة مقر اللواء لأكلم آمر اللواء مباشرة. وحين اخبرته بكل المواد المصروفة ضحك بفتور وقال، نعم هذا مفيد، ولكن متى يتم الصرف، إنه يتطاول أعواما أحياناً؟

اجبته أن الصرف فوري والمواد مكدسة في المستودعات، ورجوته أن يرسل لي في الغداة، نائب الضابط الآلي لاستلام السيارة، ومسؤول مستودع المخابرة وجنديين ومعهم مستندات التسلم والتسليم بالنموذج 102، موقّعة من آمر الوحدة والضابط الإداري ومختومة. لم يصدق العقيد عبد الصاحب ما قلته له، فعرض أنه سيرسل مع هذه المجموعة الضابط الإداري ليتم الاستلام، وشكرته على هذا الفضل، ثم طلبت منه أن يرسل لي مع الضابط الإداري بضع بدلات قوات خاصة من قياس كبير، كهدايا إلى منتسبي المستودعات والمقرات التي تساعدنا في التجهيز(وهذا نهج متداول في الجيش لاسيما أن بدلات القوات الخاصة موجودة في وحدات القوات الخاصة والمغاوير حصرا) ثم أضفت، أن علي البقاء في بغداد، للحصول على مزيد من المواد والآليات.

انجزت إرسال الوجبة كاملة خلال أسبوع، وبقيت في بغداد في مهمة عمل مفتوحة لحين تأمين باقي المواد والآليات. هذه المهمة اتاحت لي أن اتحرك للحصول على أمر نقل جديد لي إلى خارج لواء المغاوير، مستنداً إلى أنّ كتاب نقلي الأول إلى كتيبة المواصلات السلكية وهو أمر القائد العام للقوات المسلحة الذي نص على أن يقضي المنقولون من وإلى وحدات الجبهة نفس المدة التي قضوها في وحدات الجبهة، وبما أني عملت في لمش 23 اربع سنوات ونصف، فكان من حقي أن أقضي نفس المدة في المقر العام.

وتحركت القضية، وبقيت أتابعها، واتابع تجهيز لواء المغاوير الفقير بمعدات مخابرة، فحصلت على ست محطات محمولة في عجلات جديدة، كما استطعت أن استصدر أمر نقل 20 جندي مخابر من معين مديرية المخابرة إلى مقر اللواء لتوزيعهم على وحداته، واستغرق كل ذلك نحو شهرين قضيت أغلبها في بغداد، وبعض الليالي في مقر اللواء

بمنطقة بردي علي وكان العام 1986 يشارف على نهايته، حين صدر أمر نقلي من سرية مقر ومخابرة لواء المغاوير الثاني الفيلق الثاني إلى كتيبة مخابرة الفيلق الثاني.

وعدت إلى اللواء بعد أن تيقنت من صدور الكتاب، وقد جلبت معي محطة لاسلكية محمولة على عجلة لاندروفر، وهي جهاز جاكوار للقفز العشوائي المرافق لأمر اللواء ويؤمن له الاتصال بشبكة قائد الفيلق باعتبار اللواء احتياطي الفيلق المباشر. لم يصدق آمر اللواء حين اوقفت السيارة أمام مقره، وطلع يتطلع إلى السيارة الجديدة والجهاز المتطور المنصوب فيها، ثم سألني من يتقن العمل على هذا الجهاز، فأبلغته بضرورة ارسال نائب ضابط مأمور المحطة وثلاثة جنود إلى كتيبة تدريب المخابرة في بغداد لتدريبهم على العمل عليه ونصبه. فوجه بأن انتخب من أريد واصدر لهم كتابا وألحقهم فورا إلى الكتيبة المذكورة. وهذا ما كان، وأخفيت عنه صدور أمر نقلي بانتظار أن يصل الكتاب إلى مقر اللواء.

في تلك الليلة، ونحن نأوي إلى النوم، تشكى الرائد غ. متأوهاً وهو يقول "إجلس في مكانك يا أخي، سيأتي كتاب يؤكد أنك بديلي ليلحقني آمر اللواء، لقد أرسل اللواء كتاب استيضاح إلى الفيلق بهذا الشأن". ضحكت ولم أتمالك نفسي من اخباره بصدور كتاب نقلي، ولم يصدق كلامي واعتبره نوعاً من المبالغة.

بعد خمسة أيام وصل كتاب نقلي، وأبلغني نواب ضبط قلم اللواء الذين باتوا أصدقاء لي بوصول كتاب النقل مبدين أسفهم أن اللواء سيفقد أنشط ضابط فيه بهذه السرعة! تلك الليلة طلبني آمر اللواء إلى مكتبه، وأبلغني بوصول الكتاب، وأبلغني امتنانه الشديد لكل ما فعلته، معرباً عن أسفه بأني سأرحل عنهم سريعا، ولكنه عاد وكرر العبارة الخالدة في الجيش بالقول إنه يؤمن "أنّ الجيش لا يقف على شخص بعينه" بمعنى لا يوجد شخص لا يمكن الاستغناء عنه، وهذه أجمل عبارة سمعتها منه لأنها تعني أنّه سوف يلحقني دون خلق مشكلات من نوع المطالبة بالبديل وما إلى ذلك.

في اليوم التالي وقع آمر اللواء أمر انفكاكي، وقدم لي باسم اللواء هدية ثمينة هي عبارة عن طاقم معدات مكتب أنيق جلدي غالي الثمن. وأخذت الهدية وكتاب النقل رافضاً منحي إجازة أعود بعدها لاستلام كتاب النقل، وابلغته أني أفضل الانفكاك تواً دون إجازة، وهذا ما كان. في 26.12.1986 اخذت كتاب انفكاكي من لواء المغاوير بعد شهرين بالضبط من تاريخ التحاقي به. والمصادفة أنّ ذلك اليوم كان ذكرى مولدي الثانية والثلاثين.

***

عودة إلى حضن المخابرة الدافئ

عـدت للعمـل فـي وحـدات المخـابرة والفـرق شاسـع بينهـا وبـين وحـدات القـوات المقاتلـة. التحديات والمخاطر هنا أقل بكثير، ومحيط العمل أقل عرضـة للدسـائس والمؤامرات، وهنـا يَشعُر العسكري أنه يعمل بين أهله من أبناء صنفه.

كتيبـة مخـابرة الفيلـق الثـاني فـي عـام 1987 كـان مقرهـا فـي معسـكر المنصـورية شـمال المقدادية على سفوح منطقة الصدور ومقالع الحصـى فيهـا. المعسكر بالأصـل هو مقر لـواء المشاة 19 الذي كان آمره الزعيم الركن عبد الكريم قاسم، ومن هذا المعسكر تحـرك اللـواء 19 باتجاه بغداد وقام بالانقلاب العسكري على سلطة الملك.

هالني أنّ الكتيبة في الحقيقة لا تملك مقراً واضحاً ولا منشآت حقيقية في هذا المكـان بـل هـي عبارة عن بضعة مبانٍ فقيرة بسقوف من الصفيح المضلع، منتشرة على طول سياج "بـي آر سـي" يحـدد مركـز تـدريب مشـاة المنصـورية. ولا توجـد فيهـا سـاحة تـدريب "عرضـات"، والكراجات والمستودعات بعيدة على مرتفعات حمرين، ومقر الكتيبة وبهو الضباط، يقع فـي بناية قديمة كانت من منشآت اللواء 19.

الكتيبة لا تجتمـع فـي أي وقت بسبب عدم امتلاكهـا لمقر واضـح الملامـح متقـارب المبـاني، وتنظيمهـا هـو السـرية الأولـى للاتصـالات اللاسـلكية، السـرية الثانيـة الاتصـالات السـلكية، السرية الثالثة للمجسات الجوية (مفارز تـؤمن الاتصـال بين الوحـدات المدرعـة والمشـاة مـع الطائرات)، وسرية المقر التي تتولى الأعمال المركزية في الكتيبة. وابلغني آمر الكتيبـة بعد أن التقيته في مكتبه، بتنسيبي إلى السرية الثالثة التي فيها ضابط واحد هو آمرها فحسب بعد أن نقل منها معاونه.

مقـر السـرية الثالثـة مشـتملان، أحـدهما حـديث البنـاء نسـبياً لكنـه بنـاء نفـذه جنـود، ومسـقف بالصفيح المضلع، وفيه يقيم آمر السرية، ومقابلـه تمامـاً عبر طارمـة صـغيرة، مشتمل قديم البناء، مسقف بالصفيح المضلع، أقمت فيه كمعاون لأمر السرية، والمشتمل هنـا، هو غرفـة مكتـب كبيـرة، ملحـق بهـا غرفـة نـوم صـغيرة، وحمـام ومرافـق صـحية، إضـافة إلـى مطـبخ صـغير يعـود لآمـر السـرية. آمـر السـرية وهـو برتبـة نقيـب، صـغير الجسـم، حليـق الشـارب (وهذا نادر جدا في وسط الضباط)، ومن أهل الأعظمية. ومـا أن التقـاني حتـى أكـد لـي أنـي نُسبت إلى سريته بناء على طلبه من الآمر، نظراً لأنـه ينتظـر صـدور أمـر نقلـه إلـى مديريـة الاستخبارات العسكرية، بعد أن أتم دورة الاستخبارات الأساسية البالغة 3 أشهر. وهذا يعني أنّه سيغير صنفه العسكري من مخابرة إلى استخبارات. وسألني متى أترفع إلى رتبة نقيب، فأخبرته اني سأترفع بعد 4 اشهر، وتهللت أساريره، وقال منشرحا "هذا يعنـي أنـك ستستلم

السرية مني بعد نقلي، وهذا عين الطلب، ولن أسمح لأحد أن ينقلك من هنا. وهكذا كان. والمفارقة انّ ما جرى معي في كتيبة المواصلات السلكية بتبديل آمر السرية تشابه إلى حد كبير مع ما جرى لي في كتيبة مخابرة الفيلق الثاني، وفي الحالتين غيّر الضابطين الذين حللت محلهما صنفهم إلى استخبارات ونقلوا إلى مديرية الاستخبارات العامة.

وتبين لي أن عملي في السرية تنظيمي بحت، لأن 90 بالمائة من المجسات الجوية التي بذمة السرية مفتوحة مع مخابريها كمحطات اسناد في ألوية المشاة والدروع التابعة للفرق التي بأمرة الفيلق الثاني. وما لدي في مقر السرية الثالثة هو 10 مجسات احتياطية، مع نضائدها، ونحو 30 مخابراً، بين جندي ونائب ضابط. وهكذا قضيت أيامي الأولى في السرية خارجاً كل يوم إلى فسحة التدريب الصغيرة أمام ثكنة جنود السرية الثالثة ومستودع وقلم السرية، لأتابع صيانتهم للمعدات، وإعادة التدريب اليومي عليها، وتدريبات البندقية التي تجري مرة إلى مرتين في الأسبوع.

ثم عرفت أن آمر السرية هو ضابط أمن الكتيبة، ورفيق حزبي، لذا فإنّ مسؤوليته متنوعة متعددة، وترك أغلب عمل السرية لي، فتوليت انجاز البريد وتغيير المحطات، وتغيير الترددات والكلمات الشفرية شهريا. أحيانا كنت أخرج لزيارة وتفتيش محطات المجس الجوي التابعة لنا في الفرق والفيالق.

وكرت الأيام على هذا المنوال، والعمل مريح ولا ضغوط فيه. أغلب منتسبي الكتيبة وضباطها من منطقة ديالى وبغداد، لهذا تشهد نهاية الأسبوع دائماً انخفاضاً في الموجود، أما آمر سريتي، فكانت عنده عشيقة في منطقة السعدية التي تبعد عنّا نحو 30 كم، وبعد العاشرة من كل ليلة يذهب إليها، وغالباً ما يبقى عندها حتى الفجر، ليعود قبل الخروج إلى ميدان التدريب ويقضي الضحى بالنوم.

وسرعان ما التفت إلى حقيقة أنّ كل العمل يقع على عاتقي، فبات يتيح لي في بعض أيام الخميس أن أذهب إلى بيتي في بغداد واقضي الليلة هناك لأعود صبيحة الجمعة، وكانت له كلمة مسموعة لدى آمر الكتيبة. هذا طبعا لم يكن يؤثر على الإجازات الدورية، التي نستحقها لمدة اسبوع بعد قضاء 24 يوما في الوحدة.

في 7 نيسان 1987 ترفعت إلى رتبة نقيب، متقدماً على أبناء دورتي سنة كاملة، وابتهج النقيب ج. وهو يرى ترفيعي، وأخبرني أن نقله سيصدر هذا الشهر، وبالفعل وقبل انقضاء شهر نيسان صدر أمر تغيير صنفه ونقله إلى مديرية الاستخبارات العسكرية العامة، وتوليت بأمر رسمي منصب آمر السرية، كما نُسب إلى سريتي ضابط ملازم أول من دورات الرفاق، ليساعدني في العمل، فيما يتولى الرائد المهندس ن. أمرة السرية أثناء غيابي لأغراض الإجازات الدورية.

مسدس 9 ملم طارق عراقي

وما أن نلت الترفيع، حتى شملتني خفارة غرفة عمليات الفيلق. وللتوضيح فإنّ غرفة العمليات تضم هيئة ركن الفيلق مع آمري الصنوف كافة، ويحضرون إلى غرفة العمليات في واجبات محددة وتوقيتات محددة، ويتولى قيادة غرفة عمليات الفيلق رئيس أركان الفيلق، وكان اللواء الركن صلاح عبود هو من يشغل هذا المنصب. ويقوم كل ضابط ركن بواجب الخفارة حسب جدول خفاراتهم، ويتولى معه الخفارة، ضابط مخابرة برتبة لا تقل عن نقيب، وضابط مدفعية برتبة لا تقل عن نقيب، وضابط أمن يتولى مهام الأمن وآمر سرية الانضباط، ويتناوب على الخفارة ضباط أمن الوحدات الملحقة بالفيلق. واجب ضابط المخابرة هو استلام المواقف والرسائل السرية العجلة التي تفد مقرات الفرق المرتبطة بالفيلق، وإرسالها إلى ضابط الركن الخفير، ثم يتولى إرسال الموقف المسائي والصباحي للفيلق إلى وزارة الدفاع. الواجب بسيط لكن لا يحق للضابط الخفر ارتداء ملابس النوم، ولا يحق له ترك غرفة الخفارة حتى يأتي بديله، بعد ظهر اليوم التالي. وبسبب قلة واجباتي، انيطت بي مهام الخفارة مرتين في الأسبوع وأحيانا ثلاث مرات.

ثم صدر أمر انتقال كتيبتنا إلى ثكنة جديد وهي مقر الفوج الأول لواء المشاة 19 الذي صدر أمر انتقاله نهائيا من مقره الدائم، وسلمت ثكناته بالكامل خالية لنا.

الثكنة الجديدة تطل على جبال حمرين في الطرف الشمالي من معسكر المنصورية، وبدأنا نوبة بناء وأعداد وانتقال متدرج، ولم يكن العمل صعباً لأنّ قاعات نوم جنود كثيرة ثابتة كانت جاهزة وخالية، ولم يستغرق تأهيلها للسكن سوى بعض الجهود، ثم بنينا بهواً صغيراً للضباط، وجناحاً متواضعاً لأمر الكتيبة، وغرفة لي وغرفة للضابط الإداري، فيما بقي كل ضباط السرية الثانية في مقر السرية القديم قرب بدالة الفيلق. وما أن استقر بنا المقام في المقر الجديد، حتى صدر أمر نقل آمر كتيبتنا والتحق بدلاً عنه العميد عبد الرزاق، وهو من ضباط مديرية المخابرة، وحال التحاقه لمنصبه، صدر أمر نقل قائد الفيلق، والتحق بدلاً عنه اللواء الركن يالجين عمر عادل. ثم التحق بمنصب مساعد كتيبتنا الرائد حسين (وهو من أقارب قائد الفيلق)، وهكذا بات آمر الكتيبة ومساعده ضباطاً جدد.

آمر الكتيبة كان مولعاً بالفخامة والبناء الأنيق، لذا صمم وأشرف على تنفيذ جناح خاص بمقره، كما نفذ بهو ومطعم ضباط يليق بقيادة فرقة وليس بكتيبة! واستغرق العمل بعض الوقت لإعداده. ثم استقر الوضع على ما بات عليه، وصرت أتولى منصب مساعد الكتيبة وكالة حين يذهب الرائد حسين في إجازته الدورية، وهو أمر أثار حسد كثير من الضباط الدائميين لأنهم يعتبرون أنفسهم أولى بهذا المنصب من ضابط احتياط.

***

في خيمة على تلول إمام ويس

كان واجباً غامضاً، فقد ابلغت فوراً أن اخرج بمحطة راديو ريلي ايطالي إلى قاطع إمام ويس، قاطع فرقة المشاة 16 ، وأن أرابط بالمحطة في التلول المطلة على سلسلة جبال سانوبة وامتداداتها شمالاً، وذلك خلف امتداد الخط النحاسي الخاص بالفرقة.

خيمة في لا مكان، الجبهة بعيدة عني بما يؤمن عدم سقوط قذائف مدفعية الميدان ولا صواريخ راجمات المعادية على محطتنا، في المحطة نائب عريف مخابر، وجندي مخابر وسائق في سيارة لاندروفر حديثة . المحطة وطائفتها ضيف علينا من الفرقة 22. كان واجبي أن أحافظ على المحطة مشتغلة بشكل دائم، رغم أنّ الشبكة المرتبطة على تلك المحطة بقيت مجهولة غائبة، لكني أبلغت بشكل شخصي من ضابط الركن الثاني استخبارات الفيلق أنّها شبكة القيادة العامة للقوات المسلحة. بقيت في الواجب 20 يوما، كان الربيع في آخره بشهر أيار/ مايو 1987. والمزعج في كل الواجب، أنّ أيّ سابلة مواصلات لم تمر على المحطة، وبقينا مرتبطين بما يسمى شبكة القيادة العامة للقوات المسلحة، دون أن نمرر حتى مكالمة واحدة. وبدأت أشك أن الواجب هو عبارة عن محطة مخادعة توهم العدو أنّ فرقة مشاة قد دخلت القاطع، لأنّ كل فرقة مشاة ترافقها عادة محطة راديو ريلي سويدية أو ايطالية. كنّا نفحص المحطة على رأس كل ساعة مع محطة تابعة للقيادة العامة ومقرها في الفيلق الثاني، ولا أكثر من ذلك.

تطاولت الأيام، وباتت رياح المنطقة الصحراوية الحارة تهب علينا في ظهاري ذلك الربيع فتحيل الخيمة جحيماً يتلظى في سعير شمس العراق، وحتى في الليل، فإنّ حرارة الأرض كانت تجعل الخيمة قطعة من الجحيم. وكنت أقضي الصباحات قبل أن ترتفع شمس الربيع لتستعير من القيظ بضع ساعات تحيل حياتنا جحيماً في التجول بالمنطقة، فأخرج عبر تلك التلال المقفرة الحصباء سائراً لمسافات طويلة بمحاذات الخط النحاسي الذي يغذي فرق القاطع.

لا نهير ولا جدول ولا حتى ساقية في هذا القفر، التلال الحجرية ثقّبها الحر، فبانت فيها حفر تتخذها الأفاعي والأرائل والعقارب والثعالب جحوراً لها. كنت اصطحب معي بندقية وأقضي جزءا من الوقت في تصيد الأرائل والأفاعي، ثم يدبّ الملل في صدري، وفي أوصالي، فأقفل راجعاً إلى الخيمة التعيسة، وأقضي الساعات في قراءة كتاب.

محطة الراديو فيها مكيّف ذو قدرة تبريد عالية الكفاءة، وكنت أنا وأعداد الطائفة نتناوب على النوم في السيارة للتمتع بالبرد. أما الجبهة فكانت غالباً هادئة، سوى عن بعض القصف هنا وهناك يتراءى ويسمع من بعيد.

رتابة اليوم تقطعها سيارة الأرزاق التي تأتي لنا بوجبتي الغداء والعشاء بتوقيت واحد، مع بعض مشتريات الحانوت.

وذات يوم كلمت معاون آمر الكتيبة عن استحقاقي للإجازة الدورية، وضرورة إرسال ضابط بديل عني يبقى مع المحطة. وبعد يومين جرى استبدالي، فنزلت إلى الكتيبة، وأخذت دوشاً بارداً، ونزلت في زيارة خاطفة إلى بيتي في بغداد بعد أن أبلغوني أنّ الإجازات مقطوعة، وعليّ الانتظار.

وهكذا رجعت من البيت صبيحة اليوم التالي، وذهبت مباشرة إلى ساحة العرضات، لأقدم الكتيبة إلى المعاون، وأتولى وظيفة مساعد الكتيبة أثناء غيابه.

بعد اسبوع أصبت بنزلة صدرية حادة، وصارت تنتابني نوبات سعالٍ شديدة. أخذت عيادة طبية وذهبت إلى مستشفى المنصورية العسكري، وشخصوها بنزلة صدرية وبرد، وصرفوا لي مضادات حيوية وشراب للسعال. لكنّ ذلك لم يجد، وبقيت أسعل طيلة الليل وتنتابني نوبات حمى عالية، وقلت شهيتي للطعام، وتثاقلت حركتي، وهكذا سجلت عيادة مرة أخرى، وذهبت إلى المستشفى مرة أخرى، فأجروا تحليلاً لدمي، وقرروا بسرعة أني قد أكون مصابا بذات الرئة، لذا قرروا ضرورة رقودي في المشفى تحت المراقبة والعناية حتى تتضح حالتي. وبعد أيام، قرروا ضرورة انتقالي إلى مستشفى الرشيد العسكري، ونقلتني سيارة اسعاف بسرعة إلى المشفى، وحال أن رآني الطبيب واسمه المقدم كاظم، حتى قرر أنني مصاب بذات الرئة pneumonia ، ووضعوني في غرفة لوحدي، وبدأوا بعلاجي.

30 حقنة في اليوم من " امبيكلوكس" وهو مضاد حيوي قوي للغاية، علاوة على مضادات أخرى متباينة القوة، بمعدل ست حقن توضع كلها في سرنجة عملاقة وتزرق في الوريد خمس مرات في اليوم. تورمت أوردتي وبات جسدي مبقّعاً باللون الأزرق في كل مكان، وصار يترتب عليهم حين البحث عن وريد سليم أن يزرقون في رقبتي، فباتت عروق رقبتي زرقاء معتمة بالكامل.

شيئاً فشيئاً بدأت الحمى تفارقني، وصارت شهيتي للطعام تتحسن، بعد أن فقدت 15 كيلوغراماً من وزني خلال أسبوعين!

أعربت للطبيب المعالج عن مخاوفي في أن يكون الداء هو السل الرئوي، فابتسم مؤكدا "السل الرئوي اليوم مرض غير مميت، أما ذات الرئة الذي أنت مصاب به فهو مرض قد يقود إلى الموت في أقل من 4 أسابيع".

بقيت تحت العلاج في المستشفى لمدة 25 يوماً، تشبّع بها جسدي بالمضادات الحيوية، وضعفت قدرتي البدنية إلى حد كبير، ثم منحوني إجازة لمدة شهر، مؤكدين علي فيها بحسن التغذية.

وتطاولت مدة العلاج ومرحلة الاستشفاء بعده إلى 3 أشهر، وحين عدت بعدها إلى كتيبة مخابرة الفيلق الثاني في المنصورية وجدت آمر الكتيبة قد تغير، كما تغير منصبي من آمر السرية الثالثة إلى آمر سرية المقر، لتقليل الجهد عليّ باعتباري قد خرجت من مرض مميت.

في هذه المرحلة، باتت واجباتي تقتصر على خفارة غرفة عمليات الفيلق، أو خفارات الكتيبة، علاوة على الإشراف على تدريب الكتيبة، لمدة ساعتين لخمس صباحات في الأسبوع.

***

على راقم في ميمك إبان معارك التحرير

انقضى عام 1987 بتدريبات وخطط مخادعة سوقية كبرى، كانت مرحلة جديدة تتشكل في جبهة الحرب منذ الصيف، فمشكلة الفاو تتفاقم والمخاوف قائمة، لكن حرب الناقلات في مياه الخليج بدأت تضغط على الجانب الإيراني إلى حد كبير.

بعد أقل من عام على إصابتي بذات الرئة، ومنذ مطلع شهر نيسان/ أبريل عام 1988 انطلقت خطة مخادعة القيادة العامة للقوات المسلحة، ونشطت عمليات التحشيد وتحريك القطعات في كل قواطع العمليات.

وبحكم وظيفتي شاركتُ فيها غالباً من مركز المخابرة في غرفة عمليات الفيلق الثاني بحكم خفاراتي المتكررة هناك، كما بت أتولى مراراً منصب مساعد الكتيبة وكالة ما أورثني مشكلات كثيرة مع الضباط الزملاء.

في يوم 16 نيسان/ أبريل 1988، كُلفت بواجب تنفيذ خطة مخادعة القيادة العامة للقوات المسلحة، وهي خطة تشمل كل قواطع العمليات بانتظار هجوم سوقي كبير ما زال محوره غير معروف.

شملت الخطة توزيع 3 محطات VHF على ثلاث فرق، في أفواج متقدمة من ألوية الفرق، مع أعدادها من مخابرين ونضائد وتعليمات مخابرة. وتشمل التعليمات تبادل رسائل على شبكة قيادة بديلة وأغلبها برموز اعتادت القطعات على تداولها أثناء العمليات الكبرى، وأصبحت مكشوفة لأجهزة تنصت العدو، ومن بينها:

"النسر الكبير يطلب حركة كل الذئاب" (بمعنى آمر اللواء أو قائد الفرقة يطلب تحريك قطعات الصولة)

"أين الأفيال، متى تصلنا؟" (بمعنى أين شاحنات النقل والتموين التي تنقل القطعات؟)

"الحدايد يجب أن توضع في المقدمة فوراً" (بمعنى يجب تقديم الدبابات فورا)

"أبو علي يقول سلموا على الأصدقاء" (بمعنى عدنان خير الله يأمر بفتح نيران القصف التمهيدي).

أوصلت المحطة الأولى إلى لواء المغاوير الأول الفيلق الثاني ضمن قاطع الفرقة 21 على محور مخفر موسى الكاظم المقابل لقاطع سربل زهاب، وأشرفت على تشغيل المحطة تجريبياً.

ثم أوصلت المحطة الثانية إلى قاطع اللواء الذي يشغل قمة "سانوبه" ضمن قاطع الفرقة المشاة 16، ووضعتها في مقر الفوج الذي يشغل أعلى الرواقم.

ثم ومع الغروب تسلقت بسيارتي إحدى قمم جبل ميمك في قاطع الفرقة 22 التي تحمي مدينة مندلي، وترجلت في مدخل الفوج الأول من لواء 412، وأنزلت المحطة ومخابريها وأحدهم نائب ضابط والآخر نائب عريف. كان مقر الفوج خالياً بشكل مريب، اذ لم تنمعنا سيطرة الفوج من الدخول ولم تسألنا على الأقل عن وجهتنا، وثارت في نفسي شكوك من أن الوضع فيه خطورة لسبب ما. ثم بدأت أتسلّق مع المخابرين أحد الشقوق الصخرية لنصل إلى مرصد محكم يتربع على قمة تبدو مطلة على مواقع العدو بعد أن لاحظنا فيه حركة جنود.

بعد أن قطعنا بضع خطوات في تسلق الشق الوعر، صرخت قنبرة هاون 60 ملم أطلقت من مكان قريب لأني سمعت صوت انفلاقها بعد ثانية من سماعي صوت إطلاقها من موضع معادٍ. وتناثرت الشظايا والصخور فوقنا، فتمددنا سريعاً في أسفل الشق، ثم انتبهت إلى أني قد أصبت في ساعدي الأيمن، وبدأ الدم ينزف مثل نافورة من جرحي. كما أصيب نائب الضابط آمر المحطة واسمه مطشر في اصبعه الذي بدأ ينزف، وأصيب نائب العريف في ظهره وبدأ ينزف. قنبرة واحدة أصابت كل فريق الواجب! الغريب أنّ أياً من جنود أو ضباط الفوج لم يظهر ليهرع لنجدتنا، وبدأت أشك أنّ الفوج يشغل حقا هذا الموضع، لكنّ النزيف المستمر، وخطورة أن يتواصل القصف علينا لتسقيط الهدف، جعلتني اتخذ قرارا سريعا، فأبلغت المخابرين الذين معي أنّ علينا إخلاء أنفسنا مع جهاز الاتصال والنضائد وبنادق الجنود، لأنّه لا يوجد أحد حولنا ولا يظهر أحد من مراتب وضباط الفوج. ولفت نظري نائب ضابط مطشر إلى ضرورة أن نثبت إصابتنا لدى الفوج لتثبيتها في الموقف المسائي وإلا اعتبرنا لم ننفذ الواجب، لكنّ أحداً لم يظهر لنثبت عنده الإصابة.

واقترحت أن ننسحب باتجاه مدخل مقر الفوج حيث تركنا سيارتنا مع السائق، لعلنا نرى هناك أحداً من مراتب الفوج في سيطرة المدخل. وتنقّلنا بوضع قريب من الزحف، عبر الشقوق حتى وصلنا مدخل مقر الفوج، وهناك وجدنا ضابطاً برتبة ملازم وجندي، فدخلنا في ملجئهم، وسألت ماذا يجري ولماذا لا يظهر أحد في الفوج، فأجابني الضابط أنّ مقر الفوج تحت القصف منذ ساعتين، وقد دخل الجميع خنادق الرمي تحسباً من وقوع هجوم. فابلغته عن واجبنا، وسلمته كتاب المأمورية، وطلبت منه نشر وصول المحطة عندهم، وإدراج إصابتنا في المكان والوقت المحددين. وفيما انشغلنا بتضميد أنفسنا بالشاش المربوط إلى خوذنا، رفع الضابط الهاتف وكلم مساعد آمر الفوج لأن آمره كان في مأمورية بمقر اللواء، وشرح له إصابتنا، وبدأ يملي عليه المعلومات:

نتيجة القصف المعادي بالساعة 1800 من يوم 16 نيسان 1988 في قاطع عمليات مقر الفوج الأول من لواء 412 أصيبت محطة مخابرة من كتيبة مخابرة الفيلق الثاني، يرافقها النقيب ملهم علي غالب، وبإمرة نائب ضابط مطشر... ، والمخابر نائب عريف..، وقد جرح الثلاثة بقنبرة 60 ملم أطلقت من سفوح ميمك الواقعة تحت سيطرة قوات العدو. أثناء درجنا في الموقف، سقطت قنبرة أخرى على مقر الفوج، ما يدل على أنّ العدو قد خصص مدفع هاون لمشاغلة الفوج برمية كل عشرة دقائق.

ثم كشف الضابط بحياء أنّ الفوج ليس لديه عجلة إسعاف، أو أي عجلة أخرى، وعلينا أن نُخلي انفسنا بسيارتنا، وهذا ما فعلناه، وتحرك السائق بنا وهو مرعوب، بمنظر دمائنا، وما أن تحركت بنا السيارة، حتى سقطت قنبرة أخرى، أمامنا بنحو 50 مترا على حافة النيسم الترابي المحفور بين حافتين صخريتين، ما يعني أنّ العدو قد سجل سلفاً هذا النيسم كطريق إدامة للفوج، كما أن راصدهم يرى بشكل ما عجلتنا. أراد سائقنا أن يتوقف ليستتر، لكني صرختُ فيه آمراً أن يواصل السير بسرعة، فلن تسقط قنبرة أخرى إلا بعد أن ينجلي غبار القنبرة الأولى ليرى الراصد هدفه بوضوح، وخلال هذه الدقائق بدأنا نبتعد عن مدخل مقر الفوج المرصود، ثم توارينا في عطفة جبلية ما وبتنا بعد فترة قصيرة خارج مدى رؤية مرصد العدو.

بعد نحو نصف ساعة، أصبحنا خارج منطقة الرمي القريب لهاونات وأسلحة العدو المتوسطة. فوصلنا إلى سيطرة ميدان تعود للفرقة 22، وتوقفنا عندها، وسألت أحد عناصر الانضباط عن أقرب مركز إخلاء أو وحدة ميدان طبية تابعة للفرقة كي نخلي إليها أنفسنا، فقال إن المفرزة القريبة متقدمة ويستغرق الوصول اليها نحو ساعة في مسير جبلي معرض للقصف المستمر، والأفضل لنا أن نتجه إلى وحدة الميدان 22 في بلدروز وهم يتولون إسعافنا، والطريق لهم معبد ويستغرق أقل من ساعة.

وهكذا التزمنا الطريق الساحلي الشهير الذي يسير مع خط الحدود، وأخذنا نتبع لافتات الدلالة المنتشرة، حتى وصلنا الوحدة الطبية المشار إليها مع حلول الظلام.

ما إن ترجلنا حتى استقبلنا الكادر الطبي بحفاوة واهتمام، وبدأوا بمعالجتنا، وأرقدني طبيب برتبة نقيب على سرير عمليات في غرفة نظيفة مرتبة، وبدأ بتعقيم جرحي، ثم أخبرني أنّ الشظية التي اخترقت ساعدي، استقرت في نقطة قريبة من الجلد في الجهة الأخرى من الساعد، ولا بد من تصوير الإصابة. وهكذا وضعوا ساعدي أمام كاميرا أشعة رونتغن، وصوّروا الإصابة، ليخبرني الطبيب بابتسامة تعجب أنّ الشظية قد مرت بين عظمي الحافة الكعبرية للساعد والحافة الزندية للساعد، ولم تصب أياً منهما بأي خدش، وهذا مهم جداً، وبذلك يمكن للطبيب أن يستخرج الشظية من ساعدي دون عملية كبرى، وبمخدر موضعي بسيط.

وهكذا زرق ساعدي بإبرتي تخدير موضعي، ثم استخرج الشظية في دقيقتين بمشرط وملقط بسيطين، وخاط الجرح بغرزتين متصالبتين بمهارة. ثم أخبرني أنني بحاجة إلى استراحة، وسيحقنني بإبرة مهدئة ومنوّم بسيط ترسلني في نومة هانئة لبضع ساعات. طلبت منه التريث، وأعلنت رغبتي بلقاء ضابط أمن الوحدة، فذهب وجاءني ضابط برتبة نقيب لا يرتدي نقاب الأطباء رغم أنّه طبيب. وقدم نفسه لي بوصفه ضابط أمن الوحدة، فشرحت له مأموريتنا، وسألته عن المخابرين الذي معي وعن مستوى اصاباتهم، فأجابني أنّه قد جرى علاجهم، وسوف يرسلون في إجازة مرضية. ثم سلمته تعليمات محطتنا ومعها تفاصيل مكالمات وترددات خطة القيادة العامة للقوات المسلحة، التي يجب تنفيذها هذه الليلة. وطلبت منه أن ينتدب مأمورا برتبة ضابط أو نائب ضابط استخبارات، ويغلف الخطة بمغلف سري للغاية وشخصي، ويذهب بها فوراً إلى ضابط استخبارات الفيلق (العقيد الركن رعد)، ليبلغه بتفاصيل ما جرى كي يوعز بتخصيص محطة أخرى مع ضابط آخر لإتمام الواجب.

اهتم الرجل بشدة لتنفيذ طلبي، ووعدني أنّه سيرسل المطلوب فوراً وشكرني وغادر المكان. ثم جاءني الطبيب الذي عالجني، وزرقني إبرة فنمت مطمئنا بعدها ولم أشعر سوى أن ذراعي ثقيلة. بعد أكثر من ساعة استيقظت وسألت عن الطبيب الذي عالجني، فجاء وسألته عن الخطوة التالية وأجابني أنّ بوسعي الذهاب إلى البيت أذا كان قريباً، وعلي مراجعة أقرب مشفى عسكري يوم غد. سألته كيف أذهب، فقال خذ سيارة من كراج بلدروز على بعد بضع مئات من الأمتار عن وحدتهم.

في الساعة الثانية والنصف ليلاً، قرعت جرس بيتنا، ففتح أبي الباب، وحين شاهد بدلتي المرقطة وقد أغرقتها الدماء وساعدي يلفه ضماد كبير، علا صوته بشتم نظام الحكم، وقال غاضباً: "ليرسل صدام حسين أولاده للقتال، لماذا لا يموتون ويجرحون هم؟ لماذا يرسل أولادنا، هل أولادنا ارخص من أولاد سجودة؟". وخرجت على صوته أمي وزوجتي، وكان عليّ أن انهمك في تهدئتهم، وإدخالهم إلى البيت خشية أن تتحول اصابتي إلى كارثة سياسية تطفأ بيتنا الصغير إلى أبد!

في اليوم التالي، سمعت في أخبار الصباح باندلاع معارك تحرير الفاو، فأقلقني ذلك واتصلت بمقر الكتيبة وكلمت آمرنا، ورويت له ما جرى، فطمأنني أنّه قد أرسل النقيب محمد مع محطة لإتمام الواجب ليلة أمس (والمصادفة هي أنه نفس الضابط الذي اتم مهمتي في محطة الراديو الايطالي في العام الماضي)، وأخبرني أنهم قد أدرجوا إصابتي وأعداد المحطة في الموقف اليومي للكتيبة. ثم أردف ضاحكاً: "منذ قيام الحرب في عام 1980 أنت أول ضابط يجرح من منتسبي ك مخ فل2، هذا شرف كبير لنا ولك"!

وتسببت الإصابة في كيّ العصب الوحشي الذي يحرك الساعد، وتوقفت أصابع كفي عن الحركة لمدة 90 يوماً، وجرى علاجي بجلسات العلاج الفيزياوي بالمساج بشمع البارفين

في المستشفى الكوبي في العلوية، واستمرت إجازتي المرضية لمدة 4 أشهر، نلت بعدها الشفاء التام، لكن أنامل كفي الأيمن بقيت يصيبها الخدر في أيام البرد خاصة.

***

عمليات الضياء الخالد – آخر معارك الحرب

أغرب نهاية لحرب السنوات الثمان جاءت خلال مشاركتي في عمليات نفذتها قوات مجاهدي خلق عبر الحدود من محوري قصر شيرين وسربل زهاب. كانت الأرتال تحمل شعارات تتحدث عن "ثورة تنفذها قوات المعارضة الإيرانية لإسقاط حكم المعممين الذين أحالوا إيران إلى عزاء مظلم لا نهاية له".

عدت من إجازتي المرضية بعد شفاء ساعدي، وعودة الحركة لأصابعي. كانت معارك التحرير قد نجحت في استعادة كافة الأراضي العراقية التي احتلها العدو ابتداء من عام 1982، والتي لم تعلن القيادة العراقية قط عن سقوطها بيد الإيرانيين. بدأ مسلسل الانتصارات العراقية بمعركة تحرير الفاو، التي هزت بعنف قيادة العدو، عزز ذلك النصر حرب الناقلات في الخليج، والتعاون الاستخباري الغربي مع الاستخبارات العسكري العراقية بتسريب معلومات دقيقة عن تحركات قطعات العدو، وحشوده من خلال صور الأقمار الصناعية.

معارك القاطع الأوسط حررت السفوح المحتلة من مرتفعات سانوبه وميمك، ومداخل فتحة بمو في قاطع الفرقة 21 فيما استعادت قوات الفيلق الأول والفيلق الخامس شمالاً السيطرة على الرواقم العراقية المسيطرة في كردمند وكردكو وبنجوين وحاج عمران.

وبلغ الانهيار في صفوف قوات العدو أشده حتى بات الضباط الإداريون لوحدات الفرق العراقية في القاطع الأوسط، يتوغلون في العمق الإيراني ويعودون بمئات الأسرى وأعداد لانهاية لها من الدبابات والمدافع وقطع السلاح الخفيف.

معارك التحرير حققت بعض التوازن في أعداد الأسرى بين الجانبين، إذ تمكنت القوات العراقية في هذا العام من أسر أكثر من 20 ألف من القوات الإيرانية.

بعد أسبوعين من التحاقي بالكتيبة في نهاية تموز 1988، صارت أرتال لانهاية لها من الشاحنات الخفيفة المحمّلة بقوات المعارضة الإيرانية مجاهدي خلق تتدفق على قاطع الفيلق وتحتشد في وادي آلانه ومرتفعات دراوشكه وسفوح بردي علي الغربية بالقرب من قوره تو، استعدادا لعمل تعرضي واسع. ثم تدفقت ارتال من مدرعات جديدة من نوع بنهاردت البرازيلية المدولبة المزودة بمدفع 100 ملم وصارت تتحشد في قاطع الفيلق قرب مناطق تحشد القطعات الأخرى. كان هذا يجري فيما تتوغل وحدات من مشروع 888 وكتائب الاستطلاع العميق عبر ثغرات في الجبهة الإيرانية المتساقطة لتعود بأسرى ومعلومات مفصلة عن انتشار القطعات الايرانية وانهيار معنوياتها.

توّج كل ذلك إعلان خميني في 20 تموز/ يوليو موافقته على قرار مجلس الأمن 598 معتبراً ذلك حسب نص بيانه "في ظروف خاصة لمصلحة الثورة والإسلام، إننا نعلن رسمياً أن هدفنا ليس تكتيكاً جديداً لمواصلة الحرب. إنّ العدو لم يكف عن أعماله الشريرة، ويمكن أن يواصل أساليبه بالذرائع نفسها، وعلينا من أجل صد اعتداءات العدو المحتملة أن نكون مستعدين".

وختم خميني خطابه بعبارته الشهيرة" هذه القضية بالنسبة لي، قبول القرار كانت قضية مرة وغير مستساغة، أقبل القرار وكأنّي اتجرع كأس السم".

هذا الإعلان، كان القشة التي قصمت ظهر معنويات القوات الإيرانية، وقد باتت القوات النظامية مهيأة نفسياً للعودة إلى معسكراتها، فيما تراخت قوات البسيج والحرس الثوري بعد أن شعرت أن كل شيء قد آل إلى نهاية منكسرة. أما في الجانب العراقي، فاستثمرت القوات العراقية هزيمة العدو بقوة، وفرضت معطيات جديدة بجمعها أعداد كبيرة من الأسرى بلا قتال، وغنمها آلاف الأسلحة والآليات والدبابات.

كلُّ هذا الوضع مهد لمشروع زج قوات المعارضة الإيرانية في معركة أريد لها أن تحسم الوضع في إيران وتشعل ثورة ضد الحكومة الدينية. قبل العملية الكبرى، نفذت المعارضة الإيرانية بالتعاون مع كتائب الاستطلاع العراقية عمليتي توغل في قاطع كرمنشاه، استطاعت خلالها دحر ألوية من قوات البسيج المنهارة، وعادت مرتين بآلاف الأسرى، وتحدثت بيانات مجاهدي خلق التي كان تبثها القناة الثانية للتلفزيون العراقي في ساعة ونصف مخصصة لبثهم كل يوم، عن 1500 أسير في العملية الأولى و1600 أسير في العملية الثانية وبين العمليتين فاصلة أسابيع فحسب. وطافت شاحنات هينو بيضاء أنيقة مكشوفة تابعة لمجاهدي خلق بالأسرى في شوارع المدن العراقية إعلانا عن نصرهم الكبير. ويبدو أن هذه الانتصارات اقنعت القيادة العراقية بتنفيذ عملية كبرى مشتركة مع المعارضة الإيرانية.

وبدأت عملية الضياء الخالد، ويسميها الموالون لنظام خميني "عمليات مرصاد"، وتعرف في صفحات مجاهدي خلق الحربية باسم "فروغ جاويدان" وتعني (الضياء الخالد) في 25 تموز/يوليو 1988، وقد كُلفت بواجب الإشراف والتنسيق مع مركز المخابرة المشترك مع قيادة عمليات الضياء الخالد لأني اتقن الإنكليزية، واعتبرت قيادة الفيلق أنني يمكن أن اتفاهم مع كوادر مخابرة مجاهدي خلق بالإنكليزية. ولأول مرة رأيت عن كثب مسعود رجوي ببدلة عسكرية زيتونية وفي جنبه مسدس سميث، ومريم رجوي وهي ترتدي نوعاً عسكرياً من حجاب أحمر وبدلة خاكية اللون طورته المنظمة ليكون زياً لنسائها ويتدلى إلى جانبها مسدس نصف ويبلي أنكليزي. ودخل من الجانب العراقي معهم، مدير الاستخبارات

العسكرية العامة الفريق الركن صابر عبد العزيز الدوري ورافقهم رئيس أركان الفيلق الثاني آنذاك. ومعهم جمع من هيئة ركن الفيلق ومن قيادات حزبية وعسكرية أخرى.

دلف الجمع إلى غرفة العمليات، فيما خصصت لمركز المخابرة غرفة ملحقة بالعمليات، وضعت فيها بدالتا ميدان سويديتان من نوع اريكسون، بسعة 30 خطاً لكل منهما، كما وضعت أجهزة مخابرة بترددات HF , VHf لإدارة شبكة القيادة الخاصة بهم. هذا علاوة على محطة راديو ريلي سويدي، كبيرة جداً محمولة في شاحنة مرسيدس أتمارسان مغلّفة، وضعت قرب بدالة الفيلق الثاني، مقابل محطة أخرى خرجت مع ضابط الارتباط العراقي الذي رافق القطعات الإيرانية المتوغلة، وقام بهذا الواجب، زميلي في الكتيبة الرائد احتياط مخابرة ج. وقد بقي على اتصال معي عبر شبكاتهم، وحسب ما فهمت منه عبر الشبكة السلكية فإنه قد استقر على مبعدة قريبة من مدخل حوض سربل زهاب الشمالي على سفوح جبل سيسر الشمالية الغربية المطلة على الوادي الفسيح.

كان التعاون المنتظر بيننا وبين عناصر مخابرة مجاهدي خلق غير مجدٍ، فهم يتكلمون الفارسية مع محطاتهم وقياداتهم، وانا لم أكن أعرف كلمة واحدة باللغة الفارسية، وهكذا اقتصر الأمر على اجاباتهم القصيرة عن أسئلتي التي أوجهها لهم بالإنكليزية، وكانت انكليزية عاملات البدالة الخاصة بهم سيئة وضعيفة وعاجزة عن إيصال أيّ فكرة، وبدا لي أن القيادة العراقية تعمدت هذا الوضع لأسباب تكتيكية، وإلا كان بإمكانهم ببساطة إلحاق عناصر من الاستخبارات العراقية يتقنون الفارسية بمركز المخابرة المشترك. وبقيتُ أنسق على هاتف جانبي خصص لي على بدالتهم، مع الرائد ج. وفهمت منه أن القطعات تقدمت بسرعة داخل العمق، وبقي هو على الطريق المعبّد المساحل للحدود من الجانب الإيراني يرقب توغلهم ويؤمن الاتصال معنا عبر محطاتهم السلكية على محطة الراديو السويدي واللاسلكية على أجهزتهم.

كانت الأهداف المتوخاة للعملية كما فهمت من زميلي في العمق الإيراني هو الوصول إلى طهران واسقاط نظام الحكم فيها. لكن تقدم القطعات السريع تحقق في اليوم الأول، ثم انحشرت القطعات في تنك مرصاد (مضيق مرصاد) على مدخل مضيق بايطاق، وتصدت لها مجموعات من البسيج ومن الحرس الثوري، ومن قوات المعارضة العراقية الإسلامية المتعاونة مع إيران (قوات فيلق بدر كما قيل لي فيما بعد).

وفي بداية توغلهم، تباشر العاملون في مركز المخابرة، وابلغني عنصر المعارضة الايرانية القائم بقيادة المركز، وينادونه ب "آغا مهندس " أن قتلى القوات الإيرانية جاوز خمسين ألف خلال الساعات الأولى للهجوم. ولم أصدق هذا الرقم، لاسيما أن تقدم قطعاتهم جاء مباغتاً سريعاً، وتلك المدن التي استولوا عليها، وهي كرند وإسلام اباد مدن صغيرة خالية من القوات المدافعة. تلك الليلة أرسل ضابط ركن استخبارات الفيلق في طلبي على انفراد،

وطلب مني أن أوجز له ملاحظاتي عما جرى، وقد شرحت له أنّهم يتكلمون الفارسية التي لا أفقه منها حرفاً، والوحيد القادر على الحديث بالإنكليزية بينهم هو المسؤول عن مركز المخابرة المشترك وينادونه" أغا مهندس"، ونقلت له ما قال لي حول عدد القتلى الايرانيين الذي جاوز 50 الف قتيل! وأبديت له ملاحظتي بأنّ هذا الرقم يبدو مبالغاً فيه، في ظل ما سمعته من ضابط ارتباطنا المتقدم الرائد ج. الذي تحدث عن اندفاع سريع لقطعات مجاهدي خلق دون مقاومة تذكر، فمن أين جاء هذه الرقم؟ ونقلت له بالتفصيل ما كشفه لي على الهاتف زميلي الرائد ج. بأنّ الحماس وحده كان يحرّك قوات مجاهدي خلق المكوّنة من الرجال والنساء على قدم سواء. شكرني العقيد الركن ضابط ركن استخبارات الفيلق لهذا الإيجاز وعدت إلى مركز المخابرة المشترك.

فيما بعد تأكد للمتابع أن مقاتلي مجاهدي خلق كانوا يفتقرون بشكل كبير إلى خبرة الميدان، وهذا ما جعلهم يندفعون في العمق دون خطة اسناد أو تأمين مواضع دفاعية محصنة، ودون قدمات إدارية معقّبة، لاسيما أنهم يفتقرون إلى مدفعية الميدان، واعتمدوا كلياً على مدافع الناقلة بنهاردت البرازيلية، التي عانت من خلل الترشح بعد اطلاقاها 20- 30 قذيقة. وهذا يعني أن القطعات توغلت بعمق وصل إلى 34 كيلومتر دون اسناد مدفعي، وكان يسيراً على القوات المدافعة، أن تحاصرهم وتبيدهم. وحال أن بدأت هاوانات ومفارز مقاتلة الدروع 106 الخفيفة الإيرانية في الرمي على ناقلات بنهاردت، تثقّبت وتمزقت إطارات الناقلات المطاطية، وباتت قبوراً معدنية مقفلة على من فيها، هذا غير أن القوات المحمولة في الشاحنات الأنيقة البيضاء الكبيرة كانت أهدافا سهلة جدا في المضايق لمفارز الرشاشات الثقيلة ومفارز مقاتلة الدروع الإيرانية الخفيفة.

في مركز المخابرة التابع للقيادة المشتركة، وابتداء من اليوم الثاني للعمليات، رانت ملامح الرعب والحزن على وجوه عاملات البدالة، وعلى تصرفات "المهندس" الإيراني المسؤول عن مركز الاتصالات والتي اتسمت بعصبية مشوبة بالكآبة. كانوا يتحدثون عن طائرات هليكوبتر إيرانية وطائرات مقاتلة من نوع F4 تدك معاقل القوات المهاجمة وتسحقها.

في اليوم الثالث، بدأ الرائد ج. يبلغني بهلع عن انسحاب غير منظم لقطعات مجاهدي خلق، مع أعداد كبيرة من الجرحى وبعض الجثث. وطلب مني أن أبلغ قيادة كتيبتنا بأنه بات في وضع خطر. سارعت أتصل بآمر كتيبتنا وأبلغه بحراجة وضع الرائد ج. فطلب مني أن أؤمن له اتصالا مباشراً به. فعلت ذلك على بدالة غرفة العمليات المشتركة. في مساء ذلك اليوم صدر أمر للرائد ج. بالانسحاب مع محطته إلى داخل الحدود العراقية، واتخاذ موضع له شمال غرب مخفر المنذريه، ونصب المحطة هناك. جرى تنفيذ الأمر ليلاً، ولم يتمكن طاقم محطة الراديو الإيراني من إعادة نصب المحطة حتى صباح اليوم التالي وهو اليوم الرابع للقتال، وبقيت من جانبي على اتصال برائد جاسم على محطة لاسلكي تعود لمجاهدي خلق. باتت القوات المتوغلة تخشى العمل على الشبكات اللاسلكية بعد توقف محطة الراديو،

بسبب شدة القصف المدفعي والجوي الإيراني، وكان أغلبه يجري بهاوانات متوسطة وثقيلة أحيانا مستهدفا البث اللاسلكي. فيما كانت الطائرات تغير على الأرتال المنسحبة وتحيلها ركاماً.

بدا لي الموقف في اليوم الرابع ميؤوساً منه تماماً، وفعلاً، ففي ليلة 29/ 30 تموز/ يوليو 1988، أغلق مركز القيادة المشتركة، وغادر مسعود ومريم رجوي مقر الفيلق، وأغلق مركز المخابرة المشتركة، وعدت إلى الكتيبة.

***

يوم النصر ورصاصة في باب سيارتي!

بعد إعلان نظام إيران قبوله بقرار وقف الحرب، وبعد سيل الانتصارات وما خلفته من غنائم وأسرى من قوات العدو منذ بداية هذا العام، بات الجميع ينتظرون إعلان العراق قبوله وقف إطلاق النار الذي طال انتظاره بلهفة منذ 8 سنوات.

يوم السابع من آب/ أغسطس 1988، اتصل بي أحد معارفي ويعمل في معرض سيارات في معارض النهضة ببغداد، وابلغني أن سيارة فولكسفاغن باسات برازيلي جديدة معروضة للبيع عنده بسعر مناسب. جاء الاتصال بعد طلبي منه قبل شهر بأن يجد لي سيارة جديدة بهذه المواصفات. كانت كل الجبهات هادئة تماماً والأعمال متراخية متوقفة في كل الوحدات العسكرية بانتظار اعلان العراق وقف إطلاق النار، والأخبار تتناقل عبر العالم أنّ ما تبقى في الخزانة الإيرانية لا يزيد عن 100 مليون دولار، وهذا كان سبباً حاسماً لقبولهم وقف إطلاق النار.

صبيحة اليوم التالي، غادرت معسكر المنصورية إلى بغداد، وعصر ذلك اليوم في الساعة الخامسة كنت في معرض في النهضة، وكانت بانتظاري سيارة volkswagen passat 1.8 باسات، بعداد صفر، بيضاء اللون من انتاج البرازيل لعام 1988. اشتريت السيارة، وعدت بها إلى البيت، وكان راديو وتلفزيون بغداد يطلب من العراقيين ترقب بث خبر هام الساعة الثامنة.

في الثامنة تماماً من يوم 8.8.1988 أعلنت وسائل الاعلام العراقية وقف إطلاق النار مع إيران لتضع بذلك حداً لحرب استمرت 2888 يوماً. كانت التنويعات على رقم 8 غريبة جداً في هذا التاريخ...كل شيء في الرقم ثمانية، هل هي مصادفة أم مصادفة مصنوعة!؟

وضجّت سماء بغداد بإطلاق النار فرحاً بالمناسبة التي تلهف الناس لها، الأغاني في كل مكان، وخرجت إلى حديقة الدار ورميت 10 اطلاقات أو أكثر من مسدسي العسكري الروسي ماكاروف 4.5 ملم في الهواء مشاركة في الفرحة العارمة التي عمت القلوب. وشرع التلفزيون ينقل مشاهد مباشرة من المدن العراقية وخاصة العاصمة تعرض احتفالات عفوية للناس بهذا الحدث السعيد. طلبت مني زوجتي أن نخرج لنذهب لزيارة أهلها في الأعظمية، حيث أن أختها وعديلي وهو ضابط برتبة رائد في الحرس الجمهوري موجودين عندهم الآن.

خرجنا وسط رشقات الرصاص في سماء العاصمة من فوهات نارية بمختلف العيارات، كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلاً، والشوارع تختنق في المنعطفات والساحات بالسيارات، والكل يصفق ويغني والنسوة يزغردن في كل مكان، وصلنا إلى مفرق المجمع

العلمي العراقي في الوزيرية، وتوقفت في الإشارة الضوئية الحمراء، كانت زوجتي تصفق وتكلم النسوة الفرحات من نوافذ السيارة. وبعضهن يندبن أبناءهن القتلى أو الأسرى، فيما تزغرد أخريات فرحاً بنهاية الحرب دون أن يفقدن عزيزاً.

مع الإشارة الضوئية الخضراء، بدأت انطلق فسمعت صوت جسم معدني يرتطم بباب السيارة من جهتي، تلفت باتجاه الصوت فلم أجد سيارة قريبة، وخمنّت بسرعة أنّ رصاصة قد أصابت السيارة، ولكن التوقف في وسط السيل العارم السكران من السيارات الزاعقة وركابها يطلقون النار كان انتحاراً، لذا سألت زوجتي خشية أن تكون قد أصيبت فأجابت أنها بخير وبقيت أسير مع السيارات بسرعة، ولم أستطع التوقف حتى وصلنا بيت أهلها، وكان زقاقهم في حي راغبة خاتون يضجّ بالرمي وبالراقصين والراقصات والأطفال والأنوار والطعام والشراب يوزع على الجميع. وبصعوبة بالغة أوقفت سيارتي أمام بيتهم، حيث تقف سيارة عديلي، وسيارات تعود للجيران. ونزلت أتأمل السيارة، فوجدت رصاصة بندقية كلاشنكوف قد استقرت في حافة الباب من جهة السائق التي تلتقي بالدعامة الوسطى بين البابين، دون أن تخرق وتدخل إلى الدعامة. نزعت الرصاصة بأصابعي، ووضعتها في جيبي وكأنها كانت إعلان نهاية حرب رمزي مفاده أني خرجت سالماً رغم جحيم القنابل والقنابر والصواريخ والرصاص المتساقطة حولي وقربي وحتى فوق السقوف التي كانت تظللني طيلة 8 سنوات.

ودلفنا إلى بيت أهل زوجتي حيث الفرحة تعمّ الجميع، فالنسيبان كانا ضابطين في جبهات الحرب، والأبن كان يقترب من التخرج، وستدركه لعنة الجندية، وهكذا فإنّ نهاية الحرب بالنسبة لهم، كانت إعلان انتصار لبيت كامل على الموت أو على سيل المصائب المتصل بالحرب.

قال عديلي وقد ملأت وجهه ابتسامة فرح ظاهر: أخيرا نجونا من قادسية ابن صبحة، الآن يمكن أن نبدأ حياة جديدة.

أجبته مؤيداً، ثم تداركت بالقول: هل تعتقد أنّ عصر الحروب قد أنتهى؟

أجابني بضحكة حزينة وبصراحة باهرة: مع ابن صبحة (صدام حسين) لا يوجد سلام، سيشعل حرباً أخرى أو على الأقل سيشعل أزمة بمستوى حرب. كان عديلي يتكلم عن صدام بهذه الصراحة الجارحة رغم أنّه نفسه تكريتي، وقريب من مراكز القرار في القصر الرئاسي.

شاشة تلفزيون بغداد تعرض لقطات من ساحة الاحتفالات الكبرى في المنصور وقد تدفق عليها آلاف العراقيين، فيما صعد صدام إلى شرفة صالة الشرف وهو بالزي العربي ، وصوت المطربين يصدح بالغناء له والثناء عليه والتحميد والتسبيح بنصره، وكأنّ النصر صناعته وليس صناعة الدم والعذاب والحزن في أرجاء الوطن!

كان أعلى الأصوات صوت ياس خضر وهو يشدو "سيدي شكد أنت رائع، للوطن من شعب رائع سيدي، بيدك الطيبة الكريمة والله دوايت المواجع".

تلك الليلة، لم ينم العراق، فالفرح يجتاح البلد من شماله إلى جنوبه، لكنه فرح بنكهة الخوف والدم والحزن. بالنسبة لي كنت أحاول أن اتنفس الصعداء، فقد مضى على تخرجي من الجامعة 9 سنوات، ولم أمارس اختصاصي، وتحولت إلى ضابط محارب (احتياط) رغماً عني وتدرجت بالرتب حتى وصلت رتبة نقيب. إلى أين سأتجه الآن، وماذا في أفق المستقبل؟

حين قامت الحرب في 22 أيلول/ سبتمبر عام 1980 كان عديد القوات المسلحة العراقية أقل من ربع مليون جندي وضابط، ولم يزد عديد القوات البرية عموما عن 190 ألفاً فيما توزع الباقون على القوتين الجوية والبحرية.

وحسب تقديرات عسكرية من داخل المشهد، وغربية من مصادر عسكرية، فإنّ التشكيلات الأساسية كان عمادها 12 فرقة عسكرية. وقدر عدد الدبابات بنحو 1740 دبابة غالبيتها طراز تي-54 وتي-55 وتي-62 والقليل من دبابات تي-72 (حين بدأت الحرب كانت في الجيش ثلاث كتائب من هذا السلاح هي كتائب اللواء المدرع العاشر. وكان من المقرّر أن تصل إلى العراق المزيد من دبابات تي-72 بحراً قادمة من الاتحاد السوفيتي، إلّا أن موسكو استعادتها فور نشوب الحرب وفرضت حظراً على تصدير السلاح للعراق.

الفرق التي دخل بها العراق الحرب مع إيران هي:

الفرقة الأولى الآلية / الميكانيكية ومقرها في الديوانية

الفرقة الثانية مشاة ومقرها في كركوك.

الفرقة الثالثة المدرعة ومقرها تكريت.

الفرقة الرابعة مشاة ومقرها الموصل.

الفرقة الخامسة الآلية / الميكانيكية ومقرها البصرة.

الفرقة السادسة المدرعة ومقرها بعقوبة.

الفرقة السابعة مشاة جبلي ومقرها السليمانية.

الفرقة الثامنة مشاة جبلي ومقرها أربيل.

الفرقة التاسعة المدرعة ومقرها السماوة.

الفرقة العاشرة المدرعة ومقرها بغداد.

الفرقة الحادية عشر مشاة ومقرها معسكر عين زاله في الموصل.

الفرقة المدرعة الثانية عشر ومقرها دهوك.

اللواء 31 قوات خاصة

اللواء 32 قوات خاصة

اللواء 33 قوات خاصة

لواء الحرس الجمهوري واللواء المدرع العاشر وكلاهما بإمرة رئاسة الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة مباشرة.

أما القوة الجوية العراقية فيقدر عديدها في عام 1980 بنحو 18 ألف ضابط وجندي، وتكوّن مجمل سلاح الجوي العراقي من 332 طائرة على النحو التالي:

115 طائرة ميغ 21

80 طائرة ميغ 23

40 طائرة سوخوي7

60 طائرة سوخوي 20

15 طائرة هوكر هنتر

10 طائرات إليوشن 28

12 طائرة توبوليف تو 22

فيما تألفت قوة الدفاع الجوي من 10 آلاف ضابط وجندي ومجهزة بمنظومات الدفاع جوي تضم بطاريات صواريخ سام 2 وسام 3 وسام 6 وصواريخ أخرى ومدافع مضادة للطائرات من عيارات 37 ملم، و157 ملم.

أما القوة البحرية فلم يزد عديدها عن 4 آلاف ضابط وجندي، وكانت مسلحة بزوارق صواريخ وسفن صغيرة، وخلت من المدمرات والبوارج، رغم وجود عقود طموحة بهذا الشأن، بين العراق والاتحاد السوفياتي، وبين العراق والصين، وبين العراق وكوريا الشمالية، وبين العراق وإيطاليا، والعراق وإسبانيا. لكنّ العقود ألغيت بسبب قيام الحرب وانقسام المجتمع الدولي سياسياً بشأن طرفي تلك الحرب المدمرة.

جيش بهذا الحجم وبتلك الإمكانات المتواضعة جداً، ما كان بوسعه أن يحتل دولة بحجم سوريا، حدث ولا حرج عن دولة بعمق الجغرافية الإيرانية التي تفوق حجم العراق بثلاث

مرات، وبكثافة بشرية تفوق نفوس العراق أربع مرات، وبترسانة سلاح تفوق الترسانة العراقية بمرات عديدة. لكن حسابات حقل صدام حسين لم تطابق حسابات بيدر الجنود والضباط الذي عاشوا على الأرض رعب تلك السنوات المدمرة.

***

من جيش الحرب إلى جيش السلام

بعد أسبوع من قرار وقف إطلاق النار، كنت في إجازة أنقل بيتي، وقد أعارني أحد الأصدقاء شاحنة صغيرة لهذا الغرض، وبعد أن رجعت من سفرة نقل الأثاث الأولى إلى البيت الجديد، أخبرتني زوجتي أنّ معاون كتيبة مخابرة الفيلق الثاني قد طلبني هاتفياً وأبلغهم بضرورة أن اتصل به حال عودتي لأمر فوري لا يحتمل التأجيل.

كان الأمر مضحكاً، فما هو الأمر الضروري الفوري الذي لا يحتمل التأجيل، ونحن في زمن السلام، والجميع ينتظرون إعلان التسريح ليفارقوا فرحين البزات الكاكية وقد تيبست فوق جلودهم لما يقرب من عقد من الزمن بعرق وتراب وبارود المعارك؟ ثم تذكرت أنني ما زلت تحت قانون الجيش، واعتبارات الحرب والسلام مسائل نسبية بالنسبة للعسكر، وهكذا اتصلت بمعاون الكتيبة، فسلّم عليّ بود وهو يمزح قائلاً: يا عزيزي النقيب لقد صرت فجأة شخصاً مهماً جداً!

أجبته ضاحكاً وأنا أجاريه في المزاح: يا سلام، هل صدر أمر تعييني مديراً للمخابرة بهذه السرعة؟

أجابني موغلاً في المزاح: لا يا عزيزي أنت ما زلت صغيراً في الجيش، ولم تشبع بعد من خبز العسكر، ولهذا فقد صدر أمر نقلك فوراً!

تجمّد الدم في عروقي لكلامه، وسألته بلهفة إن كان كلامه حقيقة أم إنه يمزح؟

أجاب بكل جد: أنا أتحدث بمنتهى الجد، لقد صدر كتاب نقلك ووصلنا بكتاب فوري الساعة 2 من فجر اليوم، وقد ايقظني معتمد الكتيبة من النوم خصيصاً لهذا السبب لأنّ نص الكتاب يشترط تنفيذ الأمر دون إبطاء وحال استلام الرسالة في موعد أقصاه 24 ساعة من صدور الكتاب، والكتاب موقّع شخصياً من قبل السيد وزير الدفاع! أنت منقول بأمر السيد وزير الدفاع شخصياً، وقد أرسلنا لك كتاب انفكاكك بيد مأمور، سيصلك بعد قليل، وعليك أن تلتحق اليوم حتماً.

نظرت في ساعتي، فوجدتها الثانية بعد الظهر، فسألته بلهفة" يا سيدي العزيز، إلى أين أنا منقول؟

اجابني بحزم: أنت منقول إلى مديرية العلاقات العامة والوفود في وزارة الدفاع؟ وأكرر عليك الأمر، يجب أن تلتحق اليوم دون إبطاء؟

لكن يا سيدي، الساعة الآن هي الثانية، وحتى يصل المأمور قد تصبح الرابعة بعد الظهر، هل التحق إلى وحدة لم أسمع بها رغم عملي في وزارة الدفاع ولا أعرف ما هي ولا أين تقع في الساعة الخامسة مساء؟

أجابني بغضب نصفه مزاح: أنت عسكري وتفهم أوامر العسكر، الكتاب يقول خلال 24 ساعة، وقد منحناك انفكاكاً فورياً دون أن تسلّم ذمة سرية المقر التي أنت آمرها، وهي ذمة بملايين الدنانير، وجرى ذلك خلافاً لكل أوامر وأعراف الجيش تنفيذاً لأمر السيد وزير الدفاع، أرجو أن تفهم هذا، وتكفّ عن الجدل، لقد أبلغتك شفوياً الأمر، وأرسلت الكتاب إليك بيد مأمور، هل تستطيع أن تتأخر في تنفيذ أمر المافوق؟

اعتذرت له، ووعدته أن التحق حال وصول المأمور، وأبلغت أهل بيتي بما جرى، فضحكت زوجتي وقالت: لعلهم عينوك سفيراً وأنت لا تدري، وإلا لماذا يوقّع كتابك وزير الدفاع شخصياً؟

أتصلت ببدالة وزارة الدفاع، ونصف العاملين عليها من جنودي في كتيبة المواصلات السلكية، وطلبت نائب ضابط ب. مأمور البدالة وسألته عن الدائرة المذكورة، فطلب مهلة بضع دقائق، عاد بعدها ليخبرني أنها في شارع السعدون، في الفرع المقابل لسينما النصر من جهة شارع أبي نؤاس.

تعطل مشروع نقل البيت، واضطررت لتعليق النقل بانتظار الالتحاق بوحدتي الجديدة. ثم جلست مع أهل بيتي، نعيد ترتيب أولوياتنا ونضرب أخماساً بأسداس حول مستقبلي المجهول في العام التاسع من خدمتي العسكرية!

بعد نحو ساعة، وصل مأمور الكتيبة، وسلمني كتاب النقل، وأبلغني مرة أخرى بأمر معاون الكتيبة بضرورة التحاقي اليوم بوحدتي الجديدة.

وما لبثت أن ارتديت بزتي العسكرية، وخرجت باحثاً عن مديرية العلاقات العامة والوفود مقابل سينما النصر، كانت الساعة قد جاوزت الخامسة مساء، دخلت الزقاق الموصوف، وأوقفت سيارتي في مكان خالٍ، ثم ترجلت أبحث عن وحدة عسكرية، فلم أجد سوى بناية مدنية صغيرة، عليها يافطة صغيرة تحمل الرقم 5537، ويقف على بابها رجلان يرتديان ملابس مدنية نقابية، وتحت ستراتها تنتفخ مسدساتهما على طريقة الدوائر الأمنية! اقتربت منهما، وسألت بلطف عن مديرية العلاقات العامة والوفود، فابتسم أحدهما وقال: وصلت بالضبط! هل تحمل سلاحاً؟ أجبته بالنفي، فقال: تفضل إلى الاستعلامات لطفاً.

اجتزت البوابة بهدوء قلق، ودخلت غرفة أنيقة مرتّبة باردة بفعل مكيف عملاق، ويجلس في صدرها إلى مكتب أنيق، رجل يافع بملابس مدنية، تقدمت منه وأبلغته أني منقول إلى

وحدتهم بموجب الكتاب السري والشخصي الموجود في هذا المغلف، ووضعت المغلف أمامه.

ارتبك الرجل بشدة، ونهض من مكتبه وهو يسألني: منقول إلى مديريتنا؟

أجبته: نعم بموجب هذا الكتاب!

قال وهو يخرج من خلف المكتب: تفضل أجلس هنا حتى أسأل السيد المسؤول عن هذا الموضوع! وخرج.

جلست وقد زدت حيرة، فالرجل لا يسأل الآمر أو ضابط الخفر، بل يقول إنه سيسأل المسؤول، وهذه لغة غير مألوفة بتاتاً في الجيش!!

بعد نحو 10 دقائق، عاد الرجل وأبلغني أن اتبعه لمقابلة المسؤول!!

دلفنا إلى المبني، وأخذنا مصعداً حتى الطابق الثاني، ثم قادني الرجل إلى مكتب أنيق فسيح، تتصدره منضدة مكتب زرقاء اللون جلس إليها مقدم طيار أشقر وسيم. أديت له التحية وقدمت نفسي فبشّ في وجهي باسماً، وقام عن مقعده مادّاً يده ليصافحني، فانتبهت إلى أنّ رجليه غير متوازنتين، ما يعني أنه معاق (هذا يفسر كيف يعمل مقدم طيار في هذا المكان في هذه الظروف!)، وصافحنى ثم أوعز لي بالجلوس إلى كنبة وثيرة بجوار المكتب.

غطست فيها جالساً، وأمسك المقدم بكتابي في يده وهو يسألني: هل أُبلغتَ رسمياً أنّ هذا كتاب نقلك إلى هذه المديرية؟

اجبته محتاراً: نعم يا سيدي، والحقيقة أنني كنت في إجازة، وقد اتصل بي هاتفياً معاون كتيبتنا، كتيبة مخابرة الفيلق الثاني، وأبلغني أنّ هذا كتاب نقلي لكم، وهو موقّع من قبل السيد وزير الدفاع شخصياً، ومعه مرفقا كتاب انفكاكي، لذا أرجو نشر التحاقي لأني أنقل أثاث بيتي إلى بيت جديد، واحتاج إلى يومين على الأقل حتى أتم الانتقال وأعود لأكون في خدمة وحدتي الجديدة!

اتسعت عينا المقدم وسألني مردداً بهدوء: أنت منقول إلينا بكتب موقع من قبل السيد وزير الدفاع شخصياً؟

اجبته مبتسماً: أنا لم أرَ نص الكتاب بعيني، لكن أبلغت بمضمونه هاتفياً!

تلعثم قليلاً، ووضع يده على رأسه مفكّراً، ثم رفع سماعة الهاتف، ورن على رقم، ليكلم باحترام ضابطاً رفيعاً في الطرف الآخر، ويشرح له كل ما قلته له. المفاجأة أنّ الضابط المسؤول أو أيّاً كان قد فوجئ هو الآخر بالأمر، وتكلم قليلاً مع المقدم الخفر، ثم وعده أن يعود إليه قريباً بجواب عن الموضوع.

انهى المقدم المكالمة وسألني إن كنت أسكن قريبا من مكان المديرية، فأجبته أني ساكن في بغداد، لكن بيتي ليس قريباً من هنا. فعاد يحادثني بأمور عامة، عن الجيش والفرق بين الخدمة في وحدات القوة الجوية ووحدات الجيش، مبدياً تقديره لجهود ضباط القوة البرية في سنوات الحرب، وهكذا دار بيننا حديث لا معنى له لنحو نصف ساعة. ثم رن جرس الهاتف، فتكلم مع نفس المسؤول الرفيع، وتلقى منه أمراً ما وأغلق الهاتف وقال لي: يمكنك أن تذهب الآن وتعود لنا مع الكتاب غداً في الساعة 11 صباحاً.

وهكذا تأجل الأمر حتى الغد، وحين جئت في الغد أخذوا مني كتاب النقل، وابلغوني بالحضور غداً، وبعد أيام من المراجعات وتضييع الوقت، أتممت نقل مسكني بشكل متعثر بين مواعيد لا طعم لها، وضياعٍ غير مبرر، حتى انتهى الأمر بإبلاغنا بعد نحو أسبوع بالالتحاق ب"الهيئة العامة لتطبيق قرار مجلس الأمن الخاص بوقف إطلاق النار بين العراق وإيران" ومقرها في بناية نقابة عمال الكهرباء والميكانيك في الحارثية! تذكّرت المكان الذي أوصلت له كابلاّ قبل 3 سنوات حيث كان مقراً سرياً للقيادة العامة للقوات المسلحة. هل يعني هذا أني منقول الآن بكتاب سري إلى دائرة مرتبطة مباشرة بالقيادة العامة للقوات المسلحة؟؟

التحقت في نفس اليوم إلى الهيئة المذكورة، فوجدتها دائرة مرتبكة قد تشكلت تواً، وليس فيها سوى آمرها الفريق الركن موفق رشاش، ومعه عقيد وعميد وبضع نواب ضباط، ولا يعرفون من أين وكيف سيبدأ العمل لأنّ الهيئة قد تشكلت حديثاً وليس لها سابقة في الجيش! كما أكتشفت أنني لست الوحيد المنقول إلى هنا، بل إن أمر وزير الدفاع قد شمل 88 ضابطاً مجنداً واحتياطاً في عموم القوات المسلحة وكلهم من خريجي اللغات الأوروبية.

بقينا نتردد على الهيئة كل صباح، ويخبرونا في نحو الثانية عشرة بالذهاب إلى بيوتنا والالتحاق يوم غد. وفي النهاية صدرت أوامر تنسيبنا إلى الهيئات الفرعية المرتبطة بالهيئة، وجرى نقلي إلى دائرة القاطع الأوسط لهيئة التنسيق مع مراقبي الأمم المتحدة لوقف إطلاق النار ومقرها بناية نادي الموظفين السابق في بعقوبة! وعرفنا بعد أيام أنّ تسميتنا الرسمية هي "مجموعة المراقبة العسكرية التابعة للأمم المتحدة بين إيران والعراق" والمعروفة اختصاراً (UNIIMOG).

هذه المجموعة هي لجنة تابعة للأمم المتحدة أنشأها مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة نهاية الحرب بين إيران والعراق بموجب القرار 619 المؤرخ 9 آب/ أغسطس 1988. وكان هدفها مراقبة الهدنة التي تمت بين الطرفين منذ آب/ أغسطس 1988 والتي تم رسمها في أعقاب قرار مجلس الأمن 598 المؤرخ 20 يوليو 1987. قام ممثل شخصي للأمين العام للأمم المتحدة بتأمين تنفيذ قرار الأمم المتحدة، وهو الجنرال يان إلياسون من الجيش

السويدي، فيما يتولى الجنرال أنعام خان من جيش بنغلاديش مسؤولية قيادة الفريق العامل في العراق، ويقابله في الجانب الإيراني الجنرال سلافكو يوفيتش من جيش يوغسلافيا.

وفقًا للأمم المتحدة، "تم إنشاء UNIIMOG في أغسطس 1988 ومقر قيادتها في بغداد وطهران للتحقق من وقف إطلاق النار وتأكيده والإشراف عليه وسحب جميع القوات إلى الحدود المعترف بها دوليًا، ريثما يتم التوصل إلى تسوية شاملة. يبلغ عديد الفريق الدولي العامل في الدولتين 400 عسكري قادمين بدون أسلحة من الدول التالية: الأرجنتين، استراليا، النمسا، بنغلاديش، كندا، الدنمارك، فنلندا، غانا، استراليا، ماليزيا، هنغاريا، الهند، اندونيسيا، ايرلندا، ايطاليا، كينيا، نيوزيلندا، نيجريا، النرويج، بيرو، بولندا، السنغال، السويد، تركيا، أوروغواي، يوغسلافيا، زامبيا.

كما انضمت إلى مكاتب قواطع العمليات، سرية من كتيبة مخابرة كندية توزعت فصائلها على القواطع لتأمين الاتصال مع مراقبي الهيئة خلال عملهم وانتشارهم، إضافة إلى سرية انضباط إيرلندية، توزعت للقيام بالوظائف البروتوكولية والدلالة على قواطع العمليات.

في هيئة القاطع الأوسط كان كلّ شيء جديد، وكان عدد المراقبين 9 ضباط، أما نحن ضباط الجانب العراقي فقد كان عددنا 5 ضباط فحسب، هم الآمر وهو عميد يحمل درجة ماجستير في اللغة الإنكليزية، إلا أنه ضابط معاق، وعقيد من الاستخبارات العسكرية لا يجيد اللغة الانكليزية إلا بمقدار "هالو هاو آر يو؟" وضابط برتبة مقدم، ماجستير لغة انكليزية منسّب من كلية الأركان، لكنه لا يريد أن يعمل في الهيئة ولا أدري كيف نقل إليها، وأنا، وضابط برتبة ملازم أول احتياط مشاة خريج كلية التربية لغة انكليزية نسي أغلب ما تعلمه في سنوات الحرب!

وهكذا أصبح واقع الحال أني الضابط الوحيد المتمرس باللغة الانكليزية وبتفاصيل وجغرافية القاطع وتوزيع الوحدات فيه، وبتّ أحرّك كل شيء. وتفاقم هذا الأمر بسبب نشوب حرب ضروس بين الآمر وعقيد الاستخبارات، فانشغلا ببعضهما ليقع العبء في معظمه عليّ أنا. المراقبون الدوليون برمتهم باتوا يبحثون عن "كابتن شعلان"، لأني خدمت في هذا القاطع وأعرف توزيع التشكيلات والوحدات فيه أحيانا حتى مستوى فصيل ،ولأني أتقن الانكليزية تحدثّاً وكتابة وقراءة.

السيارات التي خصصت للهيئة، كلها دفع رباعي من نوع تويوتا لاند كروزر انتاج عام 1988، ومع كل سيارة نائب ضابط سائق منسّب من جهاز الأمن الخاص الرئاسي! وكان المراقبون الدوليون ونحن نشعر جميعاً أنّ هؤلاء السائقين هم عيون السلطة لمراقبتنا عن كثب. لكنّ المؤكد أنهم جميعا كانوا يجهلون الانكليزية بشكل مطلق، وهم ليسوا أكثر من عناصر استخبارات تقليدية بلا مهارة.

كانت وحدتنا منشورة على آمرية موقع بعقوبة في الأرزاق والوقود، أما رواتبنا فبقينا نتقاضاها من وحداتنا الأصلية لأنّ أوامر تثبيتنا في وحداتنا الجديدة لم تصدر بعد، واقتصر الأمر على تنسيبنا إلى الهيئة بشكل مؤقت حتى إشعار آخر.

كانت طبيعة عملنا على الجبهة تتلخص بالتالي، يتقدم الجانب الإيراني بشكوى إلى الهيئة في جانبه، حين يلحظ أن الجانب العراقي قد عزز الجبهة بأسلحة ثقيلة أو قام بإضافة مواقع قتال وخنادق أو بتحصين الموانع الدفاعية، أو بزرع الغام إضافية، أو بتجاوز الحدود في بعض المناطق. فيقوم أحد المراقبين الدوليين، بالخروج إلى المنطقة التي حصل فيها الخرق حسب الإحداثيات المبلغة إليه من هيئة المراقبة في الجانب الإيراني برفقة أحد ضباط القاطع العراقيين، ويثبّت الخرق ويتأكد من وقوعه، ثم يعود ليقدم تقريراً بالقضية نافياً وقوع الخرق أو مؤكداً وجوده ومطالباً الجانب العراقي برفعه فوراً. ويحدث مثل هذا في الجانب الإيراني حين يلاحظ العراقيون وجود خرق من قبل القوات الإيرانية.

بعد شهر من الواجبات، بدأنا حين نزور المواقع العراقية المتقدمة جداً في الجبهة نلتقي ضباطا وجنوداً إيرانيين قدموا ليقضوا الوقت مع القوات العراقية، ويتبادلون مبيعات بضاعة الحوانيت بينهم، وهكذا. وصار الضباط العراقيون يبلغوننا بشكل شخصي وهم مرعوبين (خشية أن يُتهموا بالتواطؤ مع العدو الفارسي المجوسي!) أنّ القوات الإيرانية لا تظهر أي أفعال عدوانية تجاه القوات العراقية، وبالفعل لم تحدث ولا مرة واحدة حادثة إطلاق نار صوب القوات العراقية.

اضافة إلى واجبات الجبهة، أبلغنا بشكل جدي، أنه لا يجوز السماح لأي ضابط أجنبي بالنزول إلى العاصمة بغداد وحيداً مهما كان السبب، وحين يحتاجون إلى النزول لعمل رسمي أو لعمل شخصي أو للذهاب في إجازة إلى بلدانهم، فيجب أن يرافقهم ضابط من أول نزولهم حتى عودتهم على أن لا يفارقهم إلا في حالات دخولهم سفارات بلدانهم ومقر الهيئة العامة في الحارثية. هذا الأمر أحدث ارتباكاً كبيراً في صفوفنا، لأنّ عدد الضباط العراقيين المخصصين للواجب كان قليلاً، ولم يتمكنوا من التوفيق بواجبات المرافقة لزيارة الجبهة لتدقيق الخروق، وبين واجبات المرافقة والمراقبة لضباط الهيئة، وهي أصلاً من اختصاص مديرية الاستخبارات العسكرية أو مكاتب المخابرات العامة. وهكذا طلب الآمر من الهيئة العامة تخصيص ضباط من الاستخبارات العسكرية العامة لواجب مرافقة المراقبين الدوليين حين نزولهم إلى بغداد. وبقينا ننتظر صدور أمرٍ بهذا الخصوص.

في الأول من تشرن الثاني/ نوفمبر 1988 صدر الأمر بتسريح 10 مواليد جنود احتياط، و5 دورات ضباط احتياط، من ضمنها دورتي الدورة 30. وكانت الكارثة أن رئيس الهيئة العامة للتنسيق مع المراقبين الدوليين لوقف إطلاق النار طلب من إدارة الضباط استثنائنا نحن الضباط ال 88 من أمر التسريح للحاجة الماسة لخدماتنا مع المراقبين الدوليين،

وبالفعل صدر أمر من إدارة الضباط باستثنائنا بالاسم من أمر التسريح. بعد ذلك، تسرّب إلينا صدور مقترح تحويلنا إلى ضباط متطوعين في الجيش وإضافتنا إلى ملاك مديرية التطوير القتالي بعنوان ضباط مترجمين.

واتصلت بأصدقائي الجنرالات في مديرية التطوير القتالي وسألتهم عن صحة هذا الأمر، فأبلغوني أنّ المقترح وصل لمديرهم، لكنه كتب عليه مطالعة بعدم توفر ملاك في المديرية لتشغيل كل هؤلاء الضباط. حيث أن ملاك المديرية لا يحتوي على درجات تقل رتبة شاغليها عن رتبة عقيد.

وتسرب مرة أخرى اقتراح إضافتنا إلى كلية الأركان كمترجمين أو معلمين، لكنّ مشكلة الملاك وقفت بوجه المقترح، ثم تسرّب أنّ مقترحاً قد قدّم لإضافتنا إلى ملاك مديرية الاستخبارات العسكرية العامة بعنوان مترجمين، فاعتذرت المديرية فوراً بعدم وجود ملاك بهذا العنوان، وبأنّ "أضابيرنا الأمنية قد لا تناسب معايير" عمل مديرية الاستخبارات العسكرية العامة.

وتسربت قضيتنا من أروقة المديرية إلى مكتب وزير الدفاع، فطلب من رئاسة هيئة التنسيق تزويده بأسمائنا وأرقام دوارتنا، وبعد اطلاعه على المعروض، كتب وزير الدفاع الفريق أول الركن عدنان خير الله على هامش المقترح أنّ أمر التسريح الصادر عن القائد العام للقوات المسلحة لم ينص على أيّ استثناء، لذا يُنفذ الأمر فوراً بلا ابطاء، وعلى مديرية التطوير القتالي وكلية الأركان ومديرية الاستخبارات العسكرية العامة، تعويض هيئة التنسيق بضباط يسدون محل الضباط المتسرحين من مصادرها الخاصة! وكان هذا الأمر حاسماً وقد وضع الكرة في ملعب المديريات التي رفضت تعيينا، واضعاً إياها أمام عواقب بطرها الوظيفي المتغطرس!

في 1 كانون الأول عام 1988، وصل أمر تسريحي إلى كتيبة مخابرة الفيلق الثاني، ونسخة منه إلى هيئة القاطع الأوسط في الهيئة العامة للتنسيق مع مراقبي الأمم المتحدة، واستلمت كتاب التسريح من الجيش يوم الثاني من كانون الأول 1988. وهكذا امتدت خدمتي من 23 تموز/ يوليو 1979 حتى 2 كانون الأول/ ديسمبر 1988. وهي في أصل التكليف تنص على أنّ أؤدي الخدمة الإلزامية لمدة 23 شهراً كضابط مجند!

غروب ذلك اليوم، أقامت هيئة قاطع الوسط لي حفل وداعٍ لانتهاء خدمتي، شارك فيه ضباط الهيئة والمراقبين الدوليين ومنحني العميد آمر الهيئة هديةً رمزية، كما منحني أغلب الضباط المراقبين هداياً رمزية، ثم أوصلتني سيارة الهيئة الأنيقة الحديثة إلى البيت الساعة 9 ليلاً. ونزلت لآخر مرة من وحدتي أحمل نهائياً ملابسي العسكرية وكليّ أمل أني لن أرتديها مرة أخرى قط.

الفهرست

حرب الجيران – قادسيتنا ودفاعهم المقدس

أول ليلة وأول قربان

الدم الأول

عذراء قصر شيرين

قادسية مقدم ركن خلف عليان!

أبو علي بوجه الدبابات

ضربات نقيب شملان

قائد الفرقة الثامنة محاصرٌ في قرية!

قاصة وذمة الملازم سعد !

الحرب على حيوانات قرية "السترة"

عاشوراء المقدم عباس!

معركة الخيول

وجهاً لوجه مع إيرانيين لأول مرة

حرب المخابرة وحرب الاستخبارات

حربٌ على الكلاب

قادسية المقدمين- مكانك راوّح!

الجبهة هادئة وكارثة في بغداد!

حروب المخابرة وأعداء المخابرين

العقارب نواة الاستطلاع العميق

حرب العقيد الركن دحام راضي العسل

من التدريب إلى الجهد الهندسي المدني

أنزع كرامتك فأنتَ في بيت العسكر!

العقيد الركن سلطان هاشم آمر لواء العالي

مع صدام حسين على مائدة الطعام!

المحمّرة - استراتيجية الرعب قادت إلى الهزيمة!

جحيم المحمرة - اليوم الثاني

تائهون عند معبر الشلامجة

أنا والأسير بمواجهة علي حسن المجيد!

محطة استراحة إجبارية من جحيم المحمرة!

ليلة النشوة والعودة إلى الوادي الخصيب!

إلى شرق البصرة ببركة رياح الخماسين الرملية

مع النمل والرمل حتى بانت الحقيقة!

لقاءات على محاور الرازيت والشالتر!

طيور النقيب عادل

سرايا المغاوير- وحدات تائهة!

الرفاق الحائرون في شرق البصرة!

36 ساعة بلا نوم!

ساتر العدو الجديد في الأرض الحرام

عن الحمام والاستحمام في زمن الحرب!

إجازات العسكر- محطات الحياة في مقابر الحرب

قائد جديد وآمر لواء جديد وغاب الرفاق!

أمام محكمة الثورة!

مدير صنف المخابرة والبشارة الكبرى!

عمليات مجنون وهجوم على جبهة الفرقة الثامنة

من غموض مخيف إلى نصر باهر!

طائرة مسيّرة معادية تشق طبقات الغبار!

عملية جراحية في وسط الصحراء!

قطار البصرة الذي تكرهه الزوجات!

معجزة بمستوى نهاية الحرب!

تائه في أرض الذئاب!

بدالات بلا وظيفة وطواقم هاربة!

مشفرات خطوط القيادة السلكية

قضية كريبتو: دول عربية دفعت أموالاً ليتم التجسس عليها!

اتصالات مقر القيادة العامة للقوات المسلحة في الحارثية

ضباط الجبهة مصيرهم دائماً جبهة القتال

عجائب في لواء المغاوير

عودة إلى حضن المخابرة الدافئ

في خيمة على تلول إمام ويس

على راقم في ميمك إبان معارك التحرير

عمليات الضياء الخالد – آخر معارك الحرب

يوم النصر ورصاصة في باب سيارتي!

من جيش الحرب إلى جيش السلام

***** انتهى*****

هذا الكتاب

سفر دون رتوش لما عاشه رجال العراق خلال سنوات الحرب الثمان مع إيران في ثمانينات القرن العشرين. هذه إفادات صغار الضباط الذين كانوا في الخنادق الأمامية، ومرات في غيرها، وما قاله الجنرالات لا مكان له هنا، إنها كلمات مغموسة برائحة العرق والدم والخوف وترقب النصر وأوجاع الهزيمة هي الباقية في ذاكرتي.

توقفت كثيراً عند أسماء الضباط الذين عاشوا معي أحداث القادسية الجسام الدامية، وساءلت نفسي مراراً، هل أعلنها أسماء صريحة، أم أرمّزها بأسماء أخرى؟ وانتهيت إلى قرار إعلانها أسماء صريحة لمن عاشوا سنوات الجمر القاسيات.

الرجال في الجبهات والنساء وحيدات، وهذا نوع آخر من الحزن، فالأبناء كبروا بلا آباء، وأحياناً بحضور باهت من الآباء، وفي أحيان آخر بانتظار المفقودين من الآباء والأسرى منهم.

من يحزن لما يشهده العراق من خراب، عليه أن يعود إلى تلكم السنوات العجاف، حيث انطوت أعمار الأبناء والآباء في صفحات «قادسية صدام»، سيل الدم النازف بطول ثماني سنوات، خلّف هذا الكم الهائل من الخراب وهدر الطاقات والأموال وخيرات البلد الذي يجني خيباته اليوم العراقيون وقد انهوا العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين.

إنها حرب خاضها العراق وإيران بقياسات الحرب العالمية الأولى، وأحرقا فيها مليارات الدولارات عبثاً في خنادق لم تزد شبراً ولم تنقص إصبعاً. نحن الذين عشنا الجحيم، لم نكن نرى كل الصورة لأننا في داخلها، لكنني وقد ابتعدت عن الخنادق أكثر من **3** عقود، أرى الصورة واضحة رغم ذبول ألوانها.

وإذا كان العراقيون قد سيقوا مجبرين إلى «قادسية صدام» دون أن يؤخذ رأيهم، فإنّ اعداءهم في الجانب الآخر سيقوا هم أيضا مجبرين إلى ما بات يعرف بحرب «الدفاع المقدس». انها حرب الزعماء وليست حرب الشعوب، ولكنّ أغلب حروب التاريخ اشتعلت بإرادات الزعماء وليس بقرارات الشعوب، فهل في هذا عزاء لنا؟

ملهم